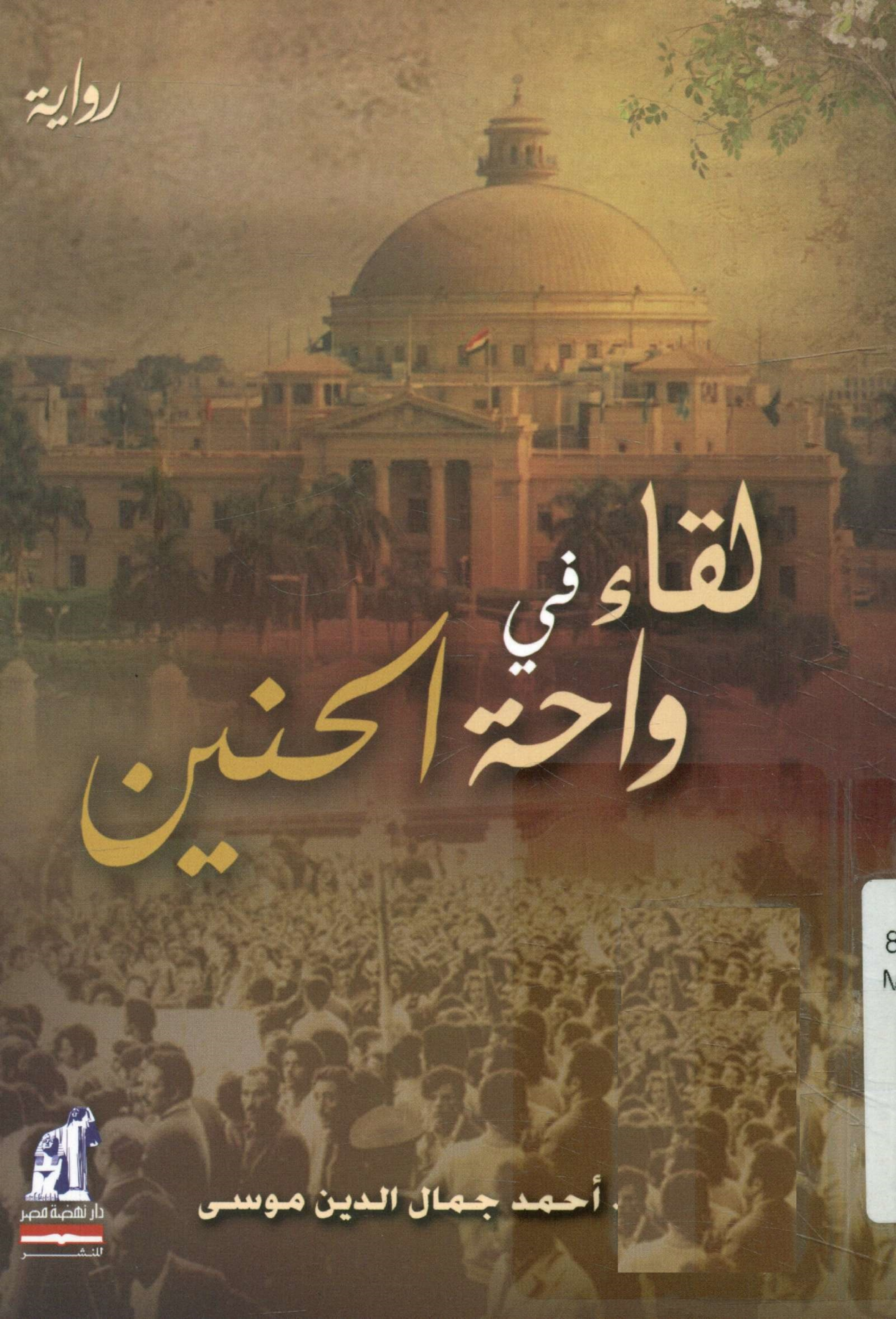

رواية

لقاء في واحة الحنين

أحمد جمال الدين موسى

دار نهضة مصر للنشر

8
M

لقاء في واحة الحنين

«.. عندما أعاد التفكير في دعوة سعد رمضان للاحتفاء بذكرى الحركة الطلابية، اقتحمت مخيلته صورة ليلى عامر وهي تقف إلى جانبه في تلك الأيام.. أحس بقشعريرة تهزه رغمًا عنه.. مضت أربعون سنة ولا يزال يتذكر تلك الأحداث كأنها مرت بالأمس.. أي قوة كان يملكها وأي عاطفة غامرة كانت تأخذ بتلابيبه؟!.. أين اختفى كل ذلك وإلى أي شاطئ رمت به الأيام؟!.. لا الأموال ولا النجاح ولا السلطة تساوي يومًا واحدًا من تلك الأيام المفعمة بالبهجة والثقة بالنفس والأمل في غد أفضل.. هل أفضى ذلك كله إلى سراب؟!.. أين أخذته الأيام وأين أخذت ليلى عامر؟!.. كان يشعر أنها رغم فرقة الأربعين عامًا مازالت تهز مشاعره الأكثر عمقًا...

تساءل: هل يا ترى ستحضر ليلى عامر ذلك اللقاء الذي دعا إليه سعد رمضان في واحة الحنين؟!..

الحنين!.. يا له من عنوان مثقل بالمعاني المشبعة بالآلام المزمنة والآمال المُجهَضة.. طفرت من عينيه الدموع، فأدار الدفة عائدًا إلى المرسى في لوزان..»

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group
YouTube
دار نهضة مصر للنشر
6 221133 349284

مكتبة طريق العلم

لتحميل المزيد من الكتب

تفضلوا بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

روايـــــة

لقاء في واحة الحنين

تأليـــف

دكتور أحمد جمال الدين موسى

دار نهضة مصر
للنشر

العنوان:

لقاء في واحة الحنين «رواية»

تأليف:

دكتور أحمد جمال الدين موسى

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5123-5
رقم الإيداع: 14314 / 2014
الطبعة الأولى: أغسطس 2014

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

لقاء في واحة الحنين

تمهيــــد

«لست بحاجة لأن أؤكد أن هذا العمل هو رواية، ومن ثم فإن شخوصها هم من صنع الخيال، لا تربطهم أية علاقة بأشخاص واقعيين عرفتهم في حياتي، وأن أحداثها محض خيال، وإن تماست مع أحـداث ووقائع مر بها الجيل الذي أنتمي إليــه، وأن المواقف التي يتخذها أبطال هذه الرواية لا تعكـس بالضـرورة مواقفـي ورؤاي الشخصية.. ولكني بحاجـة لأن أعبر عن امتناني العميق لعائلتي وأصدقائي الذين استأنست بآرائهم قبل أن أدفع بهذا العمل للنشر».

المــؤلــف

■■■

1

ليلى عامر

الأسبوع الماضي مرت ثلاثون سنة على زواج ليلى سعيد عامر.. لا شعوريًّا وجدت نفسها تتجه إلى دولابها الخاص، تخرج صندوق الذكريات الأثير لديها، تعيد قراءة مجموعة من الخواطر والخطابات القديمة التي تعود لسنوات طويلة مضت.. اغرورقت عيناها بالدموع، فأطبقت الدفاتر والخطابات، وأعادت الصندوق إلى مكانه.. تحركت لتطل من شرفة بيتها، مقر إقامة السفير المصري في برن، غير قادرة على مقاومة رغبة تملكتها في الانفراد بنفسها، للتأمل في سنوات حياتها التي جرت متسارعة سنة وراء أخرى، دون أن تدع لها فرصة التفكير والتبصر: طفولة سعيدة، حياة طلابية نشطة ومضطربة، علاقات عاطفية جارفة ومبتورة، زواج مثالي وأمومة مرهقة، حياة مرفهة مغلفة بالبروتوكول والمظهر، التزام خارجي وسقم داخلي، تأرجح ما بين الاستسلام للمصير والرغبة الداخلية المحمومة في التمرد والانفجار..

انتابتهـا نوبـة تمرد غـير نادرة، طلبت عـلى إثرها من زوجهـا موافقته على سـفرها منفـردة إلى جنيـف لمـدة يومـين، تتخفف فيهما مـن قيودهـا العائلية والبروتوكوليـة، لتقيـم لدى صديقتهـا نادية عادل، زوجة سـفير مصر لدى المقر الأوروبي للأمم المتحدة.. أحبت دائمًا مقر إقامة السفير في جنيف، المطل برحابة على بحيرة ليمان، حيث تحس أنها تتخلص من العالم بهمومه ومشاكله التـي لا تنتهـي، وتغـوص في طبيعة غنية لا حـدود تقيدها، وتستنشـق هواء نقيًا في محيط من السـكون والخشـوع.. في السـنوات الأخيرة لم تعد منشـغلة كثيرًا بالحياة ومتطلباتها وطموحاتها.. رأت أنها قد أدت واجبها بما يكفي تجاه زوجها وولديها، وقد آن الأوان لتهتم بسـكينتها الداخلية التي حرصت قدر إمكانها على إخفاء اضطرابها الذي لازمها منذ سنوات عديدة..

كانـت تقـدر لزوجها اجتهـاده وإخلاصه وطيبـة قلبه.. لكنهـا بطبيعتها المتمـردة كانت تفتقـد في حياتها معه الإثارة وتحدياتها المحفـزة.. عندما تقدم للـزواج منهـا فوجئـت بذلـك وكانت أميـل للرفض، لـولا إلحـاح والدتها في وجـوب الإمسـاك بفرصة جيدة قـد لا تتكرر، وقد تجـاوز عمرها الثامنة والعشريـن.. كان زوجهـا زميـلًا لهـا في كليـة الاقتصـاد والعلوم السياسـية بجامعـة القاهرة، مـن الطلاب الفائقين المجتهدين الذيـن تحترمهم عن بعد، لكنـه لم يكن أبدًا ضمـن مجموعة الأصدقاء الذين كانت منغمسـة وسـطهم طوال سنوات دراستها..

ربما اكتسبت من والدها، المحامي المشهور والسياسي النشط في سنوات المـد الثـوري، حـب السياسـة الـذي دفعها منـذ المرحلـة الثانويـة للانضمام لمجموعـة مـن أبناء وبنـات جيلها النشـطاء الذيـن أحبوا جمال عبـد الناصر

وتبنوا أفكاره القوميـة.. عندما التحقوا بالجامعة في أوائل سـبعينيات القرن العشرين، وجدوا في الاضطراب السياسي وجو الحرية النسبي في أوائل عهد أنور السـادات مناخًا مواتيًا للنشاط الثوري، والتباري في وجهات النظر مع تيارات وجماعات محسـوبة على الإسـلام السـياسي، بدأت تعود بقوة لساحة العمل السياسي العلني.

كان تأثـير هزيمـة عـام 1967 كبـيرًا عليهـا وعلى أبنـاء جيلهـا.. كانت جرحًـا داميًا في أفئدتهم لا يتوقف عن النزيـف.. من وهم القوة العربية التي لا تقهر، القادرة على مواجهة الاستعمار وأذنابه، إلى واقع الانكسار العسكري واحتلال العدو لأراض تقع في ثلاث دول عربية خلال أيام معدودة، كانت الصدمة النفسـية والانهيار المعنوي يتعديان الحـدود التي يمكن أن يتحملها شباب غض، تطغى عليه مشاعر جياشة وتحركه طموحات كبيرة..

أيـام وليـال طويلـة لم يتوقـف فيهـا بكاء ليـلى وأبنـاء جيلها، قبـل تنحي عبد الناصر وبعد تنحيه، ثم تحول البكاء تدريجيًّا إلى ألم داخلي عميق وسخط على القادة الذين تلاعبوا بالمشاعر وانصرفوا لصراعاتهم الداخلية ولم يقوموا بواجباتهـم كما ينبغي.. غـير أن كاريزما عبد الناصر وآلتـه الإعلامية الجبارة وجديتـه في التعامل مـع أوضاع ما بعد الهزيمة اسـتطاعت تدريجيًّا بث روح الصمود والتحدي، وبناء أمل جديد في إمكانية رد المعتدين وتحرير ما استلب من أرض الوطن..

في ينايـر 1972 بلـغ سـخطها كغيرهـا من الطـلاب والمثقفـين على أنور السـادات أشـده.. لم يعجبهم تردده في مسـألة مواجهة الاحتلال الإسرائيلي

لسيناء.. كانت حرب الاستنزاف قبل موت عبد الناصر، رغم تضحياتها المؤلمة، خاصة بالنسبة للمدنيين الذين انتقمت منهم إسرائيل بقسوة ردًّا على نجاحات العمليات الشجاعة لبعض وحدات الجيش المصري، قد حلقت بعيدًا بالروح المعنوية للمصريين.. غارات الطيران الحربي الإسرائيلي على مدرسة بحر البقر وعلى مصنع أبو زعبل وعلى قناطر نجع حمادي، واستشهاد المئات من المدنيين الأبرياء، كانت في نظرها وزملائها تضحية مقبولة، ومؤشرًا على اقتراب لحظة انتفاضة الجيش المصري وعبور قناة السويس لطرد المحتلين.. لذلك كانت الوعود التي لم تتحقق من الرئيس الجديد بالحسم في مسألة الحرب، والخروج من حالة الهدنة العملية التي وافق عليها عبد الناصر بشكل مؤقت قبل وفاته، وما ساقه لتبرير ذلك من حجج غير مقنعة، سببًا في اندلاع احتجاجات واسعة داخل الجامعات المصرية، وجدت مساندة قوية من معظم المثقفين..

لعبت ليلى دورًا كبيرًا في تلك الاحتجاجات.. ظهر نشاطها بوضوح في تحرير صحف الحائط وتوزيع المنشورات والاتصال بالصحفيين لتغذيتهم بأخبار الاحتجاجات الطلابية.. استغلت موقف والدها المشجع للحركة الطلابية في دعوة عدد من زملائها لمنزلها، لكتابة البيانات وتحرير المنشورات الاحتجاجية التي تدعو الطلاب والشعب للضغط على الرئيس، للخروج من حالة اللاسلم واللاحرب وقيادة الأمة نحو تحرير سيناء..

في تلك الأثناء بدأت تنمو مشاعر الحب التي ربطتها بكامل هلال، أحد أبرز زعماء الحركة الطلابية.. كان طالبًا في كلية الهندسة، من أسرة بسيطة تقيم بالقرب من مقابر الإمام الشافعي.. لذلك كان لا يفتأ أن يذكر بفخر

أنه من سكان المقابر، ضحايا سياسات الرئيس ووقود الثورة المقبلة.. كان أكثر ما بهرها في شخصيته جرأته وقدراته الخطابية المتميزة وصياغاته البليغة للشعارات والعبارات المستفزة في هجومها على السادات.. كانت ترى أن أفكاره تشكل خليطًا من الشيوعية والطوباوية ومقتًا شديدًا للأغنياء لم تتبينه في البداية، ولكنه ربما كان إلى جانب الغرور والثقة الزائدة في النفس، من بين أسباب تخليها عن مغامرتها العاطفية معه بعدما استمرت عدة شهور..

كانت قصائد شاعر العامية أحمد فؤاد نجم تغذي روح التمرد والثورة لدى الطلاب، ولذلك رغم منعها من النشر، استطاعت ليلى وزملاؤها نسخ تلك القصائد في صحف الحائط وتعليقها في مداخل كليات الجامعة، ثم إعادة نسخها وتعليقها كلما أزالتها أو مزقتها إدارات الكليات.. عَجَّت الساحة الرئيسة لحرم جامعة القاهرة، المحيط بقاعة الاحتفالات الكبرى، بعشرات التجمعات والحلقات التي تناقش الأوضاع وتجتذب الطلاب المترددين بين التوجهات اليسارية والناصرية والإسلامية أو الداعين للانصراف عن كل هؤلاء وفض الاضطراب لاستكمال العام الدراسي في هدوء..

استطاعت وزملاؤها بحماسهم وحججهم المقنعة، اجتذاب المئات من الطلاب للاحتجاج على سياسات السادات، مما اضطر إدارة الجامعة إلى فتح قاعة الاحتفالات الكبرى، لاستيعاب المحتجين بدلًا من تدفقهم إلى خارج أسوار الحرم الجامعي.. على مدى أيام الاعتصام داخل القاعة، صعد إلى منصتها مثقفون وأساتذة من المتعاطفين مع الحركة الطلابية، فأحسن المعتصمون استقبالهم، وفي المقابل جاء إليهم بعض الساسة الذين أرسلهم الرئيس لإقناعهم بالتمسك بقليل من الصبر والثقة في حسن تخطيطه

واختيـاره للوقـت المناسـب للتحـرك العسـكري، فلـم يجدوا صـدى لدى الطلاب المتحمسين..

عندما اقترحت الحكومة إجراء حوار بين زعماء الحركة الطلابية وقيادات مجلس الشعب، ذهبت مع بضع عشرات من زملائها، أعضاء اللجان الوطنية للطلاب، إلى مقر المجلس، حيث استمر الحوار لساعات طويلة، مع وكيل المجلس الدكتور جمال العطيفي وغيره من الأعضاء، لينتهي باتفاق على فض الاعتصام، مقابل تعهد الحكومة علنًا بالاستجابة لمعظم مطالب الطلاب.. ثـم حدث ما أسـمته «ليلـة الخديعة الكـبرى»، عندما نكص المسئولون عن وعودهـم وأمـروا قـوات الأمـن باقتحـام الحـرم الجامعـي، حين قـلّ عدد المعتصمين، لانصراف زملائهم مطمئنين لتعهدات مسئولي مجلس الشعب..

لم تنـس ليـلى عامر، رغـم مرور عـشرات السـنوات، صـوت المدرعات المرعـب وهي، قبيل الفجر، تقتحم عَنْوة البوابات الحديدية الخارجية للحرم الجامعي، ثم يتقدم الجنود ليحطموا الأبواب الخشبية لقاعة الاحتفالات بابًا وراء آخـر، إلى أن وصلـت طلائعهم داخل القاعـة، لتفاجأ بمئات الطالبات والطـلاب وقد جلسـوا عـلى المقاعد متشـابكي الأيدي في هـدوء، على حين وقف أحمد عبد الله رزة أمين اللجنة العليا للطلاب وحده على خشبة المسرح في انتظـار المقتحمـين.. في البداية، انتابها شـعور بالخوف والرهبة فأمسـكت بقوة بيد صديقتها أميمة حسـن، جارتها في المقعد الملاصق، تستمد كل منهما من الأخرى الثقة في مواجهة الخطر الذي حل فجأة عليهما.. لم يسبق لليلى أن تعاملت مع الشرطـة، فتمنت لو كان بمقدورها الاتصال بوالدها أو والدتها

ليشاركاها النصيحة والتعضيد، لكن كيف لها أن تغادر مقعدها والقاعة محاصرة بعشرات إن لم يكن مئات الجنود المدججين بالسلاح..

بعد جدل غير مُجْدٍ مع قائد قوات الأمن، خرجت ليلى وزملاؤها بين صفين طويلين من الجنود إلى وسط الحرم الجامعي، لتقلهم عربات نقل عسكرية إلى مكان مجهول، تبين فيما بعد أنه معسكر قوات الأمن المركزي بالدراسة.. تكدس الطلبة في عنبر واسع، ربما كان من مخلفات الاحتلال الإنجليزي، ثم سرعان ما وردت إليهم أنباء خروج المظاهرات في شوارع القاهرة للمطالبة بالإفراج عنهم، مما ألهب حماسهم وجعلهم يرددون بلا توقف شعاراتهم الحماسية.. تدريجيًّا، تخلت عن وجَلِها واستردت قوة الحسم الذي تميزت به، وأخذت في بث روح التحدي بين الزملاء من حولها..

اكتشف كامل هلال أن من يخرج من الطلاب للصلاة أو لقضاء حاجته لا يعود مرة أخرى، وإنما يتم احتجازه بعيدًا.. هنا اقترحت ليلى على زملائها غلق باب العنبر، ومنع قوات الأمن من دخوله، وكذلك عدم السماح للطلاب بالخروج منه، مع كل المعاناة التي ستترتب على ذلك، خاصة اضطرارهم لتخصيص ركن من المكان كدورة مياه.. بعدها ولساعات طويلة، فشلت كل محاولات رجال الأمن لاقتحام المكان المكدس بالطلاب عَنْوة، حيث تشابكت أياديهم وأجسادهم كسد منيع عصي على الاختراق.. لم تُجدِ أيضًا جهود إقناع الطلاب بالتفاوض مع قيادات الداخلية، حيث تمسكوا بمبدأ أن لا حوار إلا في حضور النائب العام شخصيًّا.. قرب المغرب جاء إليهم النائب العام، متعهدًا بحسن معاملتهم والإفراج عنهم في غضون أيام قليلة،

بشرط الاستجابة لطلب الشرطة نقلهم من معسكر الدراسة إلى معهد أمناء الشرطة بطرة..

في طرة تجنبت قوات الشرطة خطأ الدراسة، ففرقت بين الطالبات والطلبة، وقسمتهم إلى مجموعات صغيرة، وضعت كلًّا منها في عنبر نوم مستقل ومنعت الاتصال بينها.. ومع ذلك، بدأت ليلى وكامل والعديد من الطالبات والطلبة إضرابًا عن الطعام رافضين تسلم مقنناتهم الغذائية، وهو إضراب انتشرت أخباره لتصل إلى زملائهم خارج مكان الاعتقال، لتلهب حماس الجميع وتضع الرئيس في موقف حرج..

الهدوء والسكينة والطبيعة السويسرية الخلابة والغربة عن الوطن وعدد السنين، لم تكن لتحول بين ليلى عامر والاستمتاع باجترار هذه الأحداث بغير ألم أو ندم.. كانت دائمًا تفتخر أمام ولديها وزوجها وزملائه الدبلوماسيين أنها جربت الاعتقال عدة أيام واكتشفت قدرتها على التحدي والصمود.. في تلك الأيام، كانت تنظر بأسى لزميلاتها الأعلى صوتًا والأكثر حماسة، وهن يفقدن صلابتهن في أول اختبار حقيقي، وهو تحدي الحرمان الذاتي من الطعام..

قوة شخصيتها وصلابتها في مواقفها المبدئية والسياسية سببت لزوجها العديد من المواقف المحرجة.. كان أكثر ما يؤلمها هو اضطرارها لقضاء أوقات طويلة في ترتيب حفلات العشاء والاستقبال في المناسبات الرسمية أو على شرف المسئولين الحكوميين من الدولة المضيفة أو المسئولين المصريين الذين يزورون هذه الدولة.. كان عليها دائمًا أن تراجع بنفسها كافة الترتيبات، بدءًا بتحديد أسماء المدعوين وقائمة الطعام التي تناسبهم وحسن

أداء الطهاة والسفرجية وترتيب أماكن الجلوس على المائدة وما يجب إعداده لما بعد الانتهاء من الطعام، فضلًا عن التفكير في موضوعات الحوار التي تخدم الهدف من الاحتفال.. كل ذلك مع الاحتفاظ بهدوء أعصاب شديد وابتسامة لا تنقطع..

تلك الأمور، وإن بدت عادية في حياة الدبلوماسيين، إلا أنها شكلت لها معاناة حقيقية، لعدم انسجامها مع طبيعتها المتمردة ضد كل أشكال العرف والاعتياد والتقيد بالمجاملات البروتوكولية والشكلية.. في مرات عديدة لم تستطع كبح جماحها وهي تستمع لأقوال لم تعجبها من ضيوف أجانب أو مسئولين مصريين، فردت على نحو ساخر أو لاذع، مما كان يضطر زوجها لبذل جهد مضاعف لرأب الخلل الذي وقع.. كان اعتذارها المتكرر عن تلبية الدعوات التي لا تنقطع لحفلات البعثات الدبلوماسية الأخرى سببًا إضافيًّا للتوتر مع زوجها، الحريص على أن يكون مجاملًا ومثاليًّا في كل شيء..

تتذكر أن أخطر مأزق واجهها كان يوم أن أصرت نادية عادل على دعوتها لحفل عشاء على شرف السيدة الأولى التي جاءت من القاهرة لتقضي أسبوعين في زيارة غير معلنة لجنيف.. في البداية لم تجذبها الفكرة وفكرت في الاعتذار، لكنها رضخت لإلحاح زوجها لاغتنام الفرصة للتعرف إلى هذه الشخصية المؤثرة، وربما توثيق صلتها بها، كما فعلت من قبل صديقتها نادية.. منذ النظرة المتبادلة الأولى أحست أنها قد ارتكبت خطأ جسيمًا بالحضور.. فقد تفحصتها السيدة بنظرة لم تعجبها وأثارت قشعريرة في جسدها، ومن جانبها ردت بنظرة تحدٍّ وثقة مع ابتسامة مجاملة مفتعلة.. تأكدت لحظتها أن الكيمياء الشخصية ستحيل أي تقارب محتمل بينهما إلى وهم وسراب.. تعجبت من

كثـرة عدد المدعويـن وتنوع جنسـياتهم.. ولربما بدت دهشـتها على وجهها، فانتبهت لسعي نادية لشغلها بالحديث مع بعض السيدات الأجنبيات اللائي دعـين للحفل.. أما السـيدة الأولى فقـد تجاهلتها طوال السـهرة وودعتها في آخرهـا بوجه بارد ونظـرة متعالية.. وكما توقعت، لم تصلهـا أية دعوة لاحقة من نادية يسري على مدى المدة الباقية لإقامة السيدة في سويسرا..

ما جرى أثار سخط زوجها، فردت عليه بسخرية:

الخطـأ خطؤك؛ لأنـك دفعتني عـلى عكس رغبتـي للذهـاب إلى هناك.. أنـت تعرف أنني لا أتحمل رؤية ما لا يعجبني، كما أنني لا أحني رأسي لأحدٍ مهما كان.. ثم ماذا تأمل من السـيدة؟ أنت الآن في آخر مهمة دبلوماسـية في الخارج وسـتصل في نهايتها إلى سـن التقاعد، فلن ينفعوك أو يضروك بشيء، إلا إذا كنـت تأمـل في منصـب شرفي لاحـق أو عضويـة مجلس الشـورى كما حدث لبعض زملائك.. يا حبيبي الله الغني عما يأتي منهم ولنحيَ بكرامة..

نظر زوجها إليها بإحباط لم يحرص على مداراته، لكنه لم يعقب..

معاناتها الكبرى في السنوات الأخيرة مصدرها ولداها.. كثيرًا ما اعترفت لنفسها ولزوجها بأنها لم تفشل في شيء قدر فشلها في تربيتهما.. موقف زوجها كان دائمًا أكثر اعتدالًا وتسـامحًا في مواجهة مـا اعتبرته هي تغيرًا وجموحًا غير مبرر في سـلوك الولدين واختياراتهما.. منذ البداية واجهتها مشـكلة تعليمهما في ظـل تنقل لا ينقطع من بلد لآخر، اضطرها على مدى سـنوات غير قليلة، ضمانًا لاتسـاق مسـارهما التعليمـي، إلى أن تتركهما في رعايـة والدتها أحيانًا،

وأن تقيم معهما في القاهرة أحيانًا أخرى، تاركة زوجها وحيدًا يمارس عمله في الخارج..

عندما أنهى فؤاد ابنها البكر دراسته الثانوية اختار دراسة الطب في جامعة عين شمس، ولأنها كانت حينئذ برفقة زوجها في البرازيل، استقر الفتى في شقتهما في القاهرة، مستقلًّا وناسجًا شبكة من العلاقات والصداقات قادته للانضمام إلى جماعة سلفية، فأطلق لحيته واكتسب أفكارًا تتعارض، وأحيانًا تتصادم، مع أفكار ورؤية والدته التي اعتقدت صحتها على مدى حياتها.. كانت ليلى في البداية واثقة من قدرتها على رد ابنها لصوابه وإفشال تأثير أصدقائه عليه.. حاورته لساعات طويلة.. أتت بكل الأقارب والمعارف ليمارسوا تأثيرهم الفكري أو المعنوي.. اقترحت عليه استكمال دراسته في أفضل جامعات أوروبا أو أمريكا.. غير أن فؤاد بقي متمسكًا بأفكاره مصرًّا على استكمال دراسته في القاهرة..

ورغم أنها استطاعت أن تنجح في إبعاد صغيرها فريد عن التأثير الفكري لشقيقه، فإن خياراته هو الآخر كانت صادمة لها، ولكن في اتجاه مغاير.. كان هاويًا للسينما واختار أن ينصرف في مرحلته الجامعية لدراستها في باريس.. في البداية لم يجد معارضة لا منها ولا من زوجها، ولكن سلوكه وأفكاره وصداقاته صارت بمرور السنوات صادمة لها، حيث أخذت تتساءل: هل حقًّا هذا الشارد المتمرد المتقمص دور الفنان البوهيمي اللامنتمي هو ذاته طفلها الصغير؟!

حماسـها القومي، رغم أنه أضحى مع السنين أقل غلوًّا وأكثر موضوعية، مـازال حائـلًا بينها وبـين تفهم خيـارات ولديها.. فهي وإن كانـت تؤمن أن الديـن أمر مهم لتقدم البشر وتؤدى صلواتها بانتظام، فإنها ترفض الخلط بين العقيدة والسياسـة.. «الدين لله والوطن للجميع» شـعار ثورة 1919 مازال في اعتقادهـا صالحًا للقـرن الواحد والعشرين.. تؤمن بحق الجميع في التعبير عـن آرائهـم وتكره التعسـف والظلم الذي لم تكف الحكومـات المصرية عن ممارسـته مـع معارضيها، لكنها لا تستسـيغ إصرار البعض عـلى البحث عن نموذج من الماضي لصياغة المستقبل..

هـي نفسـها حرصت عـلى أن تطور أفكارهـا لتواكب متغـيرات الحياة.. لم تعد متمسـكة بكامل قناعاتها القديمة.. استجابت لتأثير المتغيرات الجديدة في الفكر والسياسـة على السـواء.. عندما كانت في القاهرة قبل مهمة زوجها الحالية في سويسرا، جاءتها أميمة حسن تشجعها على الانضمام إليها في أنشطة الناصريين السياسية والاحتجاجية، لكنها اعتذرت، فاستفسرت أميمة:

هل سبب اعتذارك هو وضع زوجك الوظيفي؟

- إطلاقًـا.. فمواقفـي لا تقيده بـشيء، ومواقفه لا تقيـدني أنا الأخرى.. لكن حنيني لأفكارنا وتوجهاتنا التي تَحَمَّسـنا لها فترة الشباب لم يمنعني من إعادة تقييم الأمور على نحو مختلف..

- هـل أفهـم من هذا أنك فقـدت إيمانك بالمبـادئ القوميـة والتوجهات الناصرية؟

- المسألة قد لا تتعلق بالمبادئ بقدر تعلقها بالاستراتيجيات والأساليب..

- كيف؟

- لقد تبين لي أن أوضاعنا الداخلية وأوضاع العالم من حولنا قد تجاوزت معطيات الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فالعودة للتمسك بذلك غير مجدٍ ويحمل في ثناياه بذور فشله.. لكي ننجح في الانتقال ببلدنا لآفاق جديدة ينبغي أن نطور استراتيجياتنا وأساليب نشاطنا، بل وقد نحتاج أيضًا للتأمل في مدى جدوى شعاراتنا القديمة..

أصاب هذا الرد المفاجئ أميمة بالدهشة فسكتت قليلًا، ثم عقبت باقتضاب مع ابتسامة متأرجحة:

- لولا إدراكي لجوهرك الأصيل ما كنت ستسلمين من لساني الذي تعرفينه.. الواضح أن الاغتراب في بلاد الله يغير عقول الناس ويبدل أفكارهم..

- لكنه لا يمكن أن يبدل قلوبهم، فستبقين، رغم لسانك الذي أعرفه، بالنسبة لي أحب وأعز الصديقات..

كان ما يثيرها على وجه الخصوص في حديث ابنها فؤاد انبهاره بمفهوم دولة الخلافة، وترديده لتفسيرات تراها متشددة ومرتبطة بظروف وأوضاع تجاوزتها قرون عديدة جرت منذ ذلك الحين.. كم من مرة حاولت أن تقنعه أن مصر حقًّا دولة مسلمة، ولكنها قلب الوطن العربي بكل أطيافه الدينية والسياسية، كما أنها بحكم التاريخ والجغرافيا لا يمكن أن تعزل نفسها عن

تفاعـلات حـوض البحـر الأبيض المتوسـط أو تصيـب بالتكلـس شرايينها الإفريقيـة، فضـلًا عـن أن موجـة العولـمة الطاغيـة وسـباق التقـدم العلمي لا يسـمحان لهـا بالانغـلاق أو التراجـع للتخلـف، خاصـة وأن الآخرين في أوروبا وأمريكا وآسيا يقفزون نحو الأمام..

وفي ذات الوقـت يتملكهـا السـخط عـلى فريد الـذي تراه قد فقـد هويته وخضع لاستـلاب حضـاري هـدام.. كانت تتصـوره أكثر صلابة وتمسـكًا بجـذوره، وإن تعـرض لتجربة الغربة في سـن مبكرة.. لا يجـدي الآن ندمها على السـماح له بالسـفر إلى باريس ودراسـة السـينما ولا تفيد محاولاتها لدفعه للعـودة لجـذوره.. ففـي كل حوار بينهما يواجهها بسـخط مدفـون في أعماقه على مظاهر الفشـل والفسـاد التي تغلف الحياة في وطنـه الأم.. يقدم الدليل تلـو الدليل عـلى أن من حقه أن يفعـل وأن يقول بصدق مـا يحبه، وإن صدم البعـض وهـي منهم.. فهـذا أفضل ألف مرة مـن الخداع الجماعـي، والمـالأة الكئيبـة، وطغيان الشـكل على الجوهر الـذي أصاب الأمة التـي ينتمي إليها بالعفـن لعقود طويلـة.. عندما تحتـدم المواجهة بينهما يصارحهـا بتحدٍّ أنه لا يرى لنفسـه مسـتقبلًا في مصر، فخطوته التالية بعد انتهاء دراسـته في باريس ستكون الهجرة لكندا أو الولايات المتحدة الأمريكية..

لمـن تبث شـجنها؟! هـل لزوجها المسـتغرق في أداء واجبـات عمله التي لا تنتهي؟! أم لأمها التي حاصرتها في السنوات الأخيرة أمراض الشيخوخة؟! أم لصديقتهـا ليلى عـادل، التي تأخذ دائـمًا موقف التأييد والتشـجيع لفريد؛ وهـو ما لا تسـتغربه منها؛ لأنها سـبق وأن رحبت بزواج ابنتهـا الوحيدة من مهندس فرنسي شاب تعيش معه منذ سنوات في كندا.. أم تعود لمهاتفة طارق

جاد الذي مازال رغم مرور السنين ملجأها حين يشتد بها الكرب وتحتاج لنصيحة صديق مخلص لا يجامل ولا ينافق.. طارق جاد الأستاذ الجامعي والزميل القديم الذي تُشبهه دائمًا بشجرة الجميز المغروسة في تراب مصر، لا يهتز ولا يتغير.. تجده يجمع في كيانه حكمة الصوفيين، مع صبر المصريين على شقاء طال منذ أبد الدهر، فضلًا عن سعة أفق وصفاء ذهني، يذكرها بصفحة مياه النيل في غير أيام الفيضان.. في آخر مرة هاتفته كان رغم معاناته من آلام العمود الفقري متحمسًا وهو يحكي لها آخر مغامرات كامل هلال في دنيا السياسة والأعمال، حيث لايزال يفاجئ الجميع بما لا يتوقعه أحد..

كامل هلال! شجنها القديم.. لم تحب رجلًا كما أحبته.. ولم تكره رجلًا كما كرهته.. فور أن تعرفت إليه في بداية أحداث انتفاضة الطلبة في يناير 1972 غزا فكرها وهيمن على قلبها ومشاعرها.. كان نقيض كل من تعرفهم من أقاربها وزملاء دراستها وأصدقاء العائلة.. بنظراته الصريحة التي لا تخلو من غرور، وتعبيراته القوية الصادمة، وردود أفعاله المستفزة والمتعالية، رغم مظهره الخشن والبسيط الذي ينم عن أصوله المتواضعة، وجدت نفسها مشدودة إليه بخيط سحري لا تعرف كنهه أو تقدر على تفسيره وَفْقَ أي منطق.. هل هو الشوق للغريب والجديد؟! أم الانبهار بمن كان أكثر عنادًا وقوة شخصية، مقارنة بكل من كانت تعرفهم من زملاء وأصدقاء، والذين لاحظت أن تأثيرها عليهم أكبر من تأثيرهم عليها؟! أم أنه حب المغامرة والرغبة في خوض تجربة عاطفية غير مسبوقة؟!

لم تتوقع أن تستغرقها هذه العلاقة شهورًا عديدة، بدءًا من مشاعر مكبوتة صامتة وانتهاء بحب صريح مشوب بعاطفة جارفة، وإن بقي دائمًا متأرجحًا

في تعبيره عن نفسه بين ولهٍ وعناد وتحدٍّ وسخط وعراك.. كان كل ما يفعله كامل يثير مشاعرها بالرضا أو بالاستفزاز، ولكنها في الحالتين تظل مشدودة إليه بذلك الرباط السحري الذي لا تستطيع مقاومته أو الخلاص منه..

بعد انتهاء فترة الاعتقال القصيرة وعودة الدراسة، اعتادت أن تغادر كليتها والحرم الجامعي لتعبر شارع الجامعة إلى مبنى كلية الهندسة، القائم في الجهة المقابلة، تبحث عن كامل هلال، مخترعة في البداية حججًا وهمية، إلى أن أصبح الأمر عادة يومية لا تحتاج تفسيرًا أو تبريرًا.. جذبته لارتياد دور سينما مترو وراديو وريفولي التي تعرض الأفلام الأجنبية الجديدة، ولقضاء ساعات طويلة في مكتبة مركز الموسيقى الكلاسيكية التابع لوزارة الثقافة في أول شارع قصر النيل، على حين شدها هو لارتياد المقاهي الشعبية في ميداني الفلكي والجيزة.. تعرفت من خلاله إلى متمردين وصعاليك ومثقفين شبان لم تتوقع يومًا أن يكون لهم وجود في مصر، لترتاد بصحبتهم عششًا وبيوتًا ومطاعم في حارات السيدة عائشة وبين السرايات وأبي قتاتة، فتكتشف لأول مرة نمط معيشة وأحوال حياة مصريين مثلها تكاد من قبل لا تعرف عنهم شيئًا يذكر..

دخنت معهم السجائر وتعودت شفتاها على ملامسة مبسم النارجيلة، وسهرت معهم ليالي تستمع إلى قصائد ومواويل يلقيها ويغنيها من يعتقدون أنهم أفضل الشعراء والفنانين، واستجابت مرة لطلبهم تمثيل دور صغير في مسرحية يشاركون فيها على مسرح الثقافة الجماهيرية بالجيزة.. لم تتوقف طويلًا عند الأفكار والحجج السياسية التي كان يتحمس لها أصدقاء كامل، مكتفية بجاذبية المغامرة التي تخوضها وكونها مغلفة بالإثارة والمخاطر..

لم تؤثر فيها محاولات أحد الذين شاهدوا العرض المسرحي الذي شاركت فيه في الجيزة، لإقناعها بتقديمها لصديق له يعمل مخرجًا في التلفزيون، مؤكدًا لها أن المستقبل سيفتح لها كل أبوابه كممثلة أو مقدمة برامج تلفزيونية، حيث حباها الله بالجمال والمظهر الأنيق وقوة الشخصية القادرة على التأثير في الآخرين.. كانت تكتفي بالابتسام بمرح وهي تستمع إليه دون أن تأخذ الأمر بجدية، فقد كانت غارقة تمامًا في مغامرة حبها الأول..

في الشوارع الضيقة لأبي قتاتة القابعة على الجهة الأخرى من خط سكة حديد الصعيد، وراء حرم جامعة القاهرة، كانت توجد الشقة المتواضعة التي يقيم فيها متولي المهدي وراضي شعبان زميلا كامل هلال في كلية الهندسة.. في طريقها مرة أو مرتين أسبوعيًّا لهذه الشقة بهدف لقاء أفراد شلة كامل المقربين، كانت تحس أنها لا تعبر فقط قضبان السكك الحديدية، لكنها تغوص في عالم مغاير، حيث تختفي الشوارع الرحبة والمباني واضحة المعالم وتذوب في عالم عشوائي يفتقد التنظيم.. فلا الشوارع تعتبر حقًّا شوارع وإنما أزقة ضيقة غير منتظمة، ولا البيوت تعتبر حقًّا بيوتًا لها خصوصية، وإنما مجرد مبانٍ حجرية بلا معالم أو طلاء، تتراص وتتداخل وتتعارج بلا أدنى تخطيط عمراني، والباعة الجائلون والأطفال يملئون المكان، والصخب والضوضاء والقذارة تغمر كل شيء..

عندما صارحت كامل هلال بمشاعرها بالرثاء لسكان هذه المنطقة، سخر منها مؤكدًا أنها لم تر سوى أفضل ما في المناطق الشعبية.. فما يعيشه سكان أبي قتاتة أفضل ألف مرة مما يكابده سكان العشوائيات العديدة، المحرومون من الماء والكهرباء والصرف الصحي والطرق، حيث يعيش البعض في

عشـش الصفيـح والبعض الآخر في المقابر القديمـة والبعض الثالث في مبان غـير مكتملة تتشـارك فيهـا عدة عائـلات، كل في غرفـة واحـدة بعضها بلا سقف أو أبواب، يغوص أطفالهم في برك آسـنة من بقايا مياه المطر والصرف الصحي، محرومين من الرعاية الصحية والتعليم والأمن..

حين كانت تبدي له دهشتها وألمها، كان ينظر إليها بسخرية متمتمًا:

هـذه هي مـصر الحقيقية التـي اسـتنزفتموها أيهـا الأغنياء الجـدد وبنيتم بيوتكم وثرواتكم على أنقاضها..

كانت في أول الأمر تحتج بأنها ليسـت من الأغنياء، وأن والدها بنى نفسه بجهـده ودأبه على العمل، وأنـه يقوم بأعمال خيرية كثيرة، كـما أنه يدافع عن كثير من الفقراء بالمجان، فيجيبها كامل بأن هذا هو أسلوب الرأسمالية المعتاد في تجميل وجهها القبيح.. لكن بمضي الأيام أدركت عدم جدوى الرد عليه؛ لأنـه لن يتراجع عـن اتهاماته، حتى وإن بدت أحيانًا بلا منطق يسـندها.. في أعماقها كم كرهت أسـلوبه التهكمي وغروره الفـج وبحثه الدائم عما يصدم الآخرين، خاصة من يَشتَمُّ لديهم سببًا يدفعهم للتعالي في مواجهته..

كانت أحيانًا لا تفهمه.. كيف له أن يرى كل الأمور بموقف حدِّي صارم، ولا يتبين إنجازات الفترة الناصرية التي تركت بصماتها على الواقع المصري.. نعم مازال هناك فقر ومعاناة وعشـوائيات، ومازلنا نعاني النكسـة العسكرية التي حاقت بنا.. لكن لماذا يتناسـى أن معظم المصريين قبل ثورة عام 1952 كانـوا حفاة وأميين وأجراء؟.. هل اسـتطاعت نظريات وتنظيمات أسـاتذته وأصدقائه أن تغير هذا الواقع، أم أن عبد الناصر ومن التف حوله من مثقفين

وتكنوقراطيين وسياسيين، ومن بينهم والدها، هم الذين عملوا بإخلاص لتحقيق أحلام العدالة الاجتماعية والقضاء على الإقطاع والاستغلال؟.. وهل هو نفسه كان سيتعلم في الجامعة ويحصل على منحة تفوق إذا لم يأت عبد الناصر، وبقي على حاله العهد الملكي بليبراليته القديمة ومعارضته اليسارية غير المؤثرة؟!

صارحته مرة في لحظة غضب أنه يعاني عقدة نقص، وأن عليه أن يعالج نفسه لدى طبيب نفسي.. كاد يصفعها على وجهها، لكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة، لأنه كان يعرف مقدار تمسكها بكرامتها وأنها لن تطيقه لحظة واحدة ما لم تكن مدفوعة نحوه بمشاعر عاطفية جياشة.. وفي نوبة سخط بسبب تجاهله المتعمد لها أثناء رحلة للقناطر الخيرية مع أصدقاء من الجامعة، قررت أن تقطع علاقتها به وألا تسعى لرؤيته مرة أخرى، وزيادة في التأكيد ألحت على والدتها أن توافق على سفرها للإسكندرية لقضاء أسبوع في ضيافة خالتها نرجس.. مر أسبوع الإسكندرية بيسر، حيث كان لايزال سخطها عليه كبيرًا، وحيث شغلتها الفسح والزيارات التي بادرت بنات الخالة إلى تنظيمها احتفاء بها.. لكن بعد العودة للقاهرة والذهاب إلى الكلية، وجدت كامل في انتظارها، معترفًا أنه قد قضى الأيام الثلاثة الأخيرة معتصمًا أمام باب مدرجها ليراها ويطلب صفحها عن سوء تصرفه.. كادت للمرة الأولى تحتضنه وتقبله، وهي تراه يتخلص في سابقة نادرة من صلفه وغروره ويطلب راجيًا ودها.. كافأته بجولة ممتدة في حديقة النباتات والأسماك بالزمالك ودعوة للغداء في مطعم برج القاهرة الدوار.. أدركت أنها رغم سخطها المتكرر على تصرفاته ما زالت تحبه وبجنون..

كان كامـل هـلال قارئًـا نهـمًا منفتحًا عـلى كل الثقافـات، ذكيًّـا بالفطرة، طموحًا لديه ملكة الإقناع.. غير أنها كانت تراه نرجسـيًّا، يضع نفسه دائمًا في مرتبة أعلى من الآخرين، بما في ذلك معلموه وأصدقاؤه.. تعرفت من خلاله على عيون الأدب العالمي وعلى كتب سياسية لم تسمع عنها من قبل.. كثيرًا ما صحبته إلى مكتبة الجامعة الأمريكية في ميدان التحرير، للاطلاع على أحدث المؤلفـات الأجنبية، كما كانت تذهب معه بانتظـام للمركز الثقافي الروسي في الدقي، لحضور الأنشـطة الثقافية التي لا تنقطع.. وكان اصطحابه لها لسـور الأزبكية للبحث بين أكوام الكتب المعروضة عن سلاسل المسرحيات العالمية المترجمة، متعة أسعدتها واستمرت تحن إليها لسنوات عديدة، حتى بعد انقطاع علاقتها به..

رغـمًا عنها كانت تصاب بقشـعريرة عندمـا تمر بخاطرها أحـداث الأيام الأخـيرة في عمر علاقتها بكامل، أثناء سـفرهما إلى مرسـى مطروح في رحلة طلابية خلال العطلة الصيفية.. أدركت بعد عدة أيام من المعايشة عن قرب، وحيث بدا الجميع على طبيعته، بدون أقنعة أو محاولات تجمل، أنه لا مستقبل لعلاقتهـا بكامـل، لأنـه بكل بسـاطة لا يبادلهـا صادقًـا نفس المشـاعر، وأنه لا يمكن أن يحب سـوى ذاته وحدها.. لقد انقشـعت الهالة التي كانت تراها محيطـة به منـذ عرفته.. بدا كالآخرين يرتكب أفعـالًا صغيرة وينتابه الغضب في حواره مع زملائه، فينسـاق إلى تبادل البـذاءات والألفاظ المبتذلة.. تبينت كـم كانت حمقاء عندما اعتقدت أنه يملك منطقًا سـديدًا وسـلوكًا قويمًا .. إنه طالـب كغيره ممن يشـاركونهم الرحلـة.. قد يكـون قارئًا جيـدًا وموهوبًا في التعبـير عن نفسـه، ولكن هناك آخرين ليسـوا أدنى منـه في ذلك، ويبدون في

المقابل أقل غرورًا وأكثر تماسكًا في سلوكهم الأخلاقي .. هل كانت مخدوعة فيـه بسـبب مشـاعرها العاطفية الجياشـة التي تملكتهـا منذ أحـداث الحركة الطلابيـة، فأضفـت عليـه ما يزيد عـلى حقيقتـه؟!.. أم أنها وقد قـرأت أكثر واسـتمعت لمثقفين آخرين، اكتشـفت أنها قد بالغت بدايـة في تقديرها لتفرد كامل وتميزه؟!..

اللحظـة الفاصلـة في تبـدد الهالة الفكريـة التي أحاطته بها جـاءت عندما استمعت لمراد وفقي، الطالب في كلية الآداب، وهو يعرض عليهم تحت ضوء قمـر مطروح الصافي، على الشـاطئ الخـالي إلا من مجموعتهـم، رؤية جبران خليـل جبران الفلسـفية والأخلاقية التـي كان منبهرًا بها، على حين طاشـت كافـة سـهام كامل للنيـل من هذه الرؤيـة، ومحاولة إقناع الزمـلاء بعبث هذه الرؤى البرجوازية، لأنها تغفل عن محورية قضية الصراع الطبقي في أي توجه فلسـفي!.. أحسـت أن كامل لا يواجه الحجة بالحجة، وإنما يستند إلى رفض أيديولوجي لم يقنع معظم الزملاء.. كانت تتمنى في أعماقها في تلك اللحظات أن يخـرج كامـل من المجادلـة منتصرًا، لكنـه كان متعاليًا وعنيفًا وسـاخرًا في ردوده التي بدت ضعيفة وغير مقنعة حتى بالنسبة إليها شخصيًّا..

لم تنم الليلة بطولها.. أحسـت أن مشـاعرها تتغير وأنهـا بصدد اتخاذ قرار فاصـل في علاقتهـا بصديقها.. هـل كان تآكل لم تدركه في حبهـا له هو الذي سـبب إذابة الهالة الفكرية التي أحاطته بها؟!.. أم أن ضعف منطقه الفكري، كما بدا لها في السهرة الشاطئية لأول مرة جليًّا، هو الذي قاد إلى تسرب العاطفة المتوهجة التي تملكتها لعدة أشـهر؟!.. مع تجلي خطوط الصباح الأولى كانت

قـد اتخـذت قرارها بألا تواصل علاقة لا مسـتقبل لها، غير أنهـا لم تتوقع بأي حال رد فعله العنيف عندما رآها تنسحب تدريجيًّا من هذه العلاقة..

عندمـا رجعـت من مرسـى مطروح توقفـت عن الاتصال بـه حتى نهاية الإجـازة الصيفيـة، وعندما هاتفهـا في منزلها، أبلغته أنها منشـغلة مع والدها بسبب تدهور حالته الصحية، واعتذرت عن عدم اسـتطاعتها مقابلته حتى تسـتقر حالـة الوالد.. ومع العـودة للدراسـة امتنعت عن الذهـاب إلى كلية الهندسة، غير أنها وجدت كامل هلال لا يكاد يغادر كلية الاقتصاد في انتظارها، قبل دخولها المدرج وعند الخروج منه.. حاولت أن تكون دبلوماسية وأن تجد حججًا متنوعة للتخلص منه، لكنه كان يتشـبث بشراسـة باستمرار علاقتهما كـما كانت قبل الإجازة الصيفيـة، وهو ما صممت على رفضه.. أدرك أن كل ما تسـوقه من حجج إنما هي وسـائل للتهرب منه وأن مشـاعرها قد تغيرت بالفعل تجاهه.. لم يكن مسـتعدا لتقبل ذلك، لأنه كان سـعيدًا بهذه العلاقة.. فهي تمنحه شـعورًا جديـدًا ممتعًا ربما كان الحب، كما تـرضي غروره وتوفر له مكانـة متميزة بين أصدقائه، وهـم يجدون بصحبته فتاة جميلة راقية من الطبقة الغنيـة.. كان يحس أيضًـا بجرح معنوي وهو يجد فتاته قـد لفظته فجأة وعلى غير انتظار..

عندما استنفد كامل كافة وسائل الاستمالة والإقناع لإعادة الحياة لعلاقته بليـلى، بدأ في مضايقتهـا ومطاردتها على نحو فظ والتعريـض بها أحيانًا لدى أصدقائهما المشتركين.. كل ذلك لم يُجده نفعًا مع شخصية قوية وعنيدة كليلى، التي اكتفت بمعاملته بقدر كبير من التجاهل والترفع..

في تلـك الأثناء لجأت إلى طـارق جاد المعيد بكلية العلوم الذي كان كامل هـلال قـد عرَّفها عليـه في وقت مبكر، باعتبـاره صديقه العاقـل الذي يتقبل منـه النصيحـة والنقد مما لا يسـمح به للآخريـن.. أرادت منـه أن يضع حدًّا لمطاردات كامل وأن يقنعه أن علاقتهما قد انتهت إلى غير رجعة.. اسـتمع لها طارق بودٍّ، وطمأنها أنه سـيرد كامل إلى رشده، وأنها يمكن أن تعتبره صديقًا مخلصًا لها كما هو بالنسـبة لكامل.. بالفعل بدأ كامل هلال يختفي من المشهد، فلـم تصادفـه بعد ذلـك إلا مرة واحـدة، عندما جـاء يدور في أروقـة كليتها وبصحبته فتاة مشدودة إليه، فتجاهلتهما وأسرعت بمغادرة الكلية..

أمس عندما تلقت دعوة سعد رمضان زميلها في الحركة الوطنية للطلاب، الـذي بالكاد تتذكـره، للاحتفال بمرور أربعين سـنة على أحـداث 24 يناير 1972 بحضـور جميع نشـطاء الحركة، لم تصدق نفسـها، حيـث لم تتخيل أن هناك من لايزال مهتمًّا بالاحتفال بما حدث حينئذ.. لقد مرت سنوات وعقود، وتغـيرت أحوال البلاد وتبدلت حكوماتها عـدة مرات، وأخيرًا قامت ثورة، كان الجميع يتمناها ولم يجرؤ أحد على التنبؤ بها أملًا في تحقيق الإصلاح الذي عجـز جيلهـم عن وضع بذوره.. لَكَمْ تمنت أن تعـود إلى مصر في تلك الأيام الرائعة من يناير، تسـتعيد ثوريتها المفتقدة، أو على الأقل تعطر روحها القلقة بأنفاس الشباب الثائر الذي كتب لمصر تاريخًا جديدًا في ميدان التحرير..

بعـد سـنوات من الملـل والسـأم السـياسي وجدت نفسـها مشـدودة إلى شاشـات التلفزيـون، لا تكـف عـن الاتصـال بالأصدقاء في مـصر، خاصة طـارق جـاد وأميمة حسـن، تحاول أن تفهم مـا يدور من أحـداث متعاقبة.. كانت تتمسـك باللحظة الثوريـة وتتغافل عن مظاهر الاضطراب السـياسي

والاحتجاج الفئوي والمناوشات الطائفية التي أخذت تغزو المشهد المصري تدريجيًّا.. ظلت عدة شهور متفائلة بأن الغد سينقي الثورة من شوائبها ويوحد المصريين لتحقيق أهدافها.. لكن تدريجيًّا خبا هذا التفاؤل وبدأت تسلم بما سمعته مرارًا من الدبلوماسيين الأجانب من أن الاضطراب والغموض المصاحب للثورات قد يستغرق سنوات طويلة وربما عقودًا..

في خضم مشاعر الإحباط التي غزتها في الشهور الأخيرة تلقت هذه الدعوة المفاجئة، فترددت بشأنها متسائلة: من ذا الذي يحرص الآن على تجميع جيل تفرقت به السبل للحديث عن أحلام أجهضت، وذكريات يغلفها الإحباط وربما الندم؟!.. فكرت في أنه يتعين عليها قبل الاعتذار أن تسترشد برأي طارق جاد..

■■■

2

طــــارق جـــــاد

مـن قفـط في قنـا إلى القاهـرة، ثـم إلى فرنسـا في بعثـة لمدة خمس سـنوات للحصـول على الدكتـوراه، وبعدها إعارة لمـدة أربع سـنوات أخرى لجامعة الكويت، لم تتغير شـخصية طارق جاد الذي تحس عندما تلتقيه للمرة الأولى كأنـك تعرفـه منذ أمـد طويل.. بسـاطة وطيبة وصراحة لفتـت انتباه كل من تعامل معه.. نشأ في أسرة كبيرة متواضعة الحال.. نال فرصة مواصلة التعليم بسبب تفوقه البارز، فأصبح الجامعي الوحيد بين إخوته الخمسة..

في مدرسـة قفط الثانوية تعرف إلى الأسـتاذ عبد العزيز الزعفراني مدرس الرياضيـات الذي سرعـان ما أصبح مثله الأعلى.. كان عبد العزيز الذي أتى من المنصورة، شـاعرًا ومثقفًا من طراز رفيع، جمع حوله مجموعة من التلاميذ النابهين الذين بهرتهم شـخصية معلمهم، وجذبتهـم الآفاق الثقافية التي فتح لهم باب مغارتها.. بحجة مراجعة الدروس التي تطوع بها الأستاذ الزعفراني، كانت مجموعة التلاميذ تلتقي يوميًّا في منزله، يقرأ لهم أشعار صلاح عبد الصبور

وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة، وأشعاره هو شخصيًّا، فيكتشف التلاميذ شعرًا غير الذي يدرسونه في المدرسة، موزونًا ولكنه غير مقفى، موضوعاته أكثر جاذبية وأقرب إلى اهتماماتهم ومشاعرهم.. أخذ طارق وزملاؤه في تقليد ذلك الشعر ويبدءوا يتبارون بحماس في ذلك.. يلجئون للأستاذ الزعفراني كحكم وناقد، يعتزون بتشجيعه وملاحظاته.. ثم تجرأ طارق ليصعد فوق منضدة وسط فناء المدرسة يلقي من حين لآخر قصائد من نظمه..

في ذلك الزمن في منتصف ستينيات القرن العشرين، كان جمال عبدالناصر مهتمًا بإنشاء تنظيم شبابي في إطار الاتحاد الاشتراكي، يحمس النشء للعمل العام ويربطهم بالنظام، على النحو الذي كان سائدًا في الدول الاشتراكية، فأقام ما سماها «منظمة الشباب العربي الاشتراكي»، على غرار منظمة «الكومسمول» في الاتحاد السوفيتي..

من مدينة قنا العاصمة، إلى مدرسة طارق في قفط، جاء بعض الأساتذة للالتقاء بأبرز التلاميذ، الذين رشحهم المعلمون كعناصر نشطة وموهوبة.. عندما سأل الضيوف طارق عن معلوماته العامة في السياسة ومدى متابعته للأحداث الجارية، أجاب باستفاضة وثقة في النفس على نحو أثار انبهارهم.. لذلك، في بداية العطلة الصيفية التالية، طلبوا منه حضور دورة تثقيفية لمدة أسبوعين في «المعهد الاشتراكي» الذي افتتح حديثًا في أسيوط، حيث وجد نفسه وعشرات من أقرانه من مدارس مختلفة، قد انتظموا في حلقات نقاشية يدير كل منها «موجه».. كانت تلك تجربة مثيرة في حياة طارق الذي وجد نفسه لأول مرة في غربة محببة، بين زملاء متميزين يتبارون في الحوار والسمر

والرياضة، قامت بينه وبين معظمهم صداقات مازالت تشع الدفء في حياته إلى اليوم..

قبل نهاية الدورة أبلغوه، ضمن عدد محدود من زملائه، أنهم لتميزهم، سيذهبون إلى «أبو قير» شرق الإسكندرية، لحضور دورة ذات مستوى أرفع.. كانت التجربة تلك المرة أقسى، بسبب البعد الجغرافي وتنوع المشاركين من الأعمار والفئات المختلفة، وكذلك بسبب النظام الصارم الذي فرض عليهم، وظروف المبيت في خيام تقتحمها بلا عوائق العقارب والسحالي وحشرات أخرى، ولا تغني شيئًا في مواجهة صيف قائظ الحرارة.. مع ذلك، كان لهذه الدورة أثر بالغ على طارق، حيث غزته لأول مرة مشاعر الحب الجارف.. ربما لم يكن منطقيًّا أن يهيم حبًّا بنرمين، ابنة طبيب سكندري والطالبة بكلية الآداب، والتي تتجاوزه في العمر بعدة أعوام، لكن لم يكن له حيلة في مواجهة ما وجده من جمال مبهر ورقة مفرطة وطلاوة لسان وعمق تفكير استحوذ على كل حواسه وأنساه وجود بقية المشاركين!..

كانت نرمين تتأفف من تملق بعض المشاركين ومضايقات البعض الآخر، لذلك قربت طارق إليها لبراءته وصغر سنه.. كانت تختاره دائمًا لتحاوره وتمشي إلى جانبه، تستمع بشغف لشعر السياب الذي يجيد إلقاءه.. كل ذلك غذى مشاعر الحب التي تملكت طارق الذي سرعان ما كان عليه إلا أن يتجرع آلام الفراق بانتهاء أيام الدورة والعودة إلى الصعيد..

غير أن حدثًا طارئًا قد منحه عدة أيام إضافية بجوار محبوبته وانتشله من الوجد الذي كان قد أخذ في معاناته.. لقد استدعوه ليسافر إلى القاهرة،

ضمن وفد يمثل المنظمة لحضور احتفالات عيد الثورة الرابع عشر.. لم يكن هذا بالنسبة إليهم في المنظمة احتفالًا عاديًّا وإنما كان المناسبة التي سيعلن فيها الرئيس عبد الناصر ميلاد منظمتهم رسميًّا.. في معسكر شبابي في حلوان، استطاع دون عنت أن يجد نرمين، وأن يختلس بضع ساعات يجاورها ويجلس إلى جوارها في الندوات والمطاعم، سعيدًا بهذا القرب واهتمامها الظاهر برعايته والاطمئنان عليه..

ضمن طابور طويل من الحافلات التي أقلت نزلاء المعسكر إلى ميدان عابدين، حيث سيلقي الرئيس خطابه، جلس طارق بجوار نرمين في إحدى الحافلات يسامرها ويتلو عليها المزيد مما يحفظه من أشعار.. عندما وصلوا إلى الميدان الكبير، وجدوا الحشود تقف في طوابير لا تكاد تنتهي، في طريقها إلى الأماكن المحددة لها، حيث قسم المنظمون السرادق الكبير إلى مربعات، يمتنع على أي منهم تخطيها.. جلسوا عدة ساعات في انتظار الزعيم، يشغلون أنفسهم بالأناشيد أحيانًا، والهتافات المنظمة وَفْقًا لما تدربوا عليه أحيانًا أخرى.. كان حماسهم يستغرق الملل ويحجب عنهم التفكير ربما في عبثية المشهد ككل..

من بعيد ظهر الرئيس على المنصة، فانطلقت حناجرهم تهتف بحماس له وللوطن والأمة العربية والقضاء على الإمبريالية والرجعية.. بالنسبة لطارق كان حلمه أن يقترب أكثر من المنصة، ليراه بوضوح وربما يلمسه أو يعانقه، ولكنه كان بالتأكيد حلمًا مستحيلًا.. بمجرد أن انطلق صوت الرئيس في مكبرات الصوت المنتشرة في المكان، وهو ينطق باستهلاله المعتاد:

«أيها الإخوة المواطنون»، أحس طارق بشعور طاغ من الحماس والتوحد مع الزعيم الملهم الذي ينفذ بنبرة صوته المميزة إلى أعماقه الداخلية..

في اليوم الأخير في علاقته بنرمين، ذهبوا بهم إلى استاد القاهرة لحضور الاحتفال الشعبي بعيد الثورة، بحضور الرئيس وضيوف أجانب.. بدل طارق مكانه سريعًا ليجلس بجوار الفتاة التي تستأثر بوجدانه.. كانا في مواجهة المنصة الرئيسة في أعلى المدرج، يحركان مع زملائهما لوحات تحمل عبارات وأشكالًا تظهر للجالسين في مواجهتهم ولكاميرات التلفزيون، في حين ينشغلون هم فقط بتنفيذ الخطوات التي تدربوا عليها بطريقة ميكانيكية.. فجأة أصابهم الرعب واهتزت أبدانهم لدوي انفجارات عنيفة، تأتي من خلفهم مباشرة.. تتابع الدوي بشكل مكثف، فالتصق بدنا طارق ونرمين من المفاجأة والخوف، إلى أن تصايح زملاؤهم مشيرين إلى السماء خلفهم، حيث تزينت بألوان قوس قزح.. أدركا أنها أصوات انفجارات الألعاب النارية تنطلق من خلفهم مباشرة، لتمتع الرئيس وضيوفه والمتفرجين وسكان القاهرة.. لكنها كانت تهز جسديهما الرقيقين وتبث الرعب في كيانهما.. أشفقت نرمين على طارق الذي كان بدنه يهتز بشدة لوقع الانفجارات التي لم تكن تهدأ إلا لتعود أكثر قوة وكثافة.. قامت من مكانها لتصحبه إلى مكان آخر يسترد فيه سكينته، لكن الحراس والمشرفين أعادوا كلًّا منهما لمكانه رافضين لأي مشارك ترك موقعه مهما كان السبب، لحين مغادرة السيد الرئيس المكان.. مرت على طارق جاد أطول دقائق عرفها في حياته حتى ذلك الحين، منتظرًا في كل ثانية ليس فقط دوي الانفجارات التي تهز بعنف المكان من خلفه وتكاد تهدمه، لكنه كان، متوهمًا، يخشى أيضًا سقوط بعض هذه القذائف

مشتعلة أو بعد انطفائها فوق رأسه التي تقع أسفلها مباشرة.. في أعماقه كان يبتهل لله متمنيًا نهاية سريعة للألعاب النارية وللاحتفال ككل..

مع بدء السنة الدراسية الجديدة وجد طارق اهتمامًا كبيرًا به من إدارة المدرسة، باعتباره ممثل المنظمة فيها، فكلف بتولي الإذاعة المدرسية وتنظيم الندوات السياسية والثقافية، بالتعاون مع بعض المعلمين والتلاميذ المنضمين للمنظمة.. المعلم الوحيد الذي سخر من نشاطه كان هو الأستاذ عبد العزيز الزعفراني.. كان يلومه على الوقوع فريسة للبروباجندا الناصرية التي خدعته كما خدعت الجميع.. ولأن طارق كان يُقدر الأستاذ الزعفراني ويدرك أنه مختلف عن الآخرين، تقبل نقده بابتسام، وإن لم يوافقه في موقفه العدائي من الدولة الناصرية.. كان طارق في نشاطه مدفوعًا بشعور وطني جارف وتصديق كامل لتوجهات ووعود الزعيم، باعتبارها الحقيقة الصافية التي ستشيد المستقبل الزاهر الموعود لوطنه.. وبسبب نشاطه البارز وتميزه الفكري اختاروه ممثلًا للطلاب في اللجنة العليا للمنظمة على مستوى المحافظة، وهو ما جعل وضعه في المدرسة وقفط وقنا يصعد إلى مكانة مرموقة.. فلم يكن غريبًا أن يتلقى دعوات من رئيس مجلس المدينة والمحافظ لحضور اجتماعات لمناقشة قضايا عامة أو شئون محلية، وأن يحتك في تعامل شبه يومي مع شيوخ العائلات ووجهاء العشائر وكبار الموظفين وممثلي العمال والفلاحين..

كان على رأس اللجنة المحلية العليا للمنظمة علي رشدان، وهو مهندس زراعي، سبق له الترشح لمجلس الأمة، كما كان عضوًا في هيئة التحرير والاتحاد القومي، قبل انضمامه للاتحاد الاشتراكي.. كان شخصية شعبوية يجيد حياكة شبكات من العلاقات الاجتماعية مع كل الأطياف، تحت دعوى

تنفيذ سياسات الدولة وتحقيق الصالح العام، وإن لم تغب المصالح الخاصة في كثير من الأحيان.. كان التجار والأثرياء القدامى والجدد يسارعون في الاستجابة لطلبات لا تنتهي لإنشاء مقر المنظمة وتجهيزه وتأثيثه وتغطية تكاليف نشاطه، خشية اتهامهم بأنهم من الرجعيين أو المعادين للثورة.. وهي نقطة الضعف لديهم التي أدركها علي رشدان وبالغ في استغلالها..

نأى طارق بنفسه قدر الإمكان عن رئيسه، مكتفيًا بحضور الاجتماعات وتنفيذ التكليفات الرسمية التي تطلب منه، وهو ما دفع علي رشدان لتقريب بعض الطلاب الآخرين منه، فأصبحوا دراويش في معيته، لا يتأخرون عن تلبية طلباته وتنفيذ المهام التي يكلفهم بها خارج إطار العمل الرسمي المعلن.. لم يشغل طارق نفسه بهؤلاء المنافسين، رغم قناعته بأن الأمر لو كان بيد علي رشدان، لتخلص منه منذ وقت مبكر، وأحل محله حسن عبد الغفار الطالب بمدرسة قنا الثانوية وأقرب هؤلاء الدراويش إليه..

ذات مرة، عندما كلفه رشدان برئاسة اجتماع طارئ في مكتبه لسفره المفاجئ إلى القاهرة، وجد ضمن الملفات المتناثرة على المكتب، تقريرًا سريًّا كتبه حسن عبد الغفار وأشَّرَ علي رشدان بتوجيهه إلى مسئول أمني كبير، يتضمن ذكر بعض الوقائع التي تتهم عددًا من الأشخاص بأنهم من الشيوعيين المتآمرين على الثورة والزعيم.. من بين هؤلاء وجد لفرط دهشته اسم الأستاذ عبد العزيز الزعفراني.. انتابته دهشة ممزوجة بالسخط والإدانة.. فدائمًا كان ينفي صادقًا لمعارفه وأصدقائه ما يشاع عن قيام أعضاء المنظمة بكتابة تقارير سرية عن الآخرين، معتبرًا أن هدف هذه الاتهامات هو الهجوم على المنظمة والتقليل من شأن إخلاص أعضائها للقضية الوطنية..

لم يعرف ماذا يفعل؟! هل يخطر الأستاذ الزعفراني ليأخذ حذره؟! أم أن ذلك إفشاء لسر ما كان يجب أن يطلع عليه؟! هل يواجه علي رشدان بما طالعه بغير قصد، ويظهر له سخطه على هذا السلوك اللاأخلاقي الذي ما كان يجب عليه أن يتورط ويورط المنظمة فيه؛ خاصة أنه متأكد من أن بعض ما جاء في التقرير مزيف وغير حقيقي، كما هو الحال في شأن الأستاذ الزعفراني الذي يعرفه تمامًا ويعرف توجهاته، وهي بالتأكيد مخالفة لما جاء في التقرير؟! أم أنه سيُعرض نفسه للخطر، لو أبلغ رشدان أنه قد اطلع على تقاريره السرية؟! ثم كيف يتصرف مع حسن عبد الغفار الذي تفرغ فيما يبدو لكتابة التقارير السرية عن الآخرين؟! ألا يفترض أنه يرأسه تنظيميًّا وله الحق في أن يطلب استبعاده من التشكيلات والأنشطة الطلابية؟! لكن كيف يمكنه ذلك وحسن يظهر دائمًا كأنشط الطلاب وأكثرهم تواجدًا ومشاركة؟! ثم هل سيسمح علي رشدان باستبعاده وهو قريب منه إلى هذا الحد؟!

تملكه شعور داخلي عميق بالغثيان والتردد.. بدأ يفسر الأمور على نحو مخالف عما كان يفعل طوال الشهور الماضية.. تساءل مرارًا هل كان على صواب في انضمامه للمنظمة وتكريس وقته لها؟! تمنى لو كان بمقدوره السفر إلى الإسكندرية والإفضاء لنرمين بضيقه وهواجسه وسؤالها النصيحة.. عمليًّا اكتفى بالبقاء في قفط، والاعتذار عن الاجتماعات والأنشطة في قنا، متحججًا باقتراب موعد الامتحانات ورغبته في تحقيق مجموع جيد في امتحان الثانوية العامة..

تبدلت الأمور فجأة في شهر مايو وتوالت أحداث سياسية جسام، دفعت البلاد للاقتراب من حافة الحرب مع إسرائيل، فأسرع طارق لاسترداد

نشاطه في المنظمة، وقضاء معظم وقته في فعاليات متواصلة ومسيرات شعبية للتنديد بالعدو تطوف أرجاء المدن.. استمر الحشد والتعبئة الشعبية مع تقدم القوات المصرية إلى عمق سيناء، في ظل تأكيد المشير عامر أن هذه القوات قادرة على بلوغ تل أبيب خلال أيام معدودة، ثم زاد الحماس مع قرار الرئيس ناصر بغلق مضيق تيران ومنع السفن الإسرائيلية من عبور خليج العقبة..

بالنسبة لطارق جاد، بدا يوم 5 يونيو 1967 كأحد أسعد الأيام في تاريخ الوطن، حيث توالت البيانات العسكرية في الإذاعة عن إسقاط طائرات العدو بالعشرات، وتدمير تشكيلاته بواسطة قواتنا المنتصرة.. كان الحماس يطغى على كل الأخبار والتصرفات، كما كانت الثقة مطلقة في الزعيم وقدراته وبياناته.. غير أن شكًّا بدأ ينتاب طارق في عصر نفس اليوم، حيث لاحظ أن البيانات تشير لسقوط طائرات العدو فوق أراضينا، وتدمير تشكيلاته التي تهاجمنا في سيناء، فتساءل: أين هجومنا عليهم؟! ولماذا لا نتقدم في عمقهم كما وعدنا المشير؟!

تدريجيًّا مع تقدم الساعات والاستماع للإذاعات الأجنبية، وتراجع وتيرة المبالغة في البيانات المصرية، أصبح الشك الذي انتاب طارق حقيقة مؤلمة.. ظهر له بوضوح أن إرهاصات النصر كانت كاذبة، وأن قواتنا تتراجع وتنسحب من سيناء في شبه فوضى، وأن طائرات العدو دمرت طائراتنا وهي رابضة في مكانها، وأعطبت مطاراتنا، وأن قيادتنا فقدت القدرة على إنقاذ البلاد، مما بدا كأسوأ هزيمة عسكرية تتعرض لها في تاريخها الممتد لآلاف السنوات..

كان شعورًا لم يكابده من قبل بالضياع والألم واليأس يستحوذ عليه.. عاد إلى بيته، ليغلق باب حجرته ويزهد في الطعام ويرفض رؤية أصدقائه وزملائه.. كره الاستماع للإذاعة أو قراءة الصحف أو الرد على الهاتف.. لم يخرج من عزلته إلا ليستمع للخطاب المنتظر للرئيس الذي أعلن فيه تنحيه عن السلطة وتحمله مسئولية النكسة.. زاد إحباطه بعد الخطاب وتلاشت أوهام وأحلام يقظة راودته بأن الزعيم سيفصح عن مفاجآت قد تغير مصير الحرب.. بات له واضحًا أن كل شيء قد ضاع، ليس فقط سيناء، لكن أيضًا قدرة مصر على الذود عن كيانها وبقية أراضيها، وقبل ذلك الحفاظ على كبريائها وتمسكها بدورها العربي القيادي..

لم يستطع مع ذلك أن يمنع نفسه من مشاركة الآخرين حوله في الإحساس العميق باليتم إذا ما تنحى حقًّا الرئيس.. لقد طغت شخصية الزعيم الكاريزمية وامتزجت بالأمة وصار الاثنان في نظر الناس كيانًا واحدًا، فكيف يَقبل الناس الآن، في لحظة السقوط والضياع، الفصل مجددًا بينهما؟! عندما خرج إلى الشوارع وجد الناس تسير حوله وقد انتابتها حالة من الذهول.. سمع عويل السيدات وشاهد انتحاب الرجال المسنين.. هل كان ذلك لأجل القائد الذي أعلن أنه سيختفي ويتنحى؟! أم بسبب الوطن الذي هزم ويكاد ينهار؟! وهل كان بمقدور أحد أن يميز بين الأمرين، بعد كل هذه السنوات من حكم الزعيم المتفرد؟!

وقف أهالي قفط، كغيرهم من المصريين في المدن والقرى، في طوابير طويلة أمام مكاتب التلغراف، يرسلون البرقيات للرئيس، طالبين منه الرجوع عن قرار التنحي، والاستمرار في قيادة البلاد حتى تحقيق النصر.. وقف طارق

معهم في الطابور، متمنيًا كالآخرين تخلي الرئيس عن فكرة مغادرة المشهد، لأنه لم يكن هنالك غيره من أحدٍ في المشهد! فكل ما عداه فراغ وخواء لا يعرف أبعاده إنسان.. كان يشاهد حوله بعض من يعرفهم من أعضاء الاتحاد الاشتراكي والمنظمة، ينظمون الطوابير ويحشدون الناس، فينظر لهم برثاء، رافضًا مناشدتهم له الانضمام إليهم..

بعد أن تعدى مرحلة عدم التصديق لما حدث، وتراجع الرئيس عن قرار تنحيه، غمر طارق تدريجيًّا شعور عميق بالسخط على كل من تسبب في الهزيمة، وزيف الحقائق وخدع الناس، ولم يعف نفسه من ذلك.. قرر بشكل حاسم وقاطع أن ينهي صلته بالمنظمة، وأن يبتعد عن قيادييها وأنشطتها، وهو ما صمم عليه أيضًا بعد انتقاله للدراسة في جامعة القاهرة.. حاول بعض زملائه ممن سبق أن التقى بهم في معسكر أبوقير اجتذابه للانضمام إلى التنظيم الطليعي السري الذي انضموا إليه، لكنه لم يحد قيد أنملة عن قراره برفض المشاركة في تنظيمات ساهمت في خداع الناس، كما خدعته هو شخصيًّا..

بعد ذلك لم تجذبه الأحداث العامة إلا عندما مات عبد الناصر فجأة.. وجد نفسه لا شعوريًّا يركب أول قطار من قفط، حيث كان يقضي عطلة نهاية العام الدراسي، إلى القاهرة، مزاحمًا الآلاف الذين فعلوا الشيء ذاته على طول مسار خط قطار الصعيد، ليجدوا شوارع وميادين القاهرة مكدسة بالبشر الملتاعين يبكون في صمت أو يصرخون.. انتظر مرور الجنازة في ميدان التحرير، لكن الحشود دفعته في اتجاه شارع رمسيس، حيث شاهد الطائرات المروحية تحلق حاملة جثمان الفقيد، إلى حيث ستبدأ الجنازة من مبنى قيادة

الثورة بالجزيرة.. عندما تقدم الموكب الجنائزي إلى حيث كان يقف في أول شارع رمسيس لم يشاهد شيئًا، حيث دفعته الحشود مرة ثانية إلى الشوارع الفرعية..

في طريق عودته إلى قفط، حاول أن ينأى بتفكيره عن طغيان المشاعر والانفعالات، وأن يهرب بعيدًا عن ضغط زحمة القطار، ليتأمل في التجربة الناصرية وموقفه منها.. اعترف لنفسه بأنه رغم سخطه على النكسة، واتهامه الذي لم يتزحزح لعبد الناصر بالمسئولية عنها، وكراهيته للسمات الدكتاتورية للحكم الناصري، فإنه كان في أعماقه يحب عبد الناصر ويتأثر الآن لفراقه.. هل يرجع ذلك لارتباط طفولته وصباه بهذا الزعيم؟ أم بسبب انتصار عبد الناصر للفقراء الذين ينتمي هو وعائلته ومدينته والصعيد كله لهم؟!.. فعلى عكس الحكام السابقين، لم يأت هذا الزعيم من نسل ساكني الضياع والقصور، إنما أتى من صلب المصريين العاديين، وربما لهذا تبنى حلمهم في تحقيق العدالة الاجتماعية؛ ولذا يبكيه الآن بحرقة الكادحون والمحرومون.. أخذ يتأمل في وجوه المسافرين من حوله التي تنطق بالحزن الدفين والخوف مما يُخبئهُ المستقبل، فتأكد من سلامة تفكيره..

رغم ذلك، عندما عزل أنور السادات قيادات التيار الناصري من الحكومة والمراكز القيادية وأودعهم السجن، لم يتعاطف طارق كثيرا معهم، وفي الوقت ذاته لم ينبهر بشخصية السادات، ولم تعجبه خطبه العامة، كما لم تقنعه فكرة رب العائلة، التي حاول الصحفيون المحيطون بالرئيس ترويجها بين الناس.. أصبح طارق يشعر تدريجيًا بأنه مستقل عن الجميع.. مستقل في أفكاره منفتح على كل التيارات، وَفْقًا لما ترشده قراءاته وتقوده قناعاته.. شعر أنه مستقل

أيضًا في حركته ونشاطه، فرفض بقوة الانضمام لكل التيارات العلنية والسرية الموجودة على الساحة التي تحاول جاهدة جذب الشباب المتميز إليها.. لم يمنعه التركيز على التفوق في دراسته من أن يرتاد الندوات واللقاءات الثقافية داخل الجامعة وخارجها، الأمر الذي أتاح له نسج علاقات تعارف وصداقة متعددة مع طلاب وطالبات من كافة التوجهات..

ضمن هؤلاء الطلاب كان كامل هلال الطالب بكلية الهندسة الذي لفت انتباهه في إحدى الندوات التي عقدت في نادي المدينة الجامعية، حيث كان يقيم.. أدرك لفوره أن ذلك الشاب غزير الثقافة حادُّ الذكاء، وإن بدا متحديًا ومتعاليا في تعليقاته على محاوريه.. اقترب منه بعد نهاية الندوة، مشيدًا بما سمعه منه، ليدعوه لزيارته في حجرته في المدينة الجامعية.. ومنذ تلك اللحظة جمعت بينهما علاقة فريدة، فيها من الصداقة والاحترام المتبادل أكثر مما فيها من اتحاد وجهات النظر أو الاتفاق الفكري..

كان كامل هلال قادرًا على التعرف بسهولة وسرعة على الناس الذين تبهرهم دائمًا قدراته العقلية ومبادراته الفكرية، لكنه كان يفقد بنفس السرعة هؤلاء الذين يتعرف عليهم، بسبب غروره وأنانيته وإعلائه المبالغ فيه لذاته.. على العكس منه كان طارق جاد يتخير بدقه معارفه وأصدقاءه، وبعدئذ لا يفرط فيهم بسهولة.. كان متسامحًا وحنونًا يغفر هفوات الأصدقاء ولا يطالبهم بأكثر مما يرغبون في منحه من وقت وفكر.. لذلك دون سعي من جانبه، تحول سريعًا في المدينة الجامعية إلى قطب، يجتمع حوله عدد متزايد من المريدين الذين يسعدون بلقائه ومحاورته ومصاحبته إلى الأنشطة الجامعية

والثقافيـة المختلفة رغـم انتمائهم إلى توجهات سياسـية وفكرية شـتى، لذلك اسموه «عمدة الطلبة»..

كثـرة الأصدقـاء والمعارف وتعـدد الاهتمامـات والأنشـطة، لم يحل دون تفوق طارق الدراسي ليصبح معيدًا في كلية العلوم.. احتفظ بإقامته في المدينة الجامعيـة، وإن احتـل حجـرة مـشرف بدلًا من حجـرة طالـب، لتصبح هي وقاعـة القـراءة الملاصقة لها مكان تجمع أصدقائـه والمقربين منه، من الصعيد وغير الصعيد.. وجد نفسـه دون تخطيط مسـبق، متورطًـا في أحداث الحركة الطلابيـة في أوائـل عام 1972، مشـجعًا وملهـمًا وأحيانًا لاجمًـا لاندفاعات الطلبـة المقربين منـه، ومن بينهم كامل هـلال.. لكن عندمـا اعتقل الطلاب مـن داخـل قاعة الاحتفالات بالجامعة، حرر نفسـه من قيـوده واندفع يدعو الطلاب للتظاهر، وقاد مجموعات منهم إلى قلب ميدان التحرير في مناوشات مرهقـة مع قـوات الشرطـة، استمرت لأكثر مـن يومين..عقـب ذلك تخلى تدريجيًّا عن حياده الفكري؛ ليصبح مناوئًا صراحة للسادات، وليقترب أكثر مـن الجماعـات اليسـارية التي بدأت في شـن هجوم متواصل على سياسـات الرئيس، وإن رفض الانضمام تنظيميًّا لأي منها..

في تلـك الآونـة أيضًا اقترب منـه بدرجة أكبر كامل هـلال ورفاقه الذين يدورون في فلكه.. كانوا يحترمون فيه إخلاصه لمبادئه ورجاحة آرائه وحسن تقبله للاسـتماع لوجهات نظرهم، وإن شـابها أحيانًا بعض الغلو والشطط.. كانوا يتحملون نقده وأحيانًا سخريته من أفكارهم ومن النظم الشيوعية التي كانـوا يدافعون عنها؛ لأن نقده كان يأتي دائمًا مغلفًا بالفكاهة ومتسـمًا بصدق الطوية وعدم تعمد الإساءة..

أثـارت ليلى عامر صديقة كامل التـي كانت تأتي أحيانًا بصحبته اهتمامه.. ذكرتـه بنرمـين طالبـة آداب الإسـكندرية التـي لم تغـب تمامًـا عـن ذاكرتـه رغـم انقطـاع أخبارهـا منذ سـنين.. ذات الطلعـة البهية والاعتـداد بالنفس والتعبـيرات المختصرة الذكية.. في فراغه العاطفي تمنى أن يجد مثلها.. فرغم كثـرة معارفه من الطالبات لم يجد منهن من تشـده حقيقة إليها، كما حدث مع نرمين، وكما أحس عند لقائـه أول مرة بليـلى عامر.. غير أنـه وَفْقًا لمفاهيمه الأخلاقيـة الصارمـة، لم يتجرأ على التفكير في ليـلى إلا كصديقة صديقه التي أصبحـت على نحو أو آخر وللأبد محرمة عليه كحبيبة محتملة أو مُرتجاة.. لقد شعر بمعاناة حقيقية من سيطرة هذه المفاهيم عليه، خاصة عندما قطعت ليلى علاقتهـا بكامـل ولجأت إليه ليقنعـه بالابتعاد عنها.. هنا لم يسـتطع أن يخطو خطوة واحده للأمام في نسـج علاقة معها، وهو ما كان يتمناه ويفكر فيه ليل نهـار؛ لأنـه اعتقد أن ذلك سـيكون عملا غير مقبول أخلاقيًـا تجاه صديقه.. لذلـك اكتفـى بترك علاقة الصداقة المجردة والود الإنسـاني تنمو باطراد عبر السـنين بينه وبينها، حتى بعد زواجها، وسـفره هو للبعثة، ثم تجربته الزوجية المبتسرة مع سناء طاحون..

أول مرة شـاهد فيها سناء طاحون كانت أثناء تجواله بين حلقات النقاش الحماسي التـي جمعت أعدادًا غفيرة مـن طالبات وطلبة جامعـة القاهرة أثناء حركـة الطلبـة في يناير 1972.. لفـت انتباهه إليها وقارهـا والطريقة الهادئة والمتحفظـة التـي عبرت بها عن وجهـة نظرها، حيث رفضـت هجوم بعض زملائها على شـخص الرئيس، وإن أكدت إدانتها لسياسـاته.. في اليوم التالي وأثنـاء حضوره مؤتمرًا حاشـدًا في المدرج الرئيس بكليـة الحقوق، حاول فيه

عميـدا كليتي الحقوق والاقتصاد والعديد من الأسـاتذة تهدئة ثورة الطلاب وتبريـر سياسـات السـادات، فوجئ بنفـس الطالبـة تتزاحم وتعتـلي المنصة وتـشرح بمنطق رصين أسـباب غضب الطلاب وتؤكد وجوب الاسـتجابة لمطالبهـم.. عندما قاطعها الطلاب الأكثر حماسـة بالهتاف بسـقوط الرئيس، أبـدت رفضهـا وغضبها؛ لأن ذلك سـيخرج الحركـة الطلابية عـن أهدافها ومسارها..

انتظرها قرب باب المدرج وأشاد بهدوئها ومنطقها وطلب منها ألا تكتفي بمجرد إبداء الرأي، وإنما رجاها أن تشارك بفعالية أكبر في الحركة الطلابية.. عندما لم تمانع، دعاها لحضور حوار سيتم بين ناشـطين من توجهات مختلفة في نادي المدينة الجامعية في مساء نفس اليوم.. منذ ذلك الحين أصبحت سناء طاحون تتردد من حين لآخر على اللقاءات والفعاليات التي يدعو إليها طارق جاد.. كانت تشـارك بتحفظ وتستمع بهدوء ولا تتكلم إلا نادرًا، ولكن دائمًا بكياسـة واقتدار.. لم تكن باهرة الجمال، كـما لم تكن بادية الأناقة، وإنما تمتعت بـما يميـز معظم فتيات الشريحة الصغري من الطبقة الوسـطى من بسـاطة في المظهـر وملامح هادئة ووقار أخـاذ.. كانت مُحجبة في وقت كان الحجاب فيه نادرًا بين طالبات الجامعة، ولم تكن تقبل المشاركة في أي لقاءات تجرى خارج الحرم الجامعي..

كانت مشـاعر طارق جاد تجاهها ملتبسـة، فهي لا تبهره ولا تشـده مثلما أحس مع نرمين أو مع ليلى عامر، ولكنه يحسـها قريبة منه على نحو أو آخر.. لم تبدر منه أو منها أي بادرة انجذاب أو تشـجيع للاقتراب من نسـج خيوط علاقـة عاطفيـة ولو خجـول.. لم يخطر على باله ولو للحظـة واحدة أن طالبة

الحقوق تلك قد تصبح يومًا زوجته، كما لم تفكر هي في أن معيد العلوم سيختارها يومًا كشريكة لحياته.. كل ما فعلاه لعدة سنوات هو الاحتفاظ بالود ومداومة اللقاءات الفكرية مع باقي الزملاء والأصدقاء..

عندما فوجئ بحصوله على بعثة دراسية إلى فرنسا في وقت أسرع مما توقع، فكر في الارتباط بفتاة تعينه على الغربة، وتبعد عنه شبح تأجيل زواجه عدة سنوات.. لم يجد بين معارفه من تجذبه لمشاركتها حياته، فلجأ لوالدته التي ذكرت له بعض قريباته من قفط، لكنه نفر من فكرة الارتباط بأي منهن وسافر للخارج وحيدًا..

بعد عدة شهور في الغربة، وفي مجتمع مختلف في تقاليده، أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار في بعثته إلا إذا أتى بزوجة مصرية تشاركه حياته، خاصة أن ظروف المعيشة ميسرة وتخلو من التعقيدات التي تحيط بالزواج في مصر.. انتهى تفكيره إلى سناء طاحون كأنسب الخيارات المتاحة أمامه، فتشجع وأرسل لها خطابًا رقيقًا، معبرًا عن مشاعرَ فياضة يحملها لها، بدت أكثر جلاء مع البعد الذي فرض عليه، وأنه يتمنى موافقتها على الاقتران به، وحضورها إلى فرنسا لتشاركه حياته الميسرة هناك، ثم مستقبله المبشر بعد الحصول على الدكتوراه والعودة إلى مصر..

إلى حد كبير فوجئ برد سناء طاحون الإيجابي، فأخذ يذلل بجدية كافة العقبات التي ثارت في وجه زواجه منها، إلى أن انتهى الأمر بحضورها لتشاركه بالفعل حياته في هذه البلاد البعيدة.. غير أنه على خلاف توقعاته

وغنياته، لم يتجاوز عمر هذا الزواج عامًا واحدًا، قضياه في شقاق وجفاء، مما جعله يقلع عن فكرة تكرار تجربة الزواج مرة أخرى..

بدأت المشـاكل منذ لحظة وصولها إليه في مدينة «ديجون» في ظروف غـير اعتياديـة، لا ذنب لـه فيها، اعتبرتها سـناء سـوء طالع ونذير شـؤم لهذا الـزواج.. اسـتخدم طـارق كل مخزونه من الكياسـة والحنـان للتخفيف من غربتهـا والتسرية عنها، غير أنـه أدرك تدريجيًّا أن تكوينها النفسي أكثر تعقيدًا مما توقع.. كانت أسـيرة مشاعر من الشـك والريبة في الآخرين، ممن يختلفون عنها في الفكر والسـلوك..لم تتكيف أبدًا مع الحياة في فرنسـا ولم تتجاوب مع أصدقائـه ولم تتقبـل وجـود صديقات له من الفرنسـيات والعـرب.. طالبته مـرارًا بالتوقـف عن تكريـس جانب من وقتـه للقاء هـؤلاء الأصدقاء، وأن يتفرغ فقط لدراسته تمهيدًا للعودة سريعًا إلى مصر..

كانت مشاهد الشارع والحدائق العامة تثير استهجانها، حيث تختفي في رأيها الحشـمة والوقار.. تصبح الأمور كارثية تمامًا بالنسـبة لطارق عندما يذهـب للتسـوق مع زوجتـه وتقابله إحـدى زميلاته أو واحدة مـن معارفه وتقبلـه القبلات الثلاث على وجنتيه، كما يفعل عادة الفرنسـيون.. هنا تسرع سناء بمغادرة المكان متجهمة الوجه، ولا تستجيب لإلحاح طارق ولا تستمع لتبريراته، ويستمر خصامها له أسبوعًا أو أسبوعين.. كانت تحرص على قراءة القـرآن معظم الوقت، وتواظب على صلواتها وتدعو طارق لذلك بحسـم.. فكر طارق أن يصحبها قدر استطاعته للصلاة في مسجد المدينة الصغير، وأن يتركهـا تتعرف إلى غيرها من المصليات المسـلمات، فربما يسـاعدها ذلك على التحـرر مـن موقفها المتحفظ على المعيشـة في فرنسـا.. لكن المحاولة فشـلت

لصعوبة لغة التفاهم، ولأن سناء لم تجد لديهن ذات المفهوم الديني الذي تتبناه..

مرة وحيدة وأخيرة ذهبا فيها إلى السينما، حيث فوجئت سناء بمشهد عري عارض في منتصف الفيلم، فسارعت بشد زوجها للخروج من دار السينما، وحَرمَت عليهما التفكير في العودة إليها مجددًا.. لم تكن تفتح التليفزيون إلا نادرًا، فلم ترغب في أن تشاهد ما لا يرضيها، كما كانت غير قادرة على متابعة الحوار بسبب اللغة، التي لم تبذل أي قدر من الجهد للإحاطة بها وتعلمها، رغم محاولات طارق مساعدتها وعرضه إلحاقها بمعهد متخصص لدراستها..

أحس طارق أن زوجته تقضي أيامها على مضض، لا يعجبها أصدقاؤه من الأجانب أو حتى من المبعوثين المصريين الذين كانت تقابل محاولات زوجاتهم اكتساب صداقتها بتحفظ شديد.. كانت تعاني بإرادتها وحدة وعزلة حقيقية.. مشاعرها العاطفية تجاهه بدت هي الأخرى مختلطة.. في البداية غلب عليها الوجل والتحفز، ثم تحول الأمر تدريجيًّا إلى نوع من الاعتياد السلبي الذي يفتقد المشاركة والحماس.. تعجب طارق من إصرارها على استخدام موانع الحمل، بحجة أنها لا ترغب في معاناة مصاعب الحمل والولادة في سنة زواجها الأولى، في ظل غربة تحرمها من وجود الأهل بالقرب منها، خاصة وهي لا يمكنها أن تنسى موت إحدى خالاتها بسبب حمى النفاس..

بعد مرور نحو عام على زواجهما وقبل أيام من بداية شهر رمضان، ألحت عليه أن يسمح لها بالسفر إلى مصر لقضاء الشهر الكريم مع عائلتها، خاصة

أن والدتها تمر بأزمة صحية.. وافق بلا تردد أملًا في أن يساعدها ذلك على تخطي أزمتها النفسية والعودة إليه بمشاعر أكثر إيجابية.. غير أنه كان واهمًا، حيث لم تعد إليه في الموعد المتفق عليه، ثم أخذت تماطل في العودة، إلى أن أرسلت تطلب صراحة الطلاق بالمعروف..

رغم الألم الذي أحسه، إلا أنه لم يُفاجأ تمامًا بذلك الطلب الذي لم يستبعده تفكيره منذ لحظة إلحاحها في الذهاب إلى مصر.. لم يجادلها كثيرًا وبادر لاتخاذ إجراءات الطلاق في القنصلية المصرية بباريس.. حاول أن يطوي سريعًا هذه الصفحة من حياته، معترفًا لنفسه أن النهاية جاءت في الوقت المناسب، فقد كاد يختنق من القيود التي بالغت سناء في فرضها عليه، خاصة فيما يتعلق بعلاقاته بأصدقائه.. فهو قد يتحمل أي شيء في الدنيا سوى حرمانه من اللقاء بهم والتواصل معهم..

لم تنس سناء طاحون أن ترسل لطارق بعد تلقيها ورقة الطلاق رسالة، شكلت الأمر الأكثر إيجابية في تاريخ علاقتهما، أكدت فيها مدى تقديرها لشهامته وتسامحه وخلقه الرفيع.. هي لم تجد مفرًّا من طلب الطلاق لاكتشافها عدم قدرتها النفسية على التأقلم مع حياة الغربة، ولأنها بصراحة تيقنت من صعوبة تكيفها مع نمط حياته، ومواقفه من الدين والدنيا.. لهذا فإن طلبها الطلاق لا يعني أي إهانة أو انتقاص من احترامها له، بل لعله وسيلة للاحتفاظ بالود بينهما، وتجنب الانجراف إلى الرفض والكراهية المتبادلة..

ابتسم طارق جاد بمرارة وهو يقرأ هذه الكلمات، ثم بادر بتمزيق خطابها وهو يردد لنفسه:

- لتذهب إلى الجحيم سناء طاحون بمشاعرها وتحفظاتها.. يكفيني ما كان على مدى عام كامل من الكبت والضغط النفسي.. إنها الماضي الذي يجب أن أنساه كي تعود حياتي لمسارها الذي اخترته أنا بمشاعري وأحاسيسي العقلانية الحرة..

بعد مرور عدة سنوات عندما استمعت ليلى عامر لطارق يحكي لها حكاية زواجه وطلاقه لم تتوقف عن الضحك والتعجب:

- هل هناك إنسان عاقل يتزوج بهذه الطريقة ويتوقع نجاحًا لعلاقته الزوجية؟!

- معك حق، كنت ساذجًا سعيت بهذه الطريقة الحمقاء للتغلب على صعوبات الغربة، فجنيت على نفسي أكثر مما جنيت عليها..

- كيف؟

- لأنها تزوجت مرة أخرى بعد مدة قصيرة، من شاب سلفي غني من أصدقاء شقيقها، راضية بأن تصبح زوجته الثانية!

مرة أخرى لم تتمالك ليلى عامر نفسها عن مواصلة الضحك، حتى طفرت الدموع من عينيها..

- لعلك تتذكرينها.. اسمها سناء طاحون.. هي طالبة الحقوق التي تكلمت بشجاعة ورزانة يوم لقاء المدرج الكبير، ثم بعدها حضرت معنا عدة لقاءات إبان أحداث الحركة الطلابية..

- نعم تذكرتها الآن.. أليست هي تلك الطالبة المحجبة الهادئة؟!

هي ذاتها..

- ما حصل بينكما لا يفاجئني.. فما هو مختلف بينكما أكبر مما قد يجمعكما..

- معك حق.. هذه هي الحقيقة!

في خضم نمط حياته الغني بالتواصل الاجتماعي الخصب مع الآخرين، سواء أثناء بقية أيام البعثة أو بعد العودة لمصر، نسي طارق جاد تقريبًا تجربة زواجه القصير بسناء طاحون، فلم تخلف ندمًا أو مرارة، ولكنها كانت بالتأكيد دافعًا باطنيًا لنفوره من فكرة الارتباط بزوجة أخرى.. لم تنجح ضغوط الأهل أو اقتراحات الأصدقاء في زحزحته عن موقفه الذي لم يكن رفضًا صريحا للفكرة، بمقدار ما كان رغبة في تأجيل اتخاذ القرار إلى الغد، الذي لم يأت بعد.. اعترف لنفسه مرارًا بأنه لم يكن أبدًا موفقًا مع المرأة.. كان ضعيفًا في مواجهتها، عكس صلابته وبروزه القيادي بين أقرانه من الرجال.. سَلمَ بأنه كان تابعًا في علاقته بنرمين، مستكينًا في علاقته بليلى عامر، مسحوقًا في تعامله مع سناء طاحون.. لهذا عاودته من حين لآخر دورات من السخط على نفسه، لتفريطه في صلابة الرجل الصعيدي الموروثة في التعامل مع عالم النساء..

شغلته أعباؤه التدريسية وبحوث الترقية، وكذلك الندوات والفعاليات التي حرص على تنظيمها أو المشاركة بفعالية فيها، عن المرأة والحب والزواج.. تدريجيًا، تحول مسكنه المتواضع إلى عش، يجتمع فيه أصدقاؤه القدامى وشباب المثقفين وناشطون سياسيون، فوجد نفسه من حين لآخر

ضيفًا على ضباط مباحث أمن الدولة.. حقًا لم يجدوا في سجله شيئًا مريبًا، ولم يثبت لهم انتماؤه لأي من التنظيمات الخفية أو العلنية، لكنهم رغم ذلك حذروه من فتح بيته للكثيرين ممن يتابعون نشاطهم الفكري والسياسي.. وهو تحذير لم يأخذه أبدًا بعين الاعتبار..

حبه للحياة وغرامه بخوض التجارب الجديدة وشجاعته الذاتية، جعلته يقدم على خيارات فاجأت أو لم تُرضِ من يحيطون به من الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل، لكنه ظل دائمًا موضع ثقتهم واحترامهم.. لم تدفعه إقامته في الخارج سنوات عديدة أو مركزه الجامعي للبعد عن بساطة السلوك أو للتعالي أو حتى للعزلة والانكفاء على الذات، بل بدا أكثر تواضعًا والتصاقًا بالشخصية المصرية البسيطة التلقائية، إلى الحد الذي كان يدفع الكثيرين ممن يلتقون به للشك في أنه أستاذ جامعي أو أنه قد عاش بالفعل في فرنسا.. تلقائية سلوكه، وبساطة مظهره وتواضع مسكنه، فضلًا عن لهجته الصعيدية التي لم تفارقه، جعلت له طعمًا متفردًا بين أبناء جيله وتلامذته، فظل قطبًا لا ينفض عنه المريدون، ونجمًا في لقاءات المثقفين، مما دفع كامل هلال لأن يقول له ذات مرة ضاحكا:

- إذا خضت انتخابات الرئاسة القادمة، فلن أخشى أي منافس سواك!

وفي ذات السياق، لم يختلف رد فعل ليلى عامر، التي كانت تكرر له القول على مدار السنوات الماضية:

- إذا عدت إلى مصر ولم ألقك في إجازتي وأستمع إليك، فلا أعتبر نفسي أنني قد عدت لبلدنا بالفعل!..

رغم ما كان يشعه في محيطه من دفء وتفاؤل، فإن طارق جاد قد أخذ يعاني في السنوات الأخيرة، شعورًا داخليًا بالإحباط والسأم، سواء على المستوى الوطني أو على المستوى الشخصي.. كان ما يراه من جمود عهد مبارك ورتابة سياساته، وإغفاله أهمية التطوير والبحث العلمي، وانتشار مظاهر الفساد على كافة المستويات يؤلمه ويستنهض فيه تاريخه الثوري.. لكنه كان قد فقد جانبًا من حماسه، وغابت عنه أدواته، فيما عدا الكتابة أحيانًا في الصحف، منبهًا لخطورة تدهور الأوضاع ووجوب البدء في الإصلاح، ثم المشاركة في طرح ذات القضايا في اللقاءات التي يداوم على الدعوة إليها أو حضورها.. غير أنها كانت مبادرات ومشاركات لا تؤثر كثيرًا على الأوضاع التي رآها تنجرف شيئًا فشيئًا نحو المجهول، خاصة مع إرهاصات التوريث، وبروز بعض القوى الاحتجاجية الجديدة، التي تَشَكَّكَ في نضج خياراتها الفكرية والتنظيمية..

على المستوى الشخصي كان يتألم لما أصاب بعض أصدقائه القدامى من تبدل في الأفكار والسلوكيات.. صديق مثل كامل هلال الذي جاء من أقصى اليسار، أصبح في السنوات الأخيرة مدافعًا صلدًا عن النظام، فتوالت عليه المكافآت ليصبح، إضافة لعضوية أمانة الحزب الحاكم، رئيسًا لمجلس إدارة إحدى الشركات، يرفل في مظاهر الثروة والسلطة.. كذلك، فإن شكوكًا قد انتابته بشأن عدد من أصدقاء كامل القدامى الذين ظلوا في أحزاب المعارضة، فهم إن لم يكونوا متواطئين، فإنهم على الأقل مستفيدين من اللعبة السياسية العقيم، التي يرسم خطوطها حسب اعتقاده أمين الحزب الوطني.. كان لا يرى نفسه أيضًا في نجوم ومرتادي برامج الحوارات التليفزيونية الذين

يعـرف معظمهـم عن قـرب.. يرتـاب في نواياهـم ويراهم، رغـم أصواتهم العالية، لا يقلون فسادًا عمن يعارضونهم..

في الوقـت ذاتـه نظـر طـارق جـاد بقلـق لتنامي تأثـير جماعات الإسـلام السياسي، التي رآها المستفيد الأكبر من تخبط نظام مبارك وضيق أفقه والفساد الـذي تركه يسـتشري في البـلاد؛ لأنها تقـدم للناس مفهومًـا للدين والوطن مغايرًا للمفهوم الذي تبناه على مدى حياته كلها.. مفهومًا أكثر صرامة وأقل تسامحًا.. كان مقتنعًا أن مثل هذا المفهوم يتجاهل حقائق التاريخ التي لا تظهر نجاحًا طويلًا لأي مشروع قائم على دولة فاضلة طاهرة صارمة ومنغلقة على قيمهـا وذاتهـا.. كل التجارب من هذا النوع كان مصيرهـا- بعد فترة سـطوع قصـيرة الأمـد- الفشـل والاضمحلال.. حـاور أصدقاءه مـن المنتمين لهذه التيـارات مئـات المرات ولم تتزحـزح قناعاته التـي أحس بعد ثـورة يناير أن الواقع سيزيدها جلاءً وتأكيدًا..

في 25 يناير اهتزت مشاعره بقوة عندما شاهد في التليفزيون آلاف الشباب يتقدمـون بشـجاعة في مواجهة قوات الأمن، يُعبرون عـن الرغبة في التغيير، ويصوغـون أكثـر الأهـداف نبلًا، لتجسـد كل ما سـعى إلى تحقيقه على مدى أربعين سـنة.. كاد يقفز من سريره الذي لازمه منذ فترة بسـبب آلام العمود الفقري المزمنة، لينزل إلى الشـوارع، مشـاركًا في اللحظة النبيلة التي رأى أنها قـد لا تتكرر كثيرًا.. منعته شـقيقته الصغرى التي تقيـم معه من النزول أيامًا عديدة، لكنها لم تقدر عليه عندما أصر على أن يذهب إلى الجامعة؛ ليشارك في مسيرة أساتذتها المتجهة إلى ميدان التحرير بالأرواب الجامعية..

انتابه الشك في السر وراء الدعوة التي تلقاها من سعد رمضان لحضور اللقاء ببقية زملاء الحركة الطلابية للاحتفال بمرور أربعين سنة على أحداثها.. لقد تعرف إليه منذ كان طالبًا في كلية الطب، منضويًا تحت لواء الجماعة الإسلامية، ويدرك أنه قد صار الآن رجل أعمال مرموقًا، يساهم في ملكية العديد من المشروعات، ومن بينها فندق واحة الحنين مقر الاحتفال..

عندما سألته ليلى عامر:

- ماذا نفعل إزاء هذه الدعوة؟..

أجاب بعد تردد:

- ماذا سنخسر لو ذهبنا؟! على الأقل سنحظى بلقاء فريد من نوعه، نرى فيه بوضوح أثر الزمن على البشر في أشكالهم وجوهرهم.. أنا لا أكف عن الابتسام وأنا أتخيل ردود أفعالنا عند اللقاء بالزميلات والزملاء الذين لم نشاهدهم منذ ذلك الحين!.. أنا أتوق بشدة لخوض غمار مغامرة هذا اللقاء..

- توقع إذن أيها المغامر اللقاء بسناء طاحون ضمن المشاركين من الزملاء القدامى!

- لماذا بالذات سناء طاحون؟!.. بالتأكيد لن يشجعها زوجها السلفي على ذلك، خاصة أنها قد انتقبت!..

- هذا ما ستتبينه إن ذهبنا..

■■■

3

سنـــــاء طاحــون

تمتعت سناء طاحون بطفولة مستقرة في كنف والدها محمد طاحون الموظف الإداري بمرفق المياه ووالدتها عائشة علي سليمان ربة المنزل التي تنتمي بأصولها لمحافظة المنوفية.. كان الأب رجلًا محافظًا يحترم التقاليد البيروقراطية لوظيفته ويكرس وقته كله لعمله وعائلته.. أظهرت سناء تفوقًا مناسبًا في دراستها معتمدة على جهدها الذاتي، فنجحت في الالتحاق بالجامعة دون إرهاق مبالغ فيه لأسرتها..

نشأة سناء في شبرا بالقرب من جامع الخازندار، وموقف حافلات المنوفية، الشهير بمطار المنوفية، في وسط حضري شبه ريفي، جعلتها متأثرة بالمفاهيم الشعبية السائدة.. فجمعت البساطة والتلقائية جنبًا إلى جنب مع الحذر والتحفظ في مواجهة الغرباء الذين لا ينتمون لذات العائلة أو الحارة.. التعامل اليومي الكثيف مع الجيران والزملاء المسيحيين، رغم حسنه وسلاسته، ولّد لديها إحساسًا بأهمية الدين كمرجعية تميزها عن الآخر..

ربما شجع أيضًا على ذلك قربهم من الجامع، ومحافظة والدها وشقيقها على الصلاة فيه، وهو ما كانت هي ووالدتها تحرصان أيضًا عليه في كثير من الأحيان، خاصة في أيام الجمع وأمسيات شهر رمضان..

قبل التحاقها بالجامعة انجذبت عاطفيًّا لبعض زملائها في المرحلتين الإعدادية والثانوية، لكنها لم تسمح لنفسها بأكثر من النظرة والابتسامة، عدا مرة واحدة لم تستطع أن تكبح مشاعرها الجياشة تجاه زميلها علي ثروت، فاستجابت لإلحاحه والتقته عند كورنيش النيل.. كانت وجلة قلقة رغم سعادتها بالاستماع لكلماته اللطيفة، وهي تسير إلى جانبه تتلفت حولها خشية أن يراها أحد من معارفها.. عندما عادت إلى البيت انتابها إحساس شديد بالذنب، فقضت الليل تصلي وتستغفر لربها من تصرفها الخاطئ الذي لم تجرؤ على ذكره لأبويها أو تكراره مرة أخرى..

في الجامعة ركَّزت جهودها على دراستها الصعبة مع قليل من المشاركة في الأنشطة الطلابية، خاصة المسابقات الدينية التي كانت تنظمها بين الحين والآخر إدارة رعاية الطلاب.. واظبت على صلاة الظهر في مصلى الكلية الصغير، فتعرفت على زميلات محجبات، جاء معظمهن من المحافظات ويقمن في المدينة الجامعية بالجيزة.. ربطت بينهن ألفة، منبعها الشعور بكونهن أقلية وسط عشرات الزميلات القاهريات، بأزيائهن العصرية وتأنقهن المكلف والأقل حشمة..

رغم أنها لم تكن مهتمة من قبل بالأمور السياسية، فإنها وجدت نفسها تشارك بحماس في التجمعات الطلابية التي تشكَّلت تدريجيًّا في مطلع

عـام 1972، لتعـترض على سياسـات الرئيس السـادات.. تتذكـر أن بداية مشـاركتها كانـت عندما حضر شـقيقها الـذي يدرس في كليـة دار العلوم في المنـيرة إلى الحرم الجامعي مع بعض زملائه؛ للمشـاركة في هذه التجمعات.. التقته واسـتمعت لمحاوراتـه مع زملائه والطلاب الآخريـن، خاصة نقدهم للرئيس بسبب تقاعسه عن تطبيق الشريعة الإسلامية، إلى أن انتقلت عدوى الحـماس إليهـا، لتظهر منطقًـا مقنعًا وقدرة عـلى الحوار والخطابـة ميزتها عن شقيقها وباقي زملائه..

في تلـك الآونة تعرفت إلى طـارق جاد المعيد بكلية العلـوم الذي وجدته متزن السلوك دمث الخلق مهتمًا بمشاركتها في الحركة الطلابية، رغم اختلاف توجهاتهـا الفكرية.. عندمـا اعتقل الطلبة المعتصمـون في قاعة الاحتفالات الكـبرى بالجامعـة، اسـتجابت لنداء طارق بالمشـاركة في التظاهـر والخروج للتجمـع في ميـدان التحرير ضمن موجـات من طلاب جامعـة القاهرة، ثم انضم إليهم شـقيقها وزملاؤه وطلاب جامعة عين شمس وتلاميذ المدارس وتجمعات أخرى من المصريين..

انقطعـت صلتها بطارق جاد بتخرجها في كلية الحقوق وبَدْء تدريبها على مهنـة المحاماة، في انتظار تعيينها في إحـدى الجهات الحكومية إلى أن فوجئت بخطاب منه يخبرها فيه أنه سـافر في بعثة إلى فرنسـا وأنه يطلب موافقتها على الزواج منه واللحاق به إلى هناك.. انتابتها الحيرة في اتخاذ قرارها بالاسـتجابة لطلبه من عدمه.. أسعدتها فكرة السفر إلى فرنسا، وأن تتاح لها فرصة الزواج بشـاب له مسـتقبل جامعي متميز، لم تخف يومًا إعجابها بشـخصيته القيادية المتوازنة وقدرته المبهرة على حصد محبة واحترام معارفه.. لكنه يظل بالنسـبة

إليها غريبًا جاء من الصعيد لا تعرف شيئًا عن عائلته وأصوله، كما لم توافقه في بعض أفكاره التي رأتها أكثر مما يجب تحررًا وثورية وبُعدًا عن الالتزام الديني..

بسبب تدينها، اقتربت من بعض الجماعات ذات التوجه الديني التي كانت قد بدأت تتشكل في الجامعة في ذلك الحين، لكنها لم تنضم لأي منها، ربما بسبب أن كلية الحقوق على عكس الكليات العملية ظلت بمنأى عن وجود تنظيمات إسلامية قوية داخلها.. غير أن شقيقها «محمود» الذي سبقها إلى التخرج بعامين، كان بالفعل منضويًا تحت لواء جماعة سلفية يقودها والد أقرب أصدقائه، وهو تاجر غني في سوق السبتية.. لذلك بدا التوجه الديني الصريح لسناء ولشقيقها كأكبر أسباب التردد في قبول عرض الزواج الذي تقدم به طارق جاد..

غير أنه كان للتوقيت الذي وصل فيه خطاب طارق جاد، أكبر الفضل في تخفف سناء من تحفظاتها على الزواج من طارق، وإصرارها في مواجهة عائلتها على قبول عرض الزواج.. كانت سناء في الأساس تأمل في الزواج من ياسين الشهاوي صديق شقيقها، ابن تاجر السبتية الذي كان شابًّا هادئًا وودودًا، على الرغم من الوقار الذي تفرضه لحيته الطويلة التي يحرص على تهذيبها قدر استطاعته.. لكن عندما أبلغها شقيقها قبل أسابيع قليلة، أنه شهد لتوه عقد قران ياسين على فتاة من أقاربه، عانت سناء صدمة كبرى.. لم تصرح لأحد بشيء من مشاعرها.. لكنها قضت أيامًا وليالي تغالب الألم النفسي والمعاناة العاطفية، إلى أن وصل فجأة وعلى غير توقع، خطاب طارق جاد.. كانت بالتأكيد سترفض أو تتريث في قرارها بقبول عرض الزواج،

إذا كان ذلـك الخطاب قد أتى مبكرًا أو متأخرًا قليلًا.. لكن في ذلك التوقيت رأت سناء فيه نافذة للهروب من حالة إحباط لم تكابدها من قبل..

بعد تحفظ أولي من جانبه، اشـترط والدها لموافقته على الزواج، اسـتجابة لإلحاحها، مهرًا عاليًا وحضور أقارب طارق من الصعيد للتعارف والخطبة، ثم عودة طارق نفسـه من فرنسـا لعقـد القران واصطحاب عروسـه معه إلى هناك.. تمت الاسـتجابة لكافة هذه الطلبـات عدا الأخير، حيث أصر طارق عـلى عقد قرانه عن طريق توكيل رسـمي لأخيه، موثق من القنصلية المصرية في باريس، لعدم استطاعته العودة لمصر، تجنبًا لخرق شروط البعثة، وإن أكد في المقابل، أنه سيكون في انتظار عروسه في مطار «أورلي» في باريس، وبعدها سـيصحبها لمقـر إقامتـه في مدينة «ديجـون»، وهو تعهد لم يف بـه دون قصد، ممـا تسـبب في غرس أولى بـذور الشـقاق التي تراكمـت لتهـدم سريعًا ذلك الزواج.

تحدد لسـفر العروس يوم الثلاثين من نوفمـبر، غير أنها اضطرت لتأجيل سفرها قبل موعده بساعات قليلة، بسبب وفاة عمة لها.. عندما هاتفها طارق مذعورًا من باريس، بعد انتظار طال بلا جدوى في المطار، أبلغته سناء سبب التأخـير، فاتفقـا عـلى أن تحاول الحجـز في أقـرب موعد لاحـق، وأن تخطره تلغرافيًـا عـلى عنوان جامعتـه في ديجون، حتى يذهـب لانتظارها في المطار في الموعد الجديد..

وصلت برقية سـناء مساء الجمعة، حيث تبدأ عطلة نهاية الأسبوع وتغلق الجامعـة أبوابهـا ويغيـب طـارق عن الذهـاب إليهـا في اليومـين التاليين، ثم

وصلت سناء نفسها مرتدية ثوب العروس إلى مطار «أورلي» عصر الأحد، فلم تجد أحدًا يستقبلها أو يفهم لغتها العربية أو إنجليزيتها المتعسرة!.. بعد ساعات من السؤال والمعاناة والألم والخوف وفقدان الأمل في حضور طارق أو سماع صوته، خلال رقم الهاتف الذي أعطاه لها ولا يرد أحدٌ على رنينه، استجابت لنصيحة شاب مغربي، فهمت كلماته العربية بصعوبة، بأن لا حل أمامها سوى أن تستقل تاكسيًا، يأخذها حيث عنوان عريسها المدون في الورقة التي تمسكها بحرص بين أناملها.. اشترط سائق التاكسي الذي وافق على هذه المهمة خارج العاصمة أجرًا مغالًى فيه..

لما لم يكن أمامها أو أمام وسيطها المغربي بديل آخر، فقد وافقا، فتحرك بها التاكسي الباريسي صوب ديجون، على حين كان يتملكها الرعب من المجهول في هذه البلاد الغريبة، بصحبة سائق تاكسي لا تجيد لغته ولا يوحي لها مظهره بالاطمئنان.. ماذا لو أخذها السائق إلى مكان مهجور وحاول اغتصابها؟!.. كيف ستدافع عن نفسها في مواجهته إن فعل ذلك، وهو قوي البنية؟! وكيف سيكون مصيرها عندئذ؟! إذا لم يقتلها عقب الاغتصاب، فبالتأكيد ستقتل نفسها!.. لكن كيف سيعرف عريسها ما حدث لها؟ وماذا عن أهلها الذين يجهلون الآن كل شيء عنها؟!.. لماذا يتركها الله تواجه هذا المصير، وهي المؤمنة المخلصة المطيعة لكل ما أمر به سبحانه وتعالى؟!.. هل تستحق هذه النهاية في بلاد غريبة؟!.. تركت نفسها لهذيانها الداخلي المحموم، وقد غلبها التحفز الممزوج بالكآبة، ولم تتوقف عن ترديد كل ما تحفظه من أدعية وأوراد وأذكار وآيات للذكر الحكيم..

بعد سفر دام نحو أربع ساعات، وسؤال متواصل عن العنوان المسجل في الورقة التي تحملها سناء، استطاع السائق الوصول إليه.. غير أن باب المبنى كان مغلقًا، ولا أحد في أي من وحداته يرد على الجرس أو النداء الخارجي.. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، في طقس شديد البرودة وأمطار تتساقط بعنف بين الحين والآخر، وسناء تشعر بالتعاسة والرعب، ولديها رغبة محمومة في الذهاب إلى الحمام، ولكنها لا تعرف كيف تتصرف وكيف تعبر عن حاجتها لذلك السائق الذي أصابه التوتر والهياج بسبب المأزق الذي وجد نفسه فيه ولا يعرف كيف يتخلص منه..

تمخض تفكير السائق إلى التوقف أمام المقاهي والحانات القريبة للسؤال، لعل زوج الفتاة أو أحد معارفه بالمصادفة من مرتاديها.. بعد عدة محاولات لم تسفر عن نتيجة، وجد السائق أخيرًا في إحدى الحانات رجلًا قال عنه النادل إنه مصري.. كان نصف سكير حينما سألوه عما إذا كان يعرف طارق جاد، فأفاد بأنه زميله!.. أخذ السائق يشرح له منفعلًا حكاية العروس القابعة في التاكسي خارج الحانة، فأخذ الشاب المصري يفيق ويدرك جدية الأمر، خاصة وهو يعلم أن طارق كان في الأيام الأخيرة ينتظر حضور عروسه من مصر..

خرج مع السائق الذي عوَّل عليه ليرشده إلى مكان طارق أو ليتصرف في شأن العروس.. عندما صعد إلى التاكسي، اشتمت سناء رائحة الخمر الطاغية وكرهتها، لكنها كانت سعيدة أن تسمع لأول مرة منذ هبوط طائرتها في فرنسا، شخصًا يحدثها بلغة تفهمها ويعدها بأن يحملها إلى عريسها خلال دقائق.. عادوا إلى نفس البيت، ولأن «سمير» كان يعرف الرقم السري

للبوابـة الخارجية، فقد فتحها بيسر وصعد ليعود بعد بضع دقائق، وبصحبته طـارق الـذي كان لا يزال يفرك عينيه من نوم ثقيل، غير مصدق أن عروسـه أمامه، تنظر إليه في سخط وإحباط..

لحظة دخول سناء شقة طارق تغلب عليها شعور بالإحباط والندم.. كانت شقة أعزب يغلب عليها الفوضى والإهمال والبساطة الشديدة في الأثاث والتجهيزات.. طبيعة طارق الزاهدة والبسيطة انعكست بوضوح على حالة مسكنه.. إضافة إلى الإرهاق الشديد الذي كانت تعانيه ليلى، تغلب عليها النفور والوجل، لذلك لم تدخل غرفة النوم إلا بعدما ألزمت «طارق» بأن يقسم لها أنه لن يقترب منها حتى تستيقظ من نومها في الغد..

رغم محاولات طارق لإرضائها والاقتراب منها في الأيام التالية، بالحنان والمشاعر الفياضة، فإنها أدركت أن شيئًا ما داخلها قد انكسر ويصعب إصلاحه.. إضافة إلى تجربة السفر المريرة، والمصير الكئيب الذي انتهت إليه ليلة زفافها، فإنها كانت وجلة منذ صعد زميله سمير إلى التاكسي مخمورًا لا يستطيع تجميع كلماته.. سألت نفسها:

- لماذا لا يكون طارق قد أضحى على شاكلة هذا المخمور، فالغربة في هذه البلاد تشجع على الانفلات ونسيان تعاليم الدين؟!

حقًّا هي لم تجد في شقة طارق خمورًا أو ما يفيد بأنه يسلك سلوك سمير في ارتكاب المعصية، لكنها مع ذلك قلقت من كونه لا يواظب على الصلاة، ويكاد ينساها ما لم تُذكره بذلك.. كانت بساطة طارق في السلوك وعفويته في ردود أفعاله تخالف صورته المنطبعة في ذهنها منذ أيام الحركة الطلابية، كقائد

ومرشد قوي الشخصية مرهوب الجانب.. في الأيام التالية وهي مازالت على عذريتها، تلقت زيارات التهنئة من زملاء طارق وزوجاتهم، فأفزعها حديث الزوجات الذي وجدته تافهًا ومخالفًا لاهتماماتها.. وعدتها بعض الزوجات باصطحابها إلى الأسواق والمحلات الكبرى، على حين حرصت الأخريات على التلميح بالحذر من الباقيات والانضمام لهن وحدهن، إذا رغبت في قضاء أوقات تسلية طيبة أثناء انشغال الأزواج بالذهاب إلى المعامل أو المقاهي.. لم تجد بينهن محجبة ولم تشتم منهن أي اهتمام بالأمور الدينية، فزاد إحباطها وإحساسها بالوحدة في هذه البيئة الجديدة..

صدمتها حرية السلوك لدى الغربيين.. تُصادفُ في الشوارع أو في المراكز التجارية رجالًا ونساء يتبادلون القبلات الطويلة علنًا، دون أن يثير ذلك انزعاج أو اهتمام أحد.. الأزياء والملابس، خاصة مع دخول الربيع واقتراب الصيف، بدت أكثر تحررًا وابتعادًا عن كل مظاهر الحشمة.. أحست أن حجابها يلفت انتباه الآخرين ألف مرة أكثر من الملابس شبه العارية والسلوكيات المتحررة للأخريات.. أزعجتها نظرات حب الاستطلاع والاندهاش الموجهة نحوها.. تمنت أحيانًا لو بدت غير مرئية من الآخرين مختفية وسطهم.. لكنها لم تفكر لحظة واحدة في خلع الحجاب أو التحرر من قيوده، لقناعتها أنه فرض ديني.. لذلك كرهت النزول من شقتها ما لم تكن مضطرة.. ولم تُجد كل محاولات طارق التخفيف عنها أو إقناعها بالتكيف مع العادات السائدة وتجاهل ما لا يعجبها، كما تفعل بقية الزوجات المصريات..

استجابت تحت ضغط إلحاحه المتواصل لأن يذهبا لقضاء إجازة في الساحل اللازوردي على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، تعويضًا عن شهر العسل المجهض، والتماسًا لدفء الجنوب الذي انتابها الحنين إليه.. أثناء جولتهما السياحية التي استغرقت أسبوعًا في مطلع فصل الصيف، أقاما في أحد فنادق مدينة نيس، وزارا أيضًا مدن جراس وكان ومونت كارلو.. بهرتها طريقة إنتاج العطور التي شاهدت مراحلها المتعاقبة في معمل بمدينة جراس رتب طارق لزيارته.. وعندما زارا مدينة كان، سرَّتها الأماكن الجميلة والشوارع المتسعة على شاطئ البحر، والفنادق المبهرة المعمار في الكروازيت، كفندق الكارلتون وفندق المارتينيز.. وأُعجبت بالشوارع الضيقة الملتوية الصاعدة من البحر إلى الجبل في موناكو ومونت كارلو، وكذلك قصر الأمير وحدائقه الجميلة.. مرت أيام الإجازة يومًا بعد آخر وهي تحاول أن تستمتع بما تراه، إلى أن أخذها طارق لقضاء عصر اليوم الأخير على شاطئ نيس المسمى «نزهة الإنجليز».. عرض عليها شراء ملابس بحر لتنزل إلى البلاج كمئات الناس الذين افترشوا الرمال، لكنها استنكرت أن تلبس لباسًا يظهر ولو جانبًا يسيرًا من جسدها كما تفعل النساء الأخريات.. وافقت فقط على الجلوس على الشاطئ، ويا ليتها ما فعلت!..

بمجرد الاقتراب من تجمعات المصطافين التي تناثرت على طول البلاج، لم تصدق نفسها وهي ترى العشرات من النساء والبنات وقد اكتفين بالقطعة السفلية من المايوه لستر أجسادهن.. فركت عينيها ولم تصدق أنهن قد تركن نهودهن عارية حرة طليقة، يراها رجالهن وأطفالهن والنساء الأخريات والشباب الأغراب.. هل أصاب الخبل هؤلاء النسوة؟! ألم يكتفين بلباس

البحر الخليع الذي يظهر معظم أجسادهن؟! هل يصل الأمر إلى حد عدم ستر العورة؟!.. دون أن تتكلم، أدرك طارق حجم المأزق الذي انزلق إليه ولم يتوقعه، فأدار وجهه إلى الخلف وسار منكس الرأس إلى جانبها عائدًا إلى الفندق.. لم يتبادلا الحديث إلا في المساء.. عتبت عليه أنه فقد اتزانه لدرجة اصطحابها إلى شاطئ للعراة، فأقسم لها أن هذا المكان هو الشاطئ العام الأكثر شهرة في فرنسا، وأنه مختلف عن شواطئ العراة، التي يتعرى فيها الناس تمامًا، وأنه كان يجهل وجود ما شاهداه، لأن مزاج الناس في هذه البلاد متقلب ومتحرر في مسألة الملابس.. بعد أن كرر قسمه مرات، سَلمت أخيرًا بأنها تصدقه، لكن كان عليه أن يتحرى قبل أن يورطها في مشاهدة أمور مثل هذه مِن فعل الشيطان..

بعد عودتهما من تلك الزيارة بعدة أسابيع، واستجابة لإلحاح قرع جرس شديد، اضطرت لفتح باب شقتها في غياب زوجها، لتفاجأ بشاب وفتاة فرنسيين يلحان في طلب إذنها في الدخول، لشرح بعض الأمور التي لم تتبينها، وإن أحست أنها تتعلق بالدين أو العبادة، لكنها بإصرار رفضت دخولهما.. تركاها مبتسمين مع التأكيد بالإشارة إلى أنهما سيعودان ثانية.. بعد نحو ساعتين فوجئت بهما يدقان الجرس من جديد ويصحبتهما شاب آخر يتكلم العربية الفصحى بصعوبة.. قال لها إنهم من أتباع مذهب اسمه شهود يهوه، وإنهم يريدون شرح عقيدتهم لها.. أجابت باستنكار أنها مسلمة ولا نية لديها لتغيير دينها.. أفادها الشاب بعد حوار مع زميليه أنه لا يوجد تعارض بين مذهبهم والديانة الإسلامية، وأن الحوار سيساعدهم على التفاهم المشترك والتقريب بين الديانات، وأنها إذا وافقت على استمرار الحوار

معهم واستقبلتهم في منزلها، فسيساعدونها على اكتساب اللغة الفرنسية بسرعة، فضلًا عن معاونتها في تخطي أية صعوبات معيشية أو مادية.. أصابها الغضب، فأنهت اللقاء وأغلقت باب شقتها، ومشاعرها خليط من الدهشة والاستنكار..

عندما عاد زوجها في المساء شرحت له ما حدث، فأخذته نوبة قهقهة شديدة، قابلتها بنظرة غضب وتعجب.. تمالك نفسه ليشرح لها أنه قد سبق لهؤلاء المبشرين وزملاء لهم أن حضروا إليه من قبل عدة مرات، وأنه لم يجد غضاضة في محاورتهم، ويعتقد أنه كان قادرًا في كل مرة على أن يفحمهم بمنطقه السليم، مظهرًا سذاجة دعوتهم.. مع ذلك هم لا يكلون ولا يتعبون من اقتحام خصوصية الناس، رغم الاستهجان الذي يلاقونه، ليس فقط من أصحاب الديانات الأخرى، ولكن أيضًا من المسيحيين.. لم تُعقب، لكنها كظمت في داخلها المزيد من مشاعر النفور والعزلة..

أكثرت من العبادة وقراءة القرآن وكتابة الخطابات لأهلها تخفيفًا من الوحدة التي تشعر بها.. في وقت لاحق، وللقضاء على وقت الفراغ الطويل، أبدت اهتمامًا مبالغًا فيه بالطهي وإعداد أشهى الوجبات لزوجها.. لكن «طارق» لم يكن أكولًا ولم تحس أنه مهتم حقًّا بما تفعله، رغم كلمات المجاملة التي كان يبادر بها.. شعرت مرة واحدة باهتمام زوجها الكبير بمهارتها في هذا المجال، عندما استجابت على مضض لرغبته في أن يدعو عددًا من زملائه في الجامعة وزوجاتهم للعشاء.. كان سعيدًا وهو يسمع عبارات التقريظ الموجهة لها على الطعام الشهي، لكنها لم تكن نفسيًّا منسجمة مع هذا الجمع.. تجد نفسها غريبة عن صخبهم وأفكارهم.. احتفظت بابتسامة مجاملة على

شفتيها رغم قرارها بأن تكون تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي تتورط فيها في دعوة غرباء لشقتها..

لم تشك في أن «طارق» يحمل لها مشاعر طيبة، ويحاول فعلًا أن يسعدها وأن يخفف عنها ألم الغربة وأن يُنجح علاقتهما الزوجية، لكنها كانت غير قادرة على مجاراته في مشاعره الإيجابية.. لقد غلب عليها الشعور بأنها أخطأت في قبولها الزواج من إنسان لم تعرفه جيدًا، لا يشاركها مشاعرها الدينية الجارفة، ومقيم في بلد غريب، تشعر أنها محاصرة فيه بزيها وسلوكها وأفكارها.. رغم هذه المشاعر، أصرت على أن تقوم بواجباتها الزوجية على نحو مُرْضٍ، متحملة في صمت آلام صراعها الداخلي، إلى أن اضطرت لمصارحة شقيقها بما تعانيه ويعتمل داخلها، فنصحها بالعودة إلى مصر، لقضاء زيارة تريح فيها أعصابها المشدودة، وتعيد التفكير في وضعها ومستقبلها..

عندما رجت «طارق» أن يوافق على قضائها شهر رمضان في مصر، لم تكن تفكر حينئذ في عدم العودة أو السعي للطلاق.. غير أن تلك الفكرة غزتها تدريجيًّا بعد الرجوع لمصر والحوار مع أفراد عائلتها.. كان لصفية زوجة شقيقها الدور الأكبر في إقناعها بحسم أمرها والانفصال عن رجل بعيد عن الالتزام بتعاليم الدين.. صفية كانت نشطة في إطار الجماعة السلفية التي ينتمي إليها زوجها، ويتزعمها عمها أبوبكر الشهاوي.. بعد الطلاق من طارق بعدة شهور، كان لصفية أيضًا الدور الأكبر في ترتيب زواج سناء بابن عمها ياسين الشهاوي الذي سبق وتمنته زوجًا منذ نحو عامين، وها هي تدخل الآن في عصمته، لكن كزوجة ثانية..

لم تؤرقها كثيرًا فكرة أن تكون زوجة ثانية لياسين، فهي قد تمنته زوجًا، وها هي تحقق أمنيتها.. هو رجل متدين يعرف الله جيدًا يمكن أن تأتمنه على حياتها ومستقبلها؛ وإذا كان قد تزوج امرأة أخرى قبلها، فهي أيضًا قد تزوجت من رجل قبله، وجمعه بين زوجتين لا يخالف شرع الله.. ثم إنها قد حمدت الله كثيرًا أنها لم تنجب من «طارق جاد»، وإلا كانت قد صعبت من تمام مشروع زواجها الثاني..

لم تنس أبدًا أن «ياسين» قد جاءها منذ نحو سنتين، قبيل زواجها من طارق جاد، في الرؤية، مرتديًا جلبابه الأبيض، ممتطيًا فرسًا شاهق البياض، يشع النور من عينيه، ويعلو الحبور والطيبة محياه، وقد اكتست لحيته أيضًا بذات البياض الصافي.. غابت هذه الرؤية شهورًا، لكن سناء عادت تشتاق لها وتستجديها في ليالي الأرق في فرنسا.. عندما تصحو، كانت تجادل نفسها بأنه ربما كان الشيطان وراء ذلك، فتشرع في استغفار الله وترجوه أن يعفو عنها، فهي لم تكن أبدًا رؤية شهوانية، ولم تقصد منها الحلم برجل آخر خلاف زوجها، لكنه الخيال الجامح الذي يتملكها في هذه البلاد الغريبة ولا تقدر على صده.. والآن عاد من حقها أن تحلم صراحة بفارسها وتسترجع رؤيتها الملهمة في كل ليلة.. إنه زواج من تدبير الله سبحانه وتعالى وليس من تدبير البشر.. فالرؤية كانت إلهامًا مقدسًا ولم تكن عملًا من أعمال إبليس..

تميز احتفال الزواج بالبساطة والالتزام بالتعاليم الشرعية للفصل بين المدعوين القلائل من الرجال والنساء الذين توافدوا على بيت عائلتها.. هي في كل الأحوال لم تحضر أبرز حدث في هذا الاحتفال، وهو توقيع عقد الزواج الذي تم في المسجد القريب من بيتهم، بحضور الرجال وحدهم..

فقط جاءها عمها وخالها مع أبيها، للحصول على تأكيدها إنابتها للأخير في توقيع عقد الزواج..

على عكس البساطة الشديدة التي صدمتها عندما دخلت شقة طارق جاد في فرنسا، بهرتها مظاهر الثراء التي تجلت في الشقة التي خصصها الحاج أبو بكر الشهاوي للزوجة الثانية لابنه، وهي شقة تقع في العمارة الكبيرة التي تضمه هو وأفراد عائلته في شارع الترعة البولاقية.. كان الثراء العائلي باديًا منذ اللحظة التي دلفت فيها من الباب الرئيس لهذه العمارة.. فأرضية المدخل الرخامي الأخضر قد غطتها سجادة فاخرة ذات ألوان مبهجة، تقود إلى ثلاث درجات من الجرانيت الفيروزي توصل إلى المصعد الذي زينت حوائطه الداخلية بالسجاد الحريري الفاخر.. باب شقتها التي تقع في الطابق السادس المصنوع من خشب الأرو الكثيف، يقود إلى صالة واسعة، تضم عدة أطقم من الصالونات المذهبة، وتنتهي بباب أصغر، يفصلها عن جناح النوم الذي يضم أربع حجرات: ثلاث للنوم وواحدة للمعيشة.. تطل تلك الأخيرة على ممر قصير يقود إلى حجرة الخادمة والمطبخ الذي ينتهي بباب آخر ينفرج على ما يشبه المضيفة الكبيرة، لخدمة ضيوف رجل البيت، تحتوي على صالون عربي وقاعة طعام متسعة؛ ولهذه المضيفة باب خارجي ينفتح على السلم مباشرة، بحيث يتاح للضيوف الدخول والخروج منه، دون المرور ببقية شقتها..

كان الأثاث المنزلي والمفروشات الوثيرة لا تشي فقط بثراء مقتنيها، لكن أيضًا بذوق رفيع وبذخ راق لم تتوقعه من عريسها أو حماها، الحريصين على ارتداء الجلباب الأبيض القصير البسيط.. ما وجدته داخل الشقة والعمارة

كان نقيض ما كانت تشاهده في شارع الترعة، وما عايشته من قبل في حي شبرا..

تملكها الرضا عن حياتها الجديدة وأحست بالتآلف الروحي مع زوجها الجديد، بل إنها شعرت أنها تحبه حقًّا، وإن اكتفى بتخصيص ثلاث ليال في الأسبوع لها، بينما كان يقضي ثلاثًا أخرى مع زوجته الأولى في الطابق الثالث، ويصر على انفراده بنفسه الليلة السابعة في المضيفة التي تطل على سطح العمارة.. تدريجيًّا تآلفت أيضًا مع عائلته.. والده ووالدته وزوجتي أبيه الأخريين وأخواته البنات وضرتها نجوى التي وجدتها شابة طيبة في حالها تصب كل اهتمامها على رعاية طفلتها الصغيرة، رغم أنها مثقلة بحملها الجديد.. انتاب سناء الإحساس بأن نجوى لا تبدي الكثير من الاهتمام بزواج ياسين من امرأة أخرى، ربما لأنها كانت تتوقع ذلك، إن لم يكن اليوم فغدًا؛ فتعدد الزوجات أمر شائع في تاريخ عائلتهم..

على نهج والده لم يقتصر اهتمام ياسين على شئون التجارة العائلية المزدهرة، بل كرس وقتًا مهمًّا للدعوة الإسلامية وَفْقًا للرؤية السلفية.. فكان دائم السفر للمحافظات والبلاد العربية الأخرى، مستفيدًا من حفظه للقرآن وإجادته للغة العربية التي درسها في كلية دار العلوم، ليصبح بمرور الأيام أحد أقطاب المشايخ السلفيين الذين يحظون بأتباع يقدرون بعشرات وربما مئات الآلاف.. كانت الموائد لا تنقطع في بيتهم العامر لأصدقاء زوجها وللمهمين من مريديه وأتباعه، ومن ثم كانت المهمة الأبرز لسناء هي الإشراف على ذلك، فضلًا عن قيامها باستضافة ونصح الأخوات اللاتي تجذبهن الدعوة

السلفية، ثم الإشراف على النشاط الاجتماعي في الجمعية الخيرية التي أسسها حماها، لرعاية عائلات المحتاجين من الإخوة السلفيين..

أصبحت لا تخرج من بيتها إلا مرتدية النقاب الشرعي.. تتجه معظم زياراتها صوب المساجد التي يخطب فيها زوجها وغيره من مشايخ الدعوة السلفية.. كانت تفعل ذلك بصدق إيماني، مقتنعة بأنه لا جدوى من أن يرهق الناس أذهانهم بالأفكار الجديدة، فالقرآن والسنة كافيان لمواجهة كل مستجدات الحياة.. لماذا لا نحتمي بالموروث ونكبح في داخلنا نزعات التمرد والتجريب والاجتهاد.. شر الأمور مستحدثاتها، وكل بدعة ضلالة تُلقي بمبتدعيها في النار.. الفطرة السليمة تدعونا للإيمان واتباع سنن الأولين، والرضا بما كتبه الله لنا.. فلنُسلم له أنفسنا، فَنَسلم من شرور زمن الفتنة هذا، إنه يهدينا وأشرف المرسلين سواء السبيل.. ولنتبع سنة السلف الصالح ولنُقبل على الحياة برضا وإيمان، فيبارك الله في حياتنا وأولادنا وأموالنا.. كان يسعدها أن تجد المئات من الإخوة والأخوات المقتنعين بذلك يتبعون زوجها من مسجد لآخر، ومن محافظة لأخرى ليسمعوا خطبه ودروسه.. لم يشغلها حملها المتكرر أو رعاية أطفالها عن تطوير قدراتها الدعوية وسط الأخوات، مستلهمة خطى زوجها وأسلوبه المتمكن في الدعوة، حتى أصبح لها أنصارها ومريدوها، لكنها كانت تنكر تميزها وتصر على أن لا شيخ يجب أن يتبع سوى زوجها.. لقد أحبها ياسين كما أحبته، ولذا امتنع عن التفكير بالزواج من امرأة ثالثة، رغم العروض التي كانت تطارده من أصدقاء والده أو من بعض مريديه..

مع مرور السنوات ازدهرت تجارة زوجها وتعددت استثماراته داخل محافظات مصر المختلفة، بفضل إخلاص وتعاون محبيه ومريديه من السلفيين، فعم الخير على الجميع، في صورة فريدة من التضامن والنفع المتبادل بين شركاء الفكر الواحد.. وعلى نفس المنهج أصبح لزوجها في بلاد الخليج تجارة واستثمارات مشتركة مع السلفيين المنتشرين في تلك البلاد.. كبر أبناؤها الخمسة، فأصرت على أن يتلقوا تعليمًا متميزًا في مدارس خاصة، تقع تحت إشراف تربويين متدينين.. التحق «صديق» أكبرهم بكلية الطب، فشجعته على التفوق، وهيأت له ولزملائه جوًّا مناسبًا لمراجعة الدروس في شقتها، ودفعت بسخاء لمدرسين ومعيدين من الجامعة للحضور إليهم لإعادة الشرح مرارًا وتكرارًا..

اكتشفت أن من بين زملاء ابنها، نجلًا لليلى عامر، التي عاصرتها أثناء أحداث الحركة الطلابية عام 1972، والتقتها مرة أو مرتين في الفعاليات التي كان ينظمها طارق جاد.. لاحظت وهي تسهر على خدمة ابنها وزملائه مرتدية نقابها، أن فؤاد الشربيني نجل ليلى عامر شاب رقيق وخجول إلى حد بعيد، عرفت منه أنه يعيش وحيدًا بسبب ظروف عمل والده في السلك الدبلوماسي، فمنحته رعاية وحنانًا كواحد من أولادها تمامًا.. وعلى الرغم من أنها لم تتعمد أبدًا التأثير على قناعاته أو أفكاره، فإنها وجدته تدريجيًّا يلازم ابنها «صديق» في صلواته وتهجده ورواحه للمساجد، ثم لاحظت أنه يترك لحيته طليقة، وينطوي تدريجيًّا تحت عباءة الجماعة السلفية.. أضحت شديدة الإعجاب به وتمنته زوجًا لابنتها زينب، التي كادت تنهي دراسة الصيدلة، وها هو بالفعل يصارح «صديق» برغبته في خطبتها لكنه يتحسب من رد

فعل عائلته.. لذلك طلب يدها ورجا صديقه منحه بعض الوقت حتى يهيئ الظروف المناسبة لإقناع عائلته، تمهيدًا لإعلان خطبته، وهو ما ساندته سناء طاحون، متيقنة أنه في نهاية المطاف سيكون زوجًا صالحًا لابنتها..

عندما حدثها زوجها عن الدعوة التي تلقاها من سعد رمضان له ولها ولشقيقها لحضور لقاء تذكاري يجمع نشطاء الحركة الطلابية القديمة في فندق واحة الحنين الذي يملكه، فكرت أنها قد تكون فرصة آتية من السماء للّقاء مجددًا بليلى عامر والتمهيد لتهيئة الظروف لخطبة وزواج فؤاد من زينب.. غير أنها كانت قلقة من احتمال حضور طارق جاد اللقاء وما يترتب على ذلك من حرج للجميع؛ لذا ترددت في حسم أمرها من تلبية الدعوة، فاتفقت مع زوجها على تأجيل قرارهما حتى اللحظة الأخيرة..

كانت أكثر من غيرها معرفة بسعد رمضان، لأنه كان نشيطًا في الجماعة الإسلامية بكلية الطب، وكثيرًا ما جاء إليهم في كلية الحقوق ليلتقي الإخوة والأخوات المتدينين، وليؤم أحيانًا الصلاة في المسجد ويشارك في الدروس التي تعقب الصلاة.. كانت تراه من بعيد شابًّا جادًّا يغلب عليه الحياء.. كان يتولى مع آخرين تنظيم مشاركة الإسلاميين في فعاليات الحركة الطلابية، وكانت تلاحظ بوضوح أن زملاءه يستجيبون لتوجيهاته..

عرفت من بعض زميلاتها في الحقوق أنهن يجتمعن في شكل تنظيمي مع زملاء لهم من كليات مختلفة، وأن سعدًا من بين قادة الجماعة التي تضمهم.. كانت تُفَضله على رفاقه الآخرين من المنضوين تحت مظلة الجماعة، مثل عبدالعليم محمد ورأفت المحلاوي ويوسف سلطان الذين وجدتهم يتسمون

بالحدة والتجهم ويفتقدون القدرة على الحوار ويكتفون بترديد عبارات محفوظة لا يحيدون عنها.. لم تتحمس للانضمام لزميلاتها في تنظيمهن، وإن ظلت مواظبة على لقائهن أثناء الصلاة أو في بعض الندوات الدينية.. ذات مرة نقلت لها إحدى زميلاتها دعوة غير مباشرة من سعد للانضمام إليهم ودهشته من رؤيته لها وهي تشارك في الفعاليات التي ينظمها طارق جاد.. فقد تساءل ما الذي يجمعها وهي أخت ملتزمة بالنشطاء غير الإسلاميين؟!

لم تعقب؛ لأنها حتى ذلك الحين لم تكن راغبة في فقدان استقلالها والانضمام لأي تنظيم، رغم ارتباطها الفكري بالتوجه الإسلامي.. لاحقًا وجدت نفسها أميل للتيار السلفي الذي انطوى تحت لوائه شقيقها، فلم ترتح أبدًا للغموض الذي يغلف الجماعات الإسلامية التي لاحظت أنه سرعان ما اندمج معظمها في التنظيم السري للإخوان المسلمين، ومن بينها تلك الجماعة التي نشط فيها سعد رمضان..

4

سعـــد رمضـــان

نجح سعد رمضان بدبلوماسيته الفريدة في أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع الجميع، مكّنته من تحقيق نجاح مبهر في استثماراته المتنوعة.. لا ينكر أن هناك جانبًا وراثيًّا في هذا النجاح، حيث استلهم خطى والده الناجحة في عالم التجارة.. فسيرة عبد المؤمن رمضان، كأكبر تجار المنيفاتورة في الزقازيق، تجوب أسواق المحافظة كلها.. سمعة طيبة وتقوى ظاهرة والتزام صارم بالكلمة والعهد.. بدوره لا ينكر الحاج عبد المؤمن أنه قد تأثر في ذلك بالتجار الخواجات، الذين عمل معهم في صباه، واكتسب عاداتهم في حسن معاملة الزبائن والمرونة والصدق مع الموردين والدأب على العمل المنظم..

في مطلع شبابه التحق عبد المؤمن بشعبة الإخوان المسلمين في بندر الزقازيق، مستفيدًا من الدروس الدينية ومستمتعًا بالأنشطة الرياضية.. غير أن ضيق وقته جعل مساهمته في أعمال الجماعة محدودة، إلى أن توقفت نهائيًّا بعد قيام حكومة النقراشي بحل الجماعة، في أعقاب الكشف عن قضية عربة

الجيب.. لم يعاود عبد المؤمن الاتصال بالإخوان وإن استبقى تعاطفه المعنوي معهم، خاصة أثناء المحن التي تعرض لها بعضهم إبان حكم عبد الناصر.. كانت مساعداته لعائلات بعض المعتقلين منهم تصل بطريق غير مباشر، في ظل حرص شديد على ألا يعرف أحد مصدر هذه المساعدات، تحسبًا من تتبع رجال مخابرات ومباحث النظام المنتشرين في كل مكان..

اكتسب سعد العديد من خصال والده، خاصة الدأب على العمل وحسن التعامل مع الآخرين والتدين الصادق، غير أنه قد خطا خطوة إضافية بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين، عن طريق أحد معلميه في مدرسة الزقازيق الثانوية، وهو أمر أخفاه لسنوات عن والده وأصدقائه المقربين.. كان اسم هذا المعلم علي عبد المعز شاهين، وهو من أقدر أساتذة اللغة العربية بالمدرسة، وقد انجذب إليه سعد منذ أن تتلمذ على يديه في الصف الأول الثانوي..

بحجة تلقي درس خصوصي في اللغة العربية، داوم سعد على الذهاب إلى بيت المعلم الذي غرس في تلميذه أفكار الجماعة ومبادئها وتاريخ معاناتها منذ أنشأها حسن البنا في عام 1928.. والحقيقة أن المعلم لم يكن بحاجة لجهد كبير لجذب الفتى لتبني أفكاره والانضمام لتنظيمه، ثم الحرص منذ ذلك الحين على إخفاء هذا الأمر عن الآخرين؛ فقد كان ذلك كله منسجمًا إلى حد بعيد مع تكوينه النفسي واهتماماته.. ومنذ ذلك الوقت كرس سعد وقته، إضافة للمذاكرة، لقراءة وتبادل الكتب الدعوية التي أوصى بها المعلم، مع أشخاص تعرف عليهم في بيت الأخير، وذلك على خلاف معظم أبناء جيله الذين إما شدتهم سياسات عبد الناصر ومنظمة الشباب التي أنشأها،

أو انغمسوا في الاهتمام بكرة القدم ومبارياتها، أو المداومة على الذهاب إلى السينما والتواعد عصر كل يوم لتمشية بريئة على ضفتي «بحر مويس»..

عندما أنهى دراسته الثانوية والتحق بكلية الطب جامعة القاهرة، وضعته الجماعة في اتصال مباشر مع عدد محدود من أعضائها بالجامعة، غير أن لقاءاتهم ظلت حذرة ومتقطعة، إلى أن مات عبد الناصر وبدأ السادات سياسة منفتحة وودود تجاه الجماعة.. في البداية كلف بأن ينشط من خلال أسرة جامعية إسلامية، تبدو ظاهريًّا بعيدة عن تنظيم الإخوان، وإن التقت معهم في الفكر والتوجهات.. ثم تدريجيًّا وبفضل كياسته وقدراته التنظيمية العالية، احتل مكانة متميزة بين إخوانه، وحظي بتقدير متزايد لدى المسئولين الإداريين للجماعة في كل من الجامعة والجيزة.. ولشدة الحرص على سلامته وسرية دوره، تقرر ألا يعهد له بأي مركز قيادي رسمي في التنظيم، وألا يوضع في صدارة أي نشاط، وإنما يتواصل مباشرة وفي سرية تامة مع مسئول مهم في مكتب الإرشاد..

كان من اليسير في أوائل السبعينيات جذب أعداد كبيرة من الطلاب للالتحاق بالتنظيمات الإسلامية، بسبب الظروف المعيشية الصعبة، والإحباط من سياسات السادات المترددة، والسخط على الدولة الناصرية التي أورثت هزيمة 67 وضياع سيناء.. كان الرائج بين الناس تفسير الهزيمة والأحوال الرديئة على أنها النتيجة المنطقية للابتعاد عن الدين وتعاليمه.. في تلك الأيام لم يكن من الغريب بالنسبة لسعد أن يرى نفسه بين آلاف الشباب الذين يملئون ساحة مسجد «عين الحياة» والشوارع المحيطة به في حدائق القبة، يستمعون باهتمام لخطبة الجمعة للشيخ الضرير عبد الحميد كشك،

وهو يجاهر بالسخرية من مسئولي الدولة المدنية ورموزها الفنية والثقافية.. وبعدها سرعان ما تنتشر تسجيلات هذه الخطب، التي تصف المجتمع بأنه كافر ضعيف الإيمان في كل مكان: في البيوت ووسائل المواصلات والمحال التجارية..

الصعوبة الحقيقية التي واجهها سعد رمضان وغيره من كوادر الجماعة في الجامعة تمثلت في السيطرة على الخلايا الإسلامية الناشئة، كي لا يأخذها الحماس لتنحرف بعيدًا عن الإطار الفكري للجماعة.. كان هناك حماس طاغٍ نحو العودة للدين، لكن بقي التساؤل حول أي مفهوم للدين ينبغي العودة إليه؟!.. كثيرًا ما سمع سعد رمضان هذا التساؤل.. فقد طرحه عليه ذات مرة في نهاية السبعينيات، صديقه إبراهيم مروان الذي احتفظ له في قلبه بمعزة خاصة منذ التقاه في إحدى العطلات الصيفية في رأس البر.. سأله إبراهيم بنبرة حماسية، لم يتبين ما إذا كانت تعكس سخرية أم رغبة حقيقية في الحصول على إجابة:

- قل لي بصدق يا سعد، أنتم ترددون صباح مساء بأن لا مستقبل لمصر إلا بالرجوع للدين، لكن أي مفهوم سنتبناه لهذا الدين عندما نرجع إليه، بافتراض أننا حقًّا كما تدعون بعيدون الآن عنه: هل هو مفهوم أبو الأعلى المودودي الذي يرى أن الحاكمية لله وحده، وما استخلصه سيد قطب من ذلك بوجوب تكفير المجتمع المعاصر، لعدم تطبيقه النصوص وفق تفسيرها الظاهري، دون اعتداد بما اجتهد الناس في وضعه عبر القرون من قواعد وصيغ للعيش؟! أم هو مفهوم الأزهر الذي يقوم على وسطية رشيدة، تستفيد من تراث ضخم، فيه تنوع وثراء الاجتهاد الفقهي للعلماء والمذاهب،

وتحكمه قواعد أساسية مثل: «الدين يسر لا عسر» و«اختلاف علماء أمتي رحمة»؟!

- يا أخي إبراهيم ديننا واحد، وطبيعي أن يكون هناك اجتهاد في التفاسير، غير أن مرجعنا هو دائمًا القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة، وكتابات العلماء المخلصين مثل الإمام حسن البنا..

- أجب عن سؤالي ولا تراوغ يا صديقي.. فإذا لم تفعل، ولن تفعل! فأنا أستطيع أن أقرأ مفهومكم الغامض!.. أنتم وإن رأيتم أن الأزهر والدولة قد تقاعسا عن دورهما في السعي لتطبيق الشريعة والمساهمة في إعادة الخلافة الإسلامية التي تحنون إليها، فإنكم تتحفظون على المجاهرة بتكفير المجتمع أو الدعوة لمحاربته، لأنكم بذكائكم تعلمون أن مصير مثل هذه الدعوات الشاردة هو الفشل التام والاختفاء إن عاجلًا أو آجلًا..

لم يستمر سعد في المجادلة، ففي كل مرة عندما يأخذ الحوار مثل هذا المنحى كان يبتسم ابتسامة عريضة ويغير الموضوع، لاعتقاده أن حوارًا من هذا النوع سيقود إلى جدل غير منتج، فيه مضيعة للوقت وبُعدٌ عن العمل المفيد.. فقد كانت مهمته الأساسية وإخوانه في تلك المرحلة هي الولوج والسيطرة على أكبر عدد ممكن من الخلايا الإسلامية الشابة الجديدة، وتجنيبها الانحراف نحو الغلو والتشدد، ثم إلحاقها تدريجيًّا بالجماعة التي كانت في حاجة ماسة إليها، لبعث الروح فيها والتغلب على مظاهر الشيخوخة والعجز التي أصابتها، بسبب تعسف ومطاردات سنوات العهد الناصري.. نجحت إلى حد ما مهمتهم في جامعة القاهرة، لكنها فشلت نسبيًّا في جامعات ومعاهد

أخرى، فخرجت للوجود تنظيمات متشددة خاضت مواجهات مسلحة دامية مع نظامي السادات ومبارك..

لم يشعر في أي وقت أن تكوينه البدني الرقيق، من حيث ضعف البنية وضآلة الحجم وحاجته لارتداء نظارة طبية بشكل دائم، يمكن أن يعوقه عن بذل النشاط الجارف أو السعي لتبوء مركز القيادة في الدائرة التي تحيط به، ومع ذلك فإنه كان وسطيًا بطبعه، لا يميل للعنف ولا تجذبه دعوات الغلو.. كان مدفوعًا بصدق إيماني وإخلاص للجماعة التي انضم إليها، لكن دون التفريط في قيمه التي تربى عليها في بيت الحاج عبد المؤمن رمضان من اعتدال ومرونة، مضافًا إليها درجة عالية من الدهاء والمراوغة.. وهي مزايا أكسبته تقدير واحترام بعض القياديين في الجماعة الذين حرصوا على أن يحظى بمكانة خاصة، وإن ظل دائمًا خارج إطار بنيانها القيادي الرسمي..

حاول إبان أحداث الحركة الطلابية في أوائل عام 1972 أن يبحث عن دور له ولإخوانه في فعاليات الحركة الطلابية التي بدأت تجذب أعدادًا متزايدة من الطلاب، من الناشطين سياسيًّا ومن غير الناشطين.. ورغم إدراكه بأن التيارات القومية واليسارية كانت هي الأكثر نشاطًا وبروزًا، فإنه لم يتوان عن التفاعل مع قياداتها، وإظهار قدرته على دعمهم عند الحاجة بأعداد من الطلاب والطالبات، وتوفير بعض وسائل الإعاشة والدعم المادي.. وفي المقابل أظهر قدرة عالية على التفاوض والمساومة، لضمان بقاء التيار الإسلامي حاضرًا في شعارات الحركة وأهدافها، بدلًا من أن تستأثر بها التيارات الأخرى التي كانت الأكثر تواجدًا والأعلى ضجيجًا.. ولهذا نجح

في أن يكـون مؤثـرًا إلى حد مـا في توجهات الحركة الطلابيـة الأساسـية، رغم عدم انضمامه إلى اللجنة العليا للطلاب..

لم ينكر بينه وبين نفسه اهتمامه بسـناء طاحون، منذ شاهدها للمرة الأولى في مـدرج كلية الحقوق، تعـبر عن مطالب الحركة الطلابيـة باقتدار واتزان.. أسـعده للغايـة أن يجـد فيهـا طالبـة محجبـة ورصينـة وذات قـدرة عالية على الخطابـة وربـما الوعظ.. غـير أن حضورها في الأيام التاليـة إلى جانب طارق جاد، مُشَـارِكَةً في بعض النـدوات والفعاليات الطلابية أثار دهشـته، خاصة وأنـه عـرف من زميلاتهـا في كلية الحقـوق التزامهـا ومواظبتها عـلى الصلاة في المسـجد.. عاطفيًـا أحـس بميـل نحوها وتمنـى أن يجد فيهـا نصفه الآخر الـذي يبحـث عنه.. غير أن خجله قد حال بينه وبـين الاقتراب منها، كما أنها لم تسـتجب لرسـالته غير المباشرة التي حملتها إحدى زميلاتها، وظلت بعيدة عن الانضمام لمجموعتهم الإسلامية الوليدة، منصرفة للمشاركة في الفعاليات التي يقودها معيد العلوم طارق جاد.. تدريجيًّا صرف التفكير عنها، منشـغلًا بمهامه التنظيمية ودراسـته في كلية الطب، إلى أن تزوج بعد عدة سنوات من فادية عبد العاطي، كريمة أحد شيوخ الجماعة..

نجـح بدأبه على العمل وقدراته التنظيميـة العالية ودهائه الفطري، في أن يوفـق بـين الاتجاهـات المتعارضة لأصحـاب التوجه الإسـلامي، وأن يضم معظمهـم تدريجيًّا لجماعـة الإخوان المسـلمين، ليصبح لها التواجد السـياسي الأكثر أهمية في كلية طب القصر العيني.. ثم ركز جهوده على ضم أكبر عدد ممكن من الطلبة الآخرين للجماعة، من خلال ابتداع أنشـطة وفعاليات ذات طابـع اجتماعـي أو ثقافي أو خيري.. ومع زملائه مـن القياديين وبرعاية عدد

من أسـاتذة الكلية الذين لأول مرة بعد سـنين طويلة مـن الإخفاء أخذوا في الإفصاح بخجل عن انتمائهم لفكر الجماعة، نجح في تشكيل مجموعات عمل وأسر جامعية نشطة، لتدريب وتثقيف ورعاية الطالبات والطلاب المنضمين حديثًا..

كان العمل الذي يقوم به في كلية الطب محل تقدير كبير من أعضاء مكتب الإرشـاد ومن المرشد نفسـه، غير أنهم ألحوا عليه في توخي الحذر والبعد عن الظهور في الصورة، حتى لا يقع فريسـة لمطاردة محتملة من قبل مباحث أمن الدولـة.. لذلـك ابتعد تدريجيًّـا عن التواجد بشـخصه في الأنشـطة المختلفة واكتفـى برسـم السياسـات وتحريك الخيـوط من بعيـد.. ولتوفـير التمويل اللازم لنشـاط الجماعة ورعاية وجذب الطلاب المتعثرين ماديًّا، ابتدع أنشطة ذات طابـع تجـاري وروج لهـا بنجاح كأنشـطة خيريـة، فدرَّت أمـوالًا كثيرة تجـاوزت توقعات زملائـه وقياداته.. من هنـا كان بداية الـدور الكبير الذي لعبه في السـنوات اللاحقة للنهوض بالقـدرات المالية للجماعة، إضافة إلى ما كانـت تحصل عليه من اشـتراكات ودعم من أعضائهـا ومؤيديها، خاصة في دول الخليج..

ورغـم سـعة عائلته الماديـة، عـاش في القاهرة حيـاة تواضع وتقشـف.. قضى سـنواته الدراسـية الطويلة في المدينة الجامعية في بين السرايات، يكتفي بـما يقدمه المطعم الجامعي من وجبات، وقد يزيد عليها أحيانًا بسندوتشـات الجبنـة الرومـي وسندوتشـات العسـل بالزبدة مـن مطعم رضـوان القريب أو زجاجات حليب شركة مصر للألبان، التي تباع بقروش زهيدة في الكشك الملاصق لبوابـة المدينـة.. لم تجذبه السـينما ولم يرتـدْ في حياته المسـرح، وكان

يستغفر الله كثيرًا حينما يستثيره أحد زملائه بالحديث عن حفلات الموسيقى أو ملاهي شارع الهرم غير البعيدة.. كان لا شعوريًا يغض النظر عندما يشاهد الفتيات، خاصة إذا كن غير محجبات.. أكثر ما كان يؤلمه في تلك الفترة، هو رؤية رجال ونساء في أوضاع مخلة، خاصة عندما كان يذهب، وحيدًا أو بصحبة بعض زملائه، في عطلة نهاية الأسبوع لمراجعة دروسه في حديقة الأورمان القريبة.. كان يتألم ويغادر الحديقة فورًا إذا وقع بصره على رجل يقبل امرأة أو يتحسس جزءًا من جسدها.. كان يتمنى أن تكون لديه الجرأة، كما يفعل أحيانًا بعض زملائه، للاقتراب من هؤلاء المنحرفين لزجرهم أو نصحهم.. لكن ليس من طبيعته المواجهة، التي يتركها عادة للآخرين مكتفيًا بتوجيههم أو تحريكهم..

عندما أنهى دراسة الطب، تم تجنيده في الجيش ضمن سلاح الخدمات الطبية، فقضى معظم خدمته في مستشفى القصاصين العسكري.. كان يتألم لأوضاع جنود الوحدات المقاتلة الذين يحولون إلى المستشفى للعلاج.. بعضهم كان من مصابي حرب أكتوبر 73، خاصة ذوي الإصابات الخفيفة أو الذين يعانون الانعكاسات النفسية لفترة الحرب، والبعض الآخر كان يعاني أمراضًا عضوية حادة، لا تستطيع الوحدات الطبية الملحقة بالتشكيلات التعامل معها.. غير أن أكثر ما كان يؤلمه هو رؤية العدد الكبير من ضحايا حوادث الطرق الذين يفدون يوميًا إلى المستشفى.. كان قلبه يتمزق وهو يرى شبابًا غضًا يفقدون حياتهم يوميًا أو يصابون بإصابات بالغة دون ذنب، بسبب رعونة السائقين وعدم احترامهم لقواعد القيادة سواء في الطرق

الأسفلتية الضيقة المتردية أو في المدقات الصحراوية غير المجهزة.. ومما زاد الوضع سوءًا، غياب شبه كامل لمنظومة إسعاف طبي سريع..

في تلك الفترة كانت مناطق الإسماعيلية وأبو صوير والقرين والتل الكبير والقصاصين تعج بالتشكيلات العسكرية التابعة للجيش الثاني الميداني، خاصة بعد اتفاقية تخفيف القوات وعودة معظم الوحدات التي عبرت القناة في السادس من أكتوبر إلى غرب القناة.. ولخدمة هذه الأعداد الكبيرة من الجنود، ظهرت وانتعشت بعض الأسواق التي كانت تضم خليطًا من محال تجارية بسيطة ومقاهي ومطاعم وأكشاك لبيع الفاكهة والخضراوات.. كان سعد يذهب أحيانًا مع بعض زملائه في أوقات الراحة لسوق القصاصين يشتري ما يحتاجه من فاكهة أو مواد بقالة، ثم يجلس على مقهى متواضع بانتظار عودة بقية الزملاء..

في أول مرة ذهب فيها إلى السوق لفت انتباهه جاذبية وجمال بائعة فاكهة التف حولها الزبائن وراجت بضاعتها مقارنة بالآخرين.. كانت امرأة شابة في منتصف العشرينات، ملفوفة القوام، بيضاء البشرة، سوداء العينين، محمرة الوجنتين، لا تفارق الابتسامة وجهها، كاشفة عن معظم شعرها الأسود الفاحم والجزء الأعلى من صدرها وأسفل ساقيها، تدرك جمالها وتمارس دلالها على الزبائن الذين يبدو أنها تعرف معظمهم بالاسم.. كان مشهدًا مدهشًا ومثيرًا في وسط صحراء قاحلة، تخلو تقريبًا من النساء.. عرف سعيد من زملائه أن العديد من الجنود والضباط يأتون خصيصًا لهذا المكان، ليمتعوا نظرهم برؤية هذه المرأة الجميلة، كلما أرهقتهم الغربة وطاردهم الوجد.. سرت حول المرأة شائعات عديدة لم تتأكد صحة أي منها.. البعض يقول

إنهـا مُطلقـة، والبعض الآخر يؤكد أنها زوجة لسـجين من تجـار المخدرات، والبعض الثالث يقسم إنها أرملة تجري على رزق أيتامها.. هناك من يؤكد أنها امرأة شريفة، وإن كانت متحررة نسبيًّا في ملبسها، وهناك من يسرد حكايات لا تنقطع عن علاقاتها المتعددة بضباط وقادة وتجار كبار وشيوخ بدو، يحمونها ويمنعون أي تعدٍّ قد تتعرض له..

كانـت مشـاعره متناقضة، حيث حـاول دائمًا أن يغض نظـره عن رؤيتها ويبتعـد عـن الـشراء منها، لكـن مقاومته كانت تفشـل في بعـض الأحيان.. فوجـود امـرأة بهـذا الجمال وهـذه الحيويـة في الصحـراء المحيطة بـه أمر غير قابـل دائمًا للتجاهـل، رغم الدافع الأخلاقـي والإيماني القـوي الذي يهيمن عليه.. حاول أن يمتنع أصلًا عن النزول للسوق أو على الأقل أن يقلل عدد مـرات النـزول إليه، لكن المرأة لم تغـادر تفكيره.. كلما طالت بـه أيام الإقامة في المستشـفى، وضايقته أوامر ومتطلبات قادته، وأتعبته مآسي مرضاه، وجد نفسـه لا إراديًّا يسـتدعي صورة البائعة وابتسـامتها المشـعة أو يسـمح لنفسه بزيارة سريعة للسوق، مكتفيًا بمشاهدتها من على بعد..

فاجأه الرقيب أول محمود زين الذي يعمل في الشئون الإدارية بالمستشفى، وتربطه به علاقة ود، لكونه بلدياته من الزقازيق، بطلب الذهاب معه إلى بيت نـوال بائعة الفاكهة، لأنها تعـاني الحمى وارتفاع درجة الحـرارة منذ يومين.. تردد سـعد، لكنه لم يسـتطع رفض القيام بواجبه نحو علاج البائعة المسكينة، وإن أحـس برهبة خوض تجربة الاقتراب أكثر منها.. لم يفاجأ بتواضع المكان الـذي تقيم فيه، المبنى مـن أحجار جبلية بيضاء بسـيطة متراصة، والمعروش

بألـواح من الأبلكاش الخفيف، والمكون من صالة صغيرة وحجرة متواضعة بها كنبة كبيرة تستخدم كسرير..

كانت المرأة الشابة راقدة تكاد تكون غير قادرة على الكلام أو فتح عينيها، مفتقـدة كل وهجهـا وبريقها الذي كان يشـده كلما ذهب إلى السـوق.. وجد درجة حرارتها قد تجاوزت التاسعة والثلاثين، فطلب إحضار كمية من الثلج من أحد أكشـاك المثلجات القريبة، ودرَّب أمها التي كانت واقفة بالقرب من السرير، على عمل كمادات من الفوط المغمورة في المياه المثلجة، طالبًا منها أن تواصـل ذلك عـلى مدار السـاعات القادمة.. في نفس الوقـت كلف الرقيب محمـود بسرعـة جلـب دواء خافـض للحـرارة ومضـاد حيوي مـن صيدلية المستشفى العسـكري.. بقي إلى جوارها حتى صلاة العشاء، ثم غادرها وقد بـدأت درجة الحـرارة في الهبوط، وتقبلت لأول مرة شرب سـوائل العصير، على وعد بزيارتها في الغد..

ظهـر اليوم التالي لم يجد صعوبة في إقناع قائده بحجة مكنته من النزول إلى السوق ليعود مريضته، التي وجدها قد استردت جانبًا من بريقها وابتسامتها المشعة.. استقبلته بترحاب شديد وعبارات امتنان وشكر واعتذار عن تسببها في إرهاقـه بالحضور.. اطمأن على اسـتمرارها في تنـاول جرعات العلاج في مواعيدهـا وتأكد من مواصلة درجة الحـرارة الانخفاض لتقترب من معدلها الطبيعـي.. أصرت عـلى أن تقدم له بنفسـها طبقًا من الفاكهـة الطازجة وأن تسـامره في الحديـث.. عرف منها أنها تعيش هنا وحيـدة مع والدتها وطفلتها الصغـيرة، وأنهـا كانت متزوجة من عامل نقاشـة لكنه طلقها وسـافر ليعمل في الخليج.. كرسـت كل طاقتهـا لتجارتها المتواضعة لتكسـب قوت عائلتها

الصغيرة.. وفي كل يوم يتقدم للزواج منها رجال، بعضهم من التجار، وبعضهم من العسكريين، وبعضهم من المغامرين الذين يفدون إلى السوق.. لكنها ترفض أن تُخدع مرة ثانية، ولن تقبل إلا برجل مخلص وجاد في تكريس نفسه لحياته الزوجية ورعايتها وابنتها وأمها..

حاول أن ينأى بنظره عن رؤية تكوينات جسد المرأة الفائر الذي يقتحم دونًا عن إرادته وجدانه.. فكر في أن يشغل نفسه بسؤالها عن سبب حضورها إلى هذا المكان المقفر، وعمن يحميها من المخاطر التي تحيط بها.. ودَّ لو تشجع ونصحها بأن تكون أكثر حشمة في ملابسها، وأن تغطي كل جسمها وشعرها، وألا تتبسط في التعامل مع زبائنها.. لكنه كعادته افتقد شجاعة المواجهة، ولم يرغب في أن يربك المرأة المسكينة، والأهم من ذلك هو هاجسه الفطري الذي ينفره من أن يزج بنفسه في شئون الغير، خاصة إذا كانت امرأة مثلها.. فضل أن يسمعها دون أن يعلق، وألا يورط نفسه إيجابًا أو سلبًا في شئونها، وأن يبعد نفسه تمامًا عن عالمها، وينساها سريعًا ويزيحها من ذاكرته.. فهذا خير له ولها، فهما من عالمين مختلفين اجتماعيًّا وروحيًّا يصعب لقاؤهما..

غير أن صورة المرأة الجذابة ظلت تطارده أسابيع عديدة في منامه.. وبعد حيرة وتردد، خاطر بزيارتها، بحجة وداعها، لقرب انتهاء فترة خدمته العسكرية، فدعته للعشاء في بيتها في اليوم التالي.. لم يقبل ولم يرفض واكتفى بأن وعدها بمراجعة إمكانية خروجه من المستشفى.. بقي الليل بطوله يفكر فيها وفي مآل مغامرته معها.. كان محاصرًا بين أحاسيسه القوية كشاب عفي يعاني الحرمان العاطفي في مواجهة امرأة تبهره بجمالها الفطري، ومشاعره الدينية الغالبة التي تدعوه للاستقامة وتحذره من الاستسلام لغواية النساء..

تغلب عليه من جديد الوجل والتردد، فامتنع عن تلبية دعوتها، ولم يرها مرة أخرى، لكنها ظلت تشغل تفكيره، فلم يبرأ منها تمامًا إلا بعد زواجه من فادية عبد العاطي..

في مستشفى القصاصين العسكري الذي أُنشئ بعد حادثة طريق تعرض لها الملك فاروق في ذات الموقع، التقى سعد بمجموعة متميزة من الأطباء العسكريين ضباطًا ومجندين، واستمع بشغف لذكريات الحرب من زملائه الأقدم ومن الجنود المصابين؛ وهو ما كان يحرص عليه أيضًا عندما يلتقي صديقه إبراهيم مروان الذي سبقه للتخرج بعامين وشارك في الحرب كضابط احتياط.. في كل مرة، كانت تنتابه مشاعر وطنية ودينية جارفة، ويتمنى أن تنهض الأمة الإسلامية من كبوتها وتعود لرشدها ودينها، وتقترب من الله سبحانه وتعالى ليهديها سبيل الفلاح والنصر.. لقد نجح بحذر في أن ينقل مشاعره وأفكاره لزميل أو زميلين وثق فيهما، ومهد لضمهما للجماعة، مكتفيًا بهما، خشية توريط نفسه فيما لا يحمد عقباه أثناء فترة خدمته العسكرية.. حتى علاقته بالجماعة بقيت في حدودها الدنيا خلال تلك الفترة، باتفاق مسبق مع قيادته في مكتب الإرشاد..

رغم مرور عشرات السنوات منذ فترة الخدمة العسكرية في مستشفى القصاصين، فإن ذكرى الرائد وفقي الدمرداش ظلت تعاوده بين الحين والآخر.. لقد تعرف إليه عندما كان يحضر إلى المستشفى، لمتابعة علاجه النفسي من مرض الوسواس القهري الذي أصابه.. كان مهندسًا عسكريًّا من أسرة ميسورة الحال، اختار بعد تخرجه في كلية الهندسة الالتحاق بالجيش.. تزوج من فتاة تنتمي لعائلة مرموقة، وعاشا حياة هانئة مستقرة في

حي الزمالك، إلى أن نشبت حرب أكتوبر 1973 التي خاضها منذ الساعات الأولى..أصابته شظية في اليوم الثامن من القتال، فتم إخلاؤه إلى غرب القناة، ثم إلى مستشفى المعادي العسكري.. كانت إصابته غير خطيرة، فتعافى منها سريعًا، وخرج من المستشفى إلى بيته في إجازة نقاهة لمدة شهر..

لاحظت زوجته أن تغيرًا قد طرأ على سلوك زوجها الذي أخذ يحكي لها مطولًا عن أحداث وحكايات غير متسقة.. كما أنه كثيرًا ما كان يقطع فجأة حديثه ليخاطب طرفًا مجهولًا: أحيانًا يعاتبه، أحيانًا يسامره، وأحيانًا ثالثة يزجره.. كانت تصحو أحيانًا على صوته، وقد قام يصلي ويتهجد أثناء الليل بصوت مرتفع، لكنه في الصباح ينكر حدوث ذلك، ولا ينتظم في أداء صلوات النهار في مواعيدها..

في البداية، لم يستطع سعد رمضان مقاومة سحر شخصية وفقي الدمرداش: بساطته، تألق الابتسامة الطبيعية على شفتيه، وجهه الجذاب ذو الملامح الأوربية، ثقافته الموسوعية.. شك في أن وفقي يعاني أي مرض.. فهو فيما بدا له إنسان مثالي يتمنى أي واحد أن يجد نفسه على شاكلته.. غير أنه قد فوجئ بعد ساعتين من الحوار الممتع بينهما - قبل أن يأتي دور وفقي للدخول لعيادة أستاذ الطب النفسي الذي يزورهم مرة واحدة أسبوعيًّا ويستعين بسعد لمعاونته في تجهيز المرضى - بأن الضابط يهمس في أذنه بأنه قد اكتشف منذ أسبوع مؤامرة خطيرة ستغير وجه العالم ولا يرغب في الكشف عنها حاليًّا.. وقبل أن يسأله سعد عن هذه المبادرة، بادر وفقي للقول:

- ستكون أنت أول شخص سأفصح له عن خيوطها..

- لماذا لا تخبرني الآن؟

- لأني أخشى أن يجر ذلك عليك مخاطر فظيعة..

- ولماذا تتحمل وحدك يا افندم هذه المخاطر؟! أنا يمكن أن أساعدك على مواجهتها..

- لا أعتقد.. فمع وافر الاحترام لك يا دكتور أنت إيمانك ضعيف، ولا يقدر على ذلك إلا من يكون إيمانه غاية في القوة..

- من قال لك يا افندم إن إيماني ضعيف!.. أنا والحمد لله من ذوي الإيمان واليقين الراسخ..

- هذا أمر طيب.. لذلك سأكشف لك فقط عن أن هذه المؤامرة من تدبير الشيطان..

- كلنا يعلم أن إبليس وراء كل الذنوب والمعاصي والأفعال الذميمة..

- لا.. في هذه المرة الأمر أخطر بكثير.. إبليس يريد أن يقتل، ولا يكتفي بأن يوسوس فقط كالمرات السابقة..

- يقتل من؟!

- الله..

- استغفر الله العظيم يا افندم.. الله حي قيوم.. الله الصمد.. الله لم يلد ولم يولد.. الله لا يموت..

- هذا صحيح، ولذلك أنا أتصدى بمشيئة الله للملعون إبليس لأجهض مؤامرته، قبل أن يسعى إلى تنفيذها.. وسأتمكن إن شاء الله من القضاء تمامًا عليه.. هل تثق فيَ يا دكتور أم لا؟!

- بالطبع أثق فيك يا افندم.. لكن المؤامرة التي خطرت على بالك مؤامرة مستحيلة فلا تقلق بشأنها..

- مـا لا تعلمه يا دكتور أنني أسـجل لإبليـس كل ما يقوله ويفعله وحتى ما يدور بخاطره، وقد تجمعت تحت يدي كل خيوط المؤامرة، ولحظة المواجهة قريبة إن شاء الله وسأجعلك تشهدها بأم عينيك!..

لأيـام طويلة، لم يسـتطع أن يبعد عن تفكيره مشـهد وفقي وهو يهمس له بسره الدفين.. لقد أحس بتعاطف إنساني شديد مع الضابط المهندس في محنته النفسـية، مدركًا أن خروجه من مأزقه قد يسـتغرق وقتًا طويلًا، وقد لا ينجو منها.. تسـاءل مندهشًا عن الخيط الواهن الذي يحفظ للإنسان توازنه الهش، عندما يتعرض لحدث كبير أو محنة عميقة كالحرب أو الفشل أو فقدان عزيز.. أحس أن اليقين نعمة كبيرة، لكنه عرضة للمتغيرات والمؤثرات المفاجئة التي قـد تعصف به فجأة، سـواء في ظل وعـي إرادي أو عندما يغيب ذلك الوعي ويسـقط الإنسـان في فخ الشـك الذي قد يقترب به من الجنون.. غلبه التأمل فهمس لنفسه بقلق:

- هـل حقًـا يمكـن للمؤمـن أن يفقـد في لحظـة مـا، ولسـبب أيـًّـا كان، إيمانـه ويقينه؟! وهل سيحاسـب يوم القيامة إذا جاء ذلـك غصبًا عن إرادته الواعيـة؟! ولكـن ما هـي الإرادة الواعية؟! وكيف نفرق بينهـا وبين الإرادة غير الواعية؟!

لم يسـتمر قلقه الفكري طويلًا، فقد تغلبت عليه طبيعته العملية، واكتفى في الأسابيع التالية بأن يستمع لأحاديث وفقي من باب التعاطف والمجاملة،

دون أن يجادلـه أبـدًا فيما يقول.. غير أن هذه التجربة قـد قادته لبلورة منهجه المتميـز عن زملائه في حوارهم مع غير أعضاء الجماعة.. لم يعد يشـغل نفسـه بالدعـوة أو الوعـظ أو الـرد عـلى الآراء المخالفـة.. لقد تحرر مـن كلِّ ذلك، وأصبحت ابتسامة محايدة تكفيه ليتفرغ لما هو أجدى وأنفع..

فـور انتهاء فـترة خدمته العسـكرية، عـاد إلى الزقازيق طبيبًا بالمستشـفى العام، شـاغلًا نفسه بدراسـته التخصصية في طب العيون وبالزواج من فادية عبدالعاطي التي كانت قد حصلت لتوها على بكالوريوس التجارة من جامعة الإسـكندرية.. كانت فادية المنتمية لأسرة إخوانية ميسـورة الحال، فتاة أنيقة وطموحًـا، فيهـا من الالتزام بقدر ما فيها من التمـرد على القيود.. كانت هي التي شجعته بل دفعته بعد نحو عشر سنوات للذهاب إلى الولايات المتحدة، لاستكمال دراسته العليا والحصول على البورد الأمريكي في طب العيون..

في البداية شكَّلَ التعامل مع فادية معضلة له، فهي تبهره بذكائها وثقافتها، لكنهـا تخيفه بجرأتها وتحررها.. هي حقًّا ابنة قيادة إخوانية، لكنها في الأعماق والنشـأة والسـلوك ابنة الإسـكندرية، عروس البحر المتوسـط التي مازالت تحتفـظ ببقايا مـن تقاليدهـا الكوزموبوليتانيـة، نتاج الاحتـكاك الطويل بين المصريين والأجانب.. هو رغم تفتحه الذهني النسبي، كان لايزال في البداية مشـدودًا بروابطـه الريفيـة وأفـكاره الدينية التـي لا تخلو من تزمـت.. أخذ تدريجيًّا عبر السـنوات اللاحقة، في التحرر منها ليميز- ربما عن بصيرة وربما بتأثـير زوجته وتجربته الحياتية في أمريكا- بين جوهر العقيدة والشـكل الذي يحيـط بهـا.. لقد اسـتطاعت فادية أن تفـك قيوده، وأن تشـجعه على انطلاقة تتوافق مع تكوينه الدفين، دون أن يشعر أنه يخالف عهوده والتزاماته.. وجد

لديها ولدى عائلتها فهمًا للجماعة، أرحب وأشمل مما درج عليه بقية الإخوة.. كانت الغايات في الصدارة، ولتحقيقها كان يلزم القفز على الصعاب والتحرر من التقاليد والتفاسير المقيدة والمتزمتة.. كانت فادية مرشدته للطريق الذي كان من قبل يبصره داخله ولا يتمكن من البوح به أو السير عليه..

لم يكد يمر عام على زواجهما، حتى أقنعته بترك الزقازيق والإقامة في الإسكندرية.. طلب إجازة بدون مرتب من وزارة الصحة، وركَّز جهوده على توسعة استثمارات العائلة خارج نطاق محافظة الشرقية.. أقنعه حماه بشراء مساحات كبيرة من الأراضي في منطقة سموحة وتخصيصها للاستثمار العقاري.. لم تكن الجماعة غائبة عن هذه الصفقة، حيث شارك حماه بنسبة 20٪ من رأس المال المطلوب من ماله الحر، وساهم بنسبة 30٪ من أموال الجماعة، ووفر سعيد النصف الباقي من أموال عائلته.. على مدار السنوات التالية تم تدريجيًّا تقسيم الأراضي إلى شوارع وتشييد عشرات العمارات وبناء مدرسة خاصة وعيادات طبية ومستشفى وأسواق تجارية.. ومع انتعاش الأحوال الاقتصادية، والارتفاع المتواصل في أسعار الوحدات السكنية في الثغر، وتبني أساليب الترويج النشيط في وسائل الإعلام، وجذب اهتمام أعضاء النقابات المهنية، خاصة نقابة الأطباء، بفضل علاقات سعد المتعددة، درَّ هذا المشروع ملايين الجنيهات..

عندما بادر لعرض تسديد أول دفعة من أرباح الجماعة، طلب منه حماه التريث وإعادة استثمار هذه الأموال بمعرفته في الفرص الاستثمارية التي يراها ملائمة، سواء في هذا المشروع أو في غيره، ثم رتب له لقاء مع مرشد الجماعة الجديد الذي أعاد سعيد في حضوره يمين الطاعة والولاء.. باركه

المرشد وأكد له ثقة الجماعة المطلقة في إخلاصه وأمانته، وأن الله سيبارك له في ماله على نحو يتجاوز أفضل توقعاته.. عقَّب سعد بإخلاص:

- أنا وكل ما عندي ملك للجماعة وأرجو أن أسدد لها ما أدين به..

- أنت أخونا المخلص الأمين وكلنا ثقة في حسن تدبيرك، وما عندك يزيد ولا ينقص..

- لكنني في حرج يا فضيلة المرشد لاختلاط مالي بمال الجماعة نتيجة عمليات إعادة الاستثمار المتتابعة، ولذلك أرجو أن أُيسر الأمر على نفسي وتوافقون فضيلتكم على طريقة حساب بسيطة، ترضي الله وترضيني وتضمن للإخوة حقوقهم، وسيبارك الله في أموال الجميع..

- ماذا تقترح يا دكتور؟

- نصف أرباحي تكون ملك الجماعة، وهي دين في عنقي أسدده في المنافذ الشرعية التي توجهون بها فضيلتكم..

- لا.. النصف كثير يا دكتور.. يكفينا ثلث الأرباح الصافية وستكون أكثر من وفيرة إن شاء الله.. ولا تشغل بالك بكيفية التصرف في نصيبنا.. سيتولى والد قرينتكم أخونا الفاضل الحاج عبد العاطي الحصول منكم أولًا بأول على ما قد يلزمنا وتدبير طريقة التصرف فيه، وإن كنت أفضل أن نترك كل ما عندك للاستثمار، ليبارك الله فيه ويزيد، لنحتاط به لمواجهة تصاريف المستقبل.. ونحن نستطيع بمشيئة الله تدبير مصاريفنا الواجبة حالًا من مصادرنا الأخرى..

- بارك الله في فضيلتكم وسيعيننا الله سبحانه وتعالى على تنفيذ ما وجهتمونا إليه بكل تفان وإخلاص..

- ثقتنا فيكم كبيرة يا دكتور، لكن خذ حذرك.. لابد من أن تخفي تمامًا علاقتك المالية بالجماعة، بل عليك أن تستمر في الابتعاد عن الأنشطة الإدارية واللقاءات التنظيمية، وفي ذات الوقت وطد كلما استطعت لذلك سبيلًا صلاتك برجال الحكم والإدارة المحلية، لإبعاد الشبهات وبناء الثقة وتقليل المخاطر..

- توجيهات فضيلتكم ستُراعى بكل حذافيرها بإذن الله..

على مدى الأيام، اكتسب سعد سمعة طيبة متنامية في قطاعي الأعمال والعقارات، ليس في الزقازيق والإسكندرية فحسب، بل وأيضا في القاهرة، التي جذبته ليبدأ فيها سلسلة من المشروعات التجارية بأمواله وأموال الجماعة.. غير أن فادية كانت تضغط عليه ليعود لممارسة مهنة الطب وألا يتحول لمجرد تاجر فقط.. لا يعرف كيف حصلت على معلومات عن الدراسات العليا في طب العيون ونجحت في إقناعه بالتسجيل لامتحان البورد الأمريكي.. ثم حفزته ليسافرا إلى أمريكا ومعهما أولادهما للحصول على هذه الشهادة..

في الأعوام الأربعة التي قضاها في أمريكا، لم ينصرف فقط لدراسته الطبية، وإنما كرَّس معظم وقته وجهده لاكتساب مهارات تجارية وعقد صفقات في مجال الأعمال، مستغلًّا خبرته السابقة، وعلاقات «حماه» بأمريكيين من أصول مصرية وعربية، مرتبطين على نحو أو آخر بجماعة الإخوان المسلمين.. لقد

عـاد من أمريـكا ليس فقط بالبورد في طب العيون، ولكن ربما أهم من ذلك، بخـبرة معمقة وعصرية في مجـال الأعمال، وروح اسـتثمارية وثابة، ومجموعة متنوعة من التوكيلات لشركات كبرى في مجالات الأغذية والترفيه والفندقة والتسويق التجاري والعقاري وتكنولوجيا المعلومات..

أثنـاء إقامته في نيويورك حيث كان يدرس، وثَّق علاقته بالقنصل المصري ورجـال القنصلية، وتعرَّف إلى كبـار أفراد الجالية المصرية فيها وفي نيوجرسي من مسـلمين وأقباط، ولم يتوان عن حضور المناسبات الاجتماعية والوطنية المختلفـة، دون أن يعـرف أحـد شيئًا عن انتمائـه للجماعة.. قبل أسـبوع من عودتـه أقـام له القنصل حفل وداع، فوجىء خلالـه برؤية كامل هلال الذى كان في زيارة سريعة للمدينة..

ورغـم أن وجـود كامل أربكـه إلى حد ما - خاصة أنـه لم يكن قد رآه منذ أحـداث الحركـة الطلابيـة في عـام 1972، وإن تابع بعض الأخبـار عنه من وقـت لآخر- فإنه تقدم منه مرحبًا وابتسـامة عريضة ارتسـمت على وجهه، معبرًا عن اندهاشه لرؤيته:

- منذ متى وأنت هنا؟

- منـذ يومين فقـط.. عندما علمت من سـعادة القنصـل بحفلك تركت ارتباطاتي وحضرت..

- هذا هو العشم من زميل كفاح أيام الشباب..

- هل ما زلت تتذكر تلك الأيام أم شغلتك الجماعة؟!

- أيـة جماعـة؟!.. أنت لا تتغير أبدًا.. تبدأ دائـمًا بالهجوم والاتهام.. أم أن تلك من خصائصكم أهل اليسار؟!

- ماذا لديك ضد أهل اليسار؟!

- لاشيء.. هم أفضل الناس..

- مـاذا تنـوي بعـد العـودة لمـصر.. هل سـتفتح عيـادة في القاهـرة أم في الزقازيق؟

- قد لا أفعل هذا ولا ذاك!..

- وماذا ستفعل إذن؟!

- قد أحاول التوسع في أعمال الأسرة التجارية والاستثمارية..

- لم يخب ظنـي في ذكائك!.. أنت تعـرف أنني الآن رئيـس مجلس إدارة إحـدى شركات القطاع العام.. بالتأكيد سيكون بيننـا صفقات كثيرة عندما تعود!

- هذا ما سأحرص عليه إن شاء الله..

بعد عودته من أمريكا ركز سـعد جهوده في مجال الاسـتثمار.. بدأ في إقامة سلسـلة من الـشركات ونشر فروعها في المحافظـات المختلفة، وافتتاح منافذ للتوكيـلات الجديـدة التي حصل عليها لكبرى الـشركات الأمريكية.. وطد علاقته بكثير من الشـخصيات القريبة من دوائر الحكم، وحاول قدر إمكانه ولكـن بطريقة حريصة أن يسـتفيد من نفوذها وعلاقاتهـا، في تخطي العوائق البيروقراطية التي تواجه مشـاريعه وقد تخنقها، سـواء عند السعي للحصول

على التراخيص والموافقات أو عند تخصيص الأراضي اللازمة لها.. في كل ذلك حقق نجاحًا مبهرًا، ليس فقط بأن رسَّخ وجود هذه المشروعات، ولكن أيضًا بأن أخفى كل صلة لها بالجماعة.. لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه بعض إخوانه من رجال الأعمال عندما قصروا التعيين في شركاتهم على المنضوين للجماعة أو أبنائهم، أو عندما فرضوا مسحة دينية على هذه الشركات، مثل التوقف عن العمل في مواقيت الصلاة وإذاعة الآذان بمكبرات صوت داخلية، أو عندما استضافوا أقطاب الجماعة للوعظ والإرشاد بين العاملين..

قرر بوعي براجماتي ودهاء استراتيجي أن يجعل شركاته مماثلة تمامًا لباقي المشروعات، كي لا يشك أحد في صلتها بأموال الجماعة أو بأقطابها.. كان يوظف الأكفأ دون تمييز، ويتعامل مع البنوك كافة دون تفرقة بين بنوك إسلامية أو ربوية، كما يسميها بعض أصدقائه في الجماعة، وكان يستخدم وسائل الدعاية والإعلان كافة، بما في ذلك الدعاية التلفزيونية، التي يراها أنصار الجماعة خارجة عن قواعد اللياقة والحشمة.. بل شارك بعض رجال الأعمال المحسوبين على الحزب الوطني في إنشاء شركات جديدة مربحة، عندما تعذر عليه القيام بذلك وحده بعيدًا عنهم..

كان يعلم أن رجال مباحث أمن الدولة وقسم رجال الأعمال في المخابرات العامة يراقبون نشاطه الاستثماري عن قرب.. كانوا يعرفون عنه تدينه، ويعرفون صلة «حماه» القوية بقيادات الجماعة، ويشكون في تعاطفه مع الإخوان المسلمين.. غير أنهم كانوا يفتقدون أي دليل على انضمامه بالفعل لهذه الجماعة، كما كانوا يجهلون، وهذا هو الأهم، وجود صلة لاستثماراته بأموال الجماعة من قريب أو بعيد.. لم يذهب منذ عودته من أمريكا –ولو مرة

واحـدة- لمقار الجماعة، ولم يشـارك في اجتماعاتها، ولم يلتق بـأي من قياداتها، غـير بضع مـرات في منـزل «حماه»، وبعـد اتخاذ إجـراءات احترازية شـديدة لضمان السرية..

نجاح اسـتثماراته وتوسعها جعله شـخصية مرموقة في دنيا الأعمال، فبدأ اسـمه يتردد في وسائل الإعلام، ووجد نفسـه ضمن قيادات جمعيات رجال الأعـمال، كما بدأت إحدى شركاته في تنظيم أكبر المعارض السـنوية في مصر والخليـج التي تروج للـشركات المتخصصة في مجالات العقارات والسـياحة والأجهـزة الإلكترونيـة وإلسـيارات والأزيـاء.. عزم عـلى أن يوظف دهاءه الفطـري وقدراتـه التنظيمية في دنيا الأعـمال بعيدًا عن دهاليز السياسـة التي اكتشـف مع تـوالي الأيام أنها لا تسـتهويه.. ظـل على ولائه لجماعتـه، مخلصًا لأهدافها، ومنميًا لقدراتها المالية، لكنه أبعد نفسه تمامًا عن معاركها التكتيكية ومهامها الدعوية..

مـن بين المشروعات الأثيرة عنده، مبادرته لإنشـاء فنـدق متميز في واحة كانت شـبه مهملة، رغم اكتشـاف بقايا معبد روماني فيها، تقع غير بعيدة عن الواحـات البحْريـة.. قابـل معاونوه والخـبراء الذين تمت استشـارتهم فكرة إنشـاء فندق في هذا المكان القفر بالريبة وعدم التشـجيع.. لكنه أحب المكان منذ ذهب إليه للمرة الأولى، وأدرك بحسـه الاسـتثماري أن سياحة الصحراء سـيكون لها مسـتقبل، وأن بنـاء الفندق في هـذا المكان سـيجذب العديد من السـياح الأجانب والمحليين.. أكدت الأيام صدق حدسـه وصواب فكرته، فحظـي فندقه، الذي أسـماه فندق واحة الحنين، بـرواد زاد عددهم يومًا بعد آخـر.. ليس هذا فحسـب، بـل إنه قد أضحـى المكان المفضل لعقـد لقاءات

ضمت قيادات الجماعة، خاصة مع إخوانهم في الدول العربية والأجنبية بعيدًا عن عيون المباحث والمخابرات..

عندما وقعت أحداث الثورة الشعبية في يناير 2011 وانهار جهاز أمن الدولة، وجد تكليفات جديدة له من مكتب الإرشاد بالمساندة الصريحة لدور الجماعة المتنامي في شئون المجتمع.. لم يقتصر الأمر على توفير التمويل المطلوب، بل تم لأول مرة -بضغط من قيادات الجماعة، وعلى خلاف مشورته- إصباغ شركاته تدريجيًّا بالصبغة الإسلامية، وتعيين أعداد كبيرة من شباب أعضاء الجماعة فيها.. ولأول مرة جرى الإفصاح علنًا عن مكانته كأحد قيادات الجماعة التي يشار لها بالبنان، وكلف بالتحاور مع باقي رجال الأعمال لوضع تصور عن مستقبل مصر الاقتصادي بعد الثورة..

لم يشغل نفسه كثيرًا بالتطورات السياسية في المرحلة الانتقالية التي أعقبت الثورة، تاركًا ذلك لزملائه السياسيين والقانونيين من قيادات الجماعة، وانصرف بكامل طاقته لعقد لقاءات مع الخبراء ورجال الأعمال داخل مصر وخارجها، لإعداد الرؤية الاقتصادية للجماعة والحزب الذي كونته، لترويجها في حملات الانتخابات البرلمانية والرئاسية القادمة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، مما قربه بشدة من قيادات مكتب الإرشاد، رغم حذر بعضهم منه بسبب نزوعه الملحوظ للابتعاد عن الأطر التنظيمية للجماعة وفعاليتها الجماهيرية والاجتماعية..

سأله إبراهيم مروان عندما تلقى دعوته لحضور لقاء قيادات الحركة الطلابية التذكاري في فندق واحة الحنين:

- هل دعوت لهذا اللقاء كجزء من مخطط التمكين، أم تمهيدًا لترشحك لرئاسة الجمهورية؟

- ابتسم سعد وهو يجيب بدبلوماسية:

- متى تتوقف عن افتراضك سوء النية حتى في مبادراتي الخيرة؟.. هل فكر أصدقاؤك اليساريون والليبراليون في الدعوة لمثل هذا اللقاء وجمع شمل الثوار القدامى بعد مرور أربعين سنة؟.. متى تكفون عن الشك والنقد وتشكرون؟!

- دعوة مشكورة ولا شك يا صديقي، لكن ما خفي وراءها أعظم.. هذا ما ستثبته الأيام، كما أثبتت صدق بصيرتي عندما صارحتك بيقيني حول استمرار انتمائك القوي للجماعة، في الوقت الذي نجحت فيه بإخفاء ذلك عن الجميع..

- بعيدًا عن هذا الجدل العقيم، هل تعرف أنك أنت السبب في هذه الدعوة؟

- أنا.. كيف؟!

- هل تتذكر يوم أن التقينا في ميدان التحرير قبيل تنحي مبارك، وقلت لي: «يا لروعة مصر عندما يتوحد أبناؤها لينجزوا التغيير ويشيدوا المستقبل المنشود».. عندما انفردت بنفسي، تأملت كلماتك، ووجدتك محقًّا في ألَّا أمل في بناء مستقبل متميز لبلدنا إلا بتوحد جهود الجميع، فلن يستطيع حزب أو فصيل واحد إنجاز ذلك منفردًا..

- هل هذه هي أيضًا قناعة إخوانك في مكتب الإرشاد؟

- لا أعرف، لكن ثق أن هذه هي قناعتي التي أؤمن بها اليوم أكثر من أي وقت مضى.. لذا أرجو أن تعتبر هذه الدعوة ليست دعوتي وحدي، لكنها دعوتنا المشتركة، لنحاول لم شمل زملاء الانتفاضة الطلابية الذين تفرقت بهم السبل عبر السنين..

تأمله إبراهيم بود، لكنه رغم ذلك سأله مشاكسًا:

- هل هذا هو منهج جديد تعتقد أنه قد يحقق حلمك القديم بإقناعي وغيري بالانضمام للجماعة؟

ابتسم سعد وكعادته لم يستمر في المجادلة، لكنه ألح على إبراهيم أن يقنع كل من يستطيع من الزملاء القدامى لحضور اللقاء، مؤكدًا أن الدعوة المجانية تشمل الإقامة الكاملة في الفندق، والانتقال بسيارات وحافلات فاخرة ستقل المشاركين من وإلى القاهرة..

■■■

5

إبراهيم مروان

نشأ إبراهيم مروان في مدينة كفر سعد الصغيرة بالقرب من دمياط.. وُلِدَ لأب يعمل مهندسًا بالتفتيش الزراعي وأم تعمل موظفة بمجلس المدينة.. اكتسب من والده نهم القراءة والانفتاح على الثقافات والتوجهات المختلفة.. منذ المرحلة الابتدائية التهم تدريجيًّا بشغف ما وجده في مكتبة والده، سواء مما تركه جده من كتب الدين والتراث والأعداد القديمة لمجلتي الرسالة والثقافة، أو ما كان والده حريصًا على اقتنائه من كتب وروايات ودواوين شعر حديثة..

ساعدته قراءاته على أن يتقدم دراسيًّا بمعدل متوازن.. لم يكن بين المتفوقين؛ لأنه لم يكرس كل وقته لمذاكرة وحفظ الدروس.. ولم يكن بين الخائبين؛ لأنه كان قادرًا على النجاح المريح بأدنى جهد يكرسه لدروسه مع اقتراب موعد الامتحان.. كان قادرًا على مجاراة والده وأخيه الأكبر وضيوف

العائلة في الحوارات السياسية والثقافية التي أصبح يعشقها ويجد ذاته فيها، وإن تناولت موضوعاتٍ وأفكارًا تتجاوز عمره.

بسبب القرب من مدينته، كان وعائلته معتادين قضاء عطلة الصيف الطويلة في رأس البر؛ حيث درج على أن يذهب في فترة الصباح لشاطئ البحر، وينصرف بعد الغداء مباشرة للقراءة الحرة في «العشة» التي يستأجرونها إلى أن يأتي الغروب، فينطلق مع أقرانه في جولة طويلة في شارع النيل وصولًا إلى اللسان.. وبعد التسكع قليلًا حول الفنار، يقومون بالدوران من جهة شاطئ البحر؛ لينتهي مطافهم إلى أحد الكازينوهات في شارع النيل أو أحيانًا وصولًا إلى إحدى الكافتيريات المتناثرة في منطقة شاطئ «الجِربي» البعيد..

حملت إجازة الصيف في رأس البر أمتع الذكريات في وجدانه؛ ففيها تعرف على أفضل أصدقائه وأكثرهم إخلاصًا، كما رأى لأول مرة يسرا الصافي، تلك الفتاة القاهرية الهيفاء، التي جاءت مع عائلتها لقضاء إجازة صيف عام 1967، لكن فرقهما عدوان 5 يونيو الذي أتى على حين غرة، وهو ما دفع عائلتها لمغادرة المصيف سريعًا، فظل يشتاق إليها ويحن لرؤيتها سنة وراء أخرى، إلى أن قابلها مصادفة في جامعة القاهرة عام 1972، فلم يفارقها منذ ذلك الحين..

كانت رأس البر ملاذ الطبقة الوسطى المصرية؛ لاعتدال إيجار عششها المبنية من الأكياب، وهي حوائط من البوص تعلو جدرانًا منخفضة من الطوب، بما يسمح بدخول تيارات الهواء الرطب عندما تعلو درجة الحرارة ويشتد القيظ، ولتوفر متطلبات المعيشة ورخص أسعار المواد الغذائية، سواء

ما كان منها مصدره البحر أو الحقول الزراعية القريبة.. على شواطئ المصيف العائلي كان يمر العشرات من البائعين، يعرضون بضائعهم من المأكولات والمصنوعات، وكذلك مصورو الفوتوغرافيا يجرون خلفهم ديكورات خفيفة الوزن، تمثل حيتانًا أو أحصنة أو مراكب؛ بهدف جذب الزبائن نحو التقاط صور لهم وهم يمتطونها، فضلًا عن عربات الآيس كريم، بأشكالها المبتكرة وألوانها المميزة وأصوات أبواق باعتها ذات الرنين المتناغم الذي لايزال يتردد إلى اليوم صداه في ذاكرة إبراهيم..

ينتصف النهار في رأس البر فلا ينقطع تدفق المصطافين على السوق الرئيسي لشراء احتياجات وجبة الغداء الرئيسية.. الزحام الأكبر يكون من نصيب حلقة السمك الطازج الذي أتت به مراكب الصيد التي لا تنقطع رحلاتها من عزبة البرج المقابلة لرأس البر على مجرى النيل إلى عرض البحر ذهابًا وإيابًا.. معظم الزبائن يفضلون شراء سمك البوري أو البياض لاعتدال أسعارهما، على حين يتجه الأغنياء منهم لشراء سمك الدنيس أو سمك موسى، إضافة إلى الجمبري والكابوريا، بينما يكتفي الفقراء بسمك الشبار أو البُساريا والمحار الصغير..

بعد شراء الأسماك كانت والدة إبراهيم تعطيها للفران الذي يتولى شيها، وهنا يأتي التكليف الذي كان يكرهه الفتى أشد الكراهية، وهو الانتظار أمام الفرن، حتى يأتي الدور على أسماكهم للتنظيف والتمليح والشي، على حين تنصرف الأم لشراء بقية احتياجات عائلتها من البقالة والفاكهة والخضراوات.. كثيرًا ما حمل إبراهيم معه كتابًا أو رواية مسلية؛ ليقتل الوقت في انتظار حلول ذلك الدور الذي قد يستغرق أحيانًا ساعة أو ساعتين.. كان

لا يسمع جلبة الزبائن، وأحيانًا تنازعهم على ترتيب أولوية الدور؛ لأنه كان منصرفًا لتتبع مغامرات اللص الظريف أرسين لوبين، أو يحاول فك عقدة الجريمة في إحدى روايات أجاثا كريستي، أو يبتسم لسذاجة دون كيشوت وهو يرتدي زيه المضحك ويهجم على طواحين الهواء مفترضًا أنها العمالقة الجبابرة، أو ينحني احترامًا لفتيات الليل متخيلًا أنهن سيدات القصر، أو يهاجم شاهرًا حربته قطعان الخراف والأغنام واثقًا أنها جيوش الأمم المتحاربة..

في واحدة من جولاته في شارع النيل، تعرف إلى مجموعة من الطلاب الذين أتوا من الزقازيق لقضاء عدة أيام في المعسكر الصيفي في المدينة.. من بينهم جذب انتباهه على وجه خاص فتى ضئيل الحجم، وجده أقواهم شخصية وأكثرهم تأثيرًا على الآخرين، وإن بدا أصغرهم سنًّا.. كانت تلك بداية التعارف المبكر الذي جمع إبراهيم مروان بسعد رمضان، والذي ترسخ فيما بعد بلقائهما مجددًا في رحاب جامعة القاهرة أثناء أحداث الحركة الطلابية..

أحب إبراهيم محاورة سعد الذي كان قد انضم حديثًا لجماعة الإخوان المسلمين، ويجد سعادة في ترديد أدبياتها بحماس، يقابله حماس مماثل من إبراهيم في طرح أفكار أنصار مدرسة التنوير الذين كان متأثرًا بقراءاته لهم.. في الأمسيات الممتدة لما بعد منتصف الليل، لم يَحسم الحوارُ قطُّ أيًّا من القضايا المثارة، لتمسك كل طرف بوجهة نظره التي يعتقد أنها وحدها الحقيقة التي تستحق الاعتناق وما عداها زيف وجهل.. لكن في صباح اليوم التالي، يكون الخلاف الفكري قد انزوى واستقر مؤقتًا في طي النسيان، تاركًا الساحة لمتعة

السباحة والسمر المشترك على الشاطئ الرملي الممتد من اللسان حتى شارع 33..

بعد حصوله على الثانوية العامة، التحق بكلية التجارة جامعة القاهرة لدراسة المحاسبة، ليس حبًّا للتخصص في حد ذاته، وإنما تقديرًا منه لوجود فرص توظف أكبر لخريجيه، مقارنة بغيره من التخصصات.. جذبته القاهرة بحيويتها الثقافية والفنية، خاصة أن ابن عمه منصور مروان، الذي كان مخرجًا شابًّا في فرقة مسرح الجيب، أصبح مرشده الهادي لهذا العالم السحري الذي أحبَّه واستغرقه بأكثر مما فعلت دراسة المحاسبة.. لم يترك عرضًا مسرحيًّا إلا وشاهده، ولم تفته أيٌّ من عروض الأفلام الأجنبية، ولم يترك حفلة موسيقية إلا ووجد وسيلة لحضورها مجانًا أو بأقل التكاليف..

عرف طريق دار الأوبرا منذ عامه الأول في القاهرة؛ حيث جذبته مبكرًا الموسيقى الكلاسيكية التي استمع إليها بشغف في البرنامج الموسيقي في الإذاعة وقرأ عنها الكثير.. عرف من منصور أن بمقدوره بتذكرة لا تتجاوز خمسة قروش حضور البروفة الختامية لحفلات أوركسترا القاهرة السيمفوني في أيام السبت التي تسبق حفلات الأحد الرسمية.. كان شعور بالخيلاء يغمره وهو يصعد الدرجات الرخامية للأوبرا الخديوية، ويدلف من ردهاتها الفخمة، ويجلس على كراسيها القطيفية الحمراء المذهبة، تعلوه القبة المستديرة الرائعة الألوان، ومن حوله الألواح التي كثيرًا ما ضمت الملوك والرؤساء والأمراء والوجهاء، منذ افتتاح الخديو إسماعيل للمبنى حتى الآن..

غير أنه في 28 أكتوبر 1971، عندما سمع من الإذاعة أن الأوبرا تحترق، أسرع إليهـا ووقف معدوم الحيلة أمامها يبكي وهو يشـاهد النيران تلتهمها، حتى لم تتبق سوى أطلالها الخربة.. في الشهور والسنوات اللاحقة، استمر في حضـور بروفة الحفلات التـي كانت تجرى على مسرح البالـون في العجوزة، لكنه افتقد الكثير من المتعة التي كان يشعر بها في دار الأوبرا القديمة.. شغفه بالموسـيقى الكلاسـيكية لم يقلل من حبه للموسـيقى الشرقية؛ لذلك لم يتردد في صحبـة منصور وأصدقائه بانتظام لحضـور العروض التي أخذت تنظمها فرق الموسـيقى الشرقية، خاصة فرقة أم كلثوم، على مسرح سـيد درويش في حي الهرم..

ضمـن اهتماماتـه الثقافية والفنية، شـارك في الأنشـطة الجامعيـة المختلفة كالنـدوات والمسـابقات وصحف الحائط.. وعندما أصبـح في الفرقة الثانية، اختـير طالبًـا مثاليًّـا للكليـة؛ لكثافة نشـاطه، وتفوقـه على زملائـه في اختبار المعلومـات العامـة الذي أجـراه العميد ورائد اتحـاد الطلاب.. ظـل محافظًا عـلى استقلاله الفكـري والتنظيمـي، متجنبًا الانضـمام لأيٍّ مـن التنظيمات السياسـية الموجودة على السـاحة، لكنه كان سبَّاقًا للمشاركة في فصائل خدمة الجبهـة التي ضمت العشرات من المتميزين من طلاب الجامعات، المتطوعين للانضمام مؤقتًا لوحدات الجيش القتالية على جبهة القناة..

ففي بداية إجازة صيف عام 1970، التحق وثلاثة من زملائه من طلاب جامعة القاهرة بكتيبة مدرعات، كانت تتخذ موقعها قرب كوبري الجميل في مدخل مدينة بورسـعيد من جهة الغرب.. لمدة شـهر، شـاركوا جنود الكتيبة سـكناهم في ملاجئ تقع أسفل الأرض، وكذلك في طعامهم البسيط وأعمال

الصيانة التي يقومون بها.. كان سعيدًا بالتجربة، رغم معاناة البعد عن الأهل والأصدقاء وحياة التقشف التي أخذ يجربها للمرة الأولى في حياته.. كان ينصرف للقراءة وكتابة الخطابات في وقت فراغه الطويل نسبيًّا.. غير أن إدارة الشئون المعنوية للجيش كانت تجمع من وقت لآخر الطلاب المشاركين في الفصائل من مختلف التشكيلات العسكرية في بورسعيد، وتنظم لهم زيارات للمدينة، ولقاءات مع قادة عسكريين ووعاظ من الأزهر وسياسيين وأساتذة جامعات، يأتون خصيصًا من القاهرة..

سيطر الحزن عليه وهو يرى مشاهد الدمار التي عمت المدينة التي كثيرًا ما زارها قبل الحرب، ووجدها حينذاك آيةً في الجمال والنظام والنظافة.. كانت الشوارع والمساكن خاويةً، إلا من الجنود والعربات والآليات العسكرية.. الفندق الكبير القريب من قاعدة تمثال ديليسبس، عند نقطة التقاء قناة السويس بالبحر الأبيض المتوسط، بدا مهجورًا، وقد اخترقه صاروخ ضخم، تاركًا تجويفًا مستديرًا بحجم طابق كامل.. حتى الشواطئ الجميلة، تبدو مقفرة مهملة، وكبائنها المتناثرة إما متهدمة أو خاوية، تُتخذ ساترًا للدبابات التي تقف مستعدة؛ تحسبًا لهجوم مباغت للعدو قد يأتي فجأة من جهة البحر.. الحي الإفرنجي بشوارعه المتسعة المستقيمة، لا يبدو أحسن حالًا من الحي العربي، فكلاهما مهجور من السكان والنشاط..

اكتسب في الندوات شهرة المحاور المشاكس الذي يثير في كل مرة حفيظة المحاضرين القادمين من العاصمة.. كان يرفض الأحاديث المكررة والإجابات الناعمة، ويطلب من المتحدثين مواقف محددة وإجابات قاطعة لم يعتادوها.. أحرج أحد المسئولين السياسيين بطلبه تفسيرًا لتقاعس الدولة عن

فرض أجواء حالة الحرب على البلد، وتسليح المواطنين، ليهب الجميع هبة واحدة لتحرير سيناء.. طلب من أحد القادة العسكريين تفسيرًا للتفرقة في المعاملة التي لاحظها بين الضباط والجنود، رغم مصيرهم المشترك في الحرب والقتال.. هاجم أحد شيوخ الأزهر عندما تردد في اعتبار القتلى في حرب اليمن شهداء، قائلًا إن الأمر يتوقف على نية من ذهب إلى هناك؛ هل كانت منصرفة لنصرة المسلمين أم لمزايا مادية حلم بالحصول عليها! كان ضباط الشئون المعنوية يحارون في كيفية التعامل مع إبراهيم وغيره من الضيوف المشاكسين.. هم ليسوا جنودًا ليلزموهم بإطاعة الأوامر والبعد عن الأسئلة المحرجة، ومع ذلك فإنهم كانوا يخشون تأثيرهم على المجندين الذين قد ينجذبون لتقليدهم، وهو ما قد يسبب اضطرابًا في أمور الضبط والربط التي يفترض أن تسود الوحدات العسكرية..

كل تلك الأحداث تلاشت، ذات صباح، عندما فوجئ الجميع بهجوم شرس لطائرات العدو الحربية على المدينة والتشكيلات العسكرية فيها وحولها استمر عدة ساعات.. دوت الانفجارات على مسافة قريبة من الدشم والملاجئ التي احتمى بها إبراهيم وزملاؤه، الذين طُلب منهم عدم الخروج منها بتاتًا.. كان الفضول لرؤية ما يجري على سطح الأرض أثناء الغارات وما نجم عنها من آثار يتملك إبراهيم ويتغلب على خوفه، لكن التعليمات كانت تضع في المقام الأول سلامة الطلاب.. قرب المساء، انتهت الغارات وتم رفع حالة الطوارئ واجتمع الطلاب الثلاثة مع قائد الكتيبة الذي دعاهم لوجبة الغداء المتأخرة في الدشمة التي يتخذها مقرًا لقيادته.. عرفوا منه أن العدو قد استهدف بهذه الغارة الانتقام لسقوط عدة طائرات له

حاولت الهجوم على قواعد الصواريخ المضادة للطائرات التي تم نصبها حديثًا غرب القناة..

انتاب إبراهيم حزن شديد عندما عرف أن إحدى غارات الصباح قتلت عم عبد العزيز البمبوطي الذي رفض مغادرة المدينة أثناء عملية التهجير الجبري لسكانها، بل عاد إليها في كل مرة كانوا يرحلونه خارجها، ليبقى وحيدًا، متخذًا شقة في عمارة مهجورة سكنًا له.. بمرور الأيام، تجرأ عبد العزيز وافتتح كشكًا بسيطًا لبيع السجائر والبسكويت والمثلجات.. لا أحد يعرف كيف كان يدير تجارته، ومن أين يشتري بضاعته، لكنه استفاد قطعًا من تساهل وتعاطف بعض العسكريين.. وجوده أصبح أمرًا معتادًا لا غنى عنه بالنسبة لكثير من الجنود وصف الضباط الذين اكتسب ثقتهم وصداقتهم وأصبح أمينًا على أسرارهم، يُنفثون عنها معه، عندما يشتد شعورهم بالغربة والوحدة.. بعد أيام من وصولهم لبورسعيد، اكتشف إبراهيم وزملاؤه من الطلاب كشك عم عبد العزيز غير البعيد عنهم، فتعودوا الذهاب إليه، يطفئون ظمأ عطشهم بزجاجات المياه الغازية، ويلجئون إلى البسكويت في أيام الوجبات العسكرية غير المحببة..

كان لدى عم عبد العزيز مقدرة رائعة على الحكي، جذبت إبراهيم الذي قضى ساعات طويلة على الدكة الصغيرة بجوار الكشك يستمع لحكايات الرجل العجوز المتعددة، عن التغير الذي مر بالمدينة، منذ جاءها نازحًا من بلدته «الجمالية» قبيل ثورة عام 1952، وعن تقاليد ومصاعب مهنة البمبوطية، وعن الصراعات التي تشهدها من حين لآخر بحيرة المنزلة، وعن حروب الشوارع التي خاضها الفدائيون أثناء عدوان البريطانيين والفرنسيين

في عـام 1956 .. كان الرجـل يسترسـل في حكاياته وهو يداعـب رقبة كلبه الأسود الذي وجده هائمًا في المدينة، فآواه وأطعمه وأسماه الباشا..

صبـاح اليوم أراد عبد العزيز تزويد كشـكه الصغير بالسـلع التي قاربت النفاد، فاتفق مع سائق إحدى عربات النقل العسكرية ليحمله معه في طريقه غربًـا باتجـاه دمياط.. غـير أن طائرة معادية هاجمتهما بوحشـية، عـلى الطريق السـاحلي الضيق، غرب الجميل بنحو عشرة كيلومترات، لتتناثر بقايا الرجل وتختلـط ببقايـا الجندي وحديـد السـيارة وأسـفلت الطريق.. اسـتمر حزن إبراهيم على صديقه البمبوطي الأيام الثلاثة المتبقية من مدة زيارته للجبهة.. لم يكبح نفسه عن الذهاب إلى الكشك، ليفاجأ بالكلب واقفًا بجواره في انتظار صاحبه.. عاد إلى الملجأ ليحمل طعامًا قدمه للكلب، فأقبل عليه بنهم لشـدة جوعـه، لكن عندمـا أراد أن يربت على رقبته كما كان يفعـل عم عبد العزيز، نفر الكلب وابتعد عنه قليلًا، وهو ينظر إليه نظرة استنكار وعتب.. تساقطت دموع إبراهيم وأجهش بالبكاء.. قبيل مغادرته بورسـعيد، ألحَّ على أصدقائه مـن المجنديـن أن يعتنـوا بالكلـب ويطعموه كلـما أمكنهم ذلـك.. زاد حزنه عندمـا عاد لبيته في كفر سـعد؛ حيث عرف أن جدته التـي تقيم معهم ماتت أثناء غيابه في بورسعيد..

في عامه الجامعي الأخير، تابع عن بعد التصاعد التدريجي للاحتجاجات الطلابية ضد الرئيس السـادات داخل الحرم الجامعـي.. كان فكريًّا متضامنًا مـع الحركـة الطلابيـة، لكنه ظـل منصرفًا عـن المسـاهمة بجديـة في فعاليتها، حتـى قابل مصادفة يسرا الصـافي؛ الفتاة القاهرية الرقيقـة التي أعجبته حين التقاها منذ سـنوات في مصيـف رأس البر ونضجت منذ ذلك الحين، إلى حدٍّ

أنـه لم يتعـرف إليهـا للوهلة الأولى.. كانت مندمجة في نقاش سـياسي سـاخن مـع آخرين، في حلقة حواريـة في حرم الجامعة انضم توًّا إليها.. فجأة توقفت الفتاة عن الحديث ونظرت نحوه مندهشة مستفسرة:

- ألست أنت إبراهيم فتى رأس البر؟!

- أنا بالفعل إبراهيم وأنتِ؟!

- أنا يسرا.. هل نسيت لقاءات عائلتي وعائلتك في عشة شارع 18؟!

- لقد تذكرت الآن.. يا لها من مصادفة! هل أنت طالبة هنا في الجامعة؟

- نعم في كلية الآداب.. وأنتَ؟

- في الفرقة الرابعة كلية التجارة..

انصرفت عنه لتستكمل حوارها الحماسي، على حين بقي هو ساكنًا يتأملها بدهشة وسعادة.. انتظر حتى فرغت، فدعاها لكوب عصير فاكهة في كافتيريا كلية الحقوق.. بهرته مجددًا برشاقتها وقوة شخصيتها وجمالها الأخَّاذ.. تبادلا أسئلة تقليدية تستفسر عن أحوال أفراد العائلتين، وكيف أضحت رأس البر بعد تهجير سكان القناة إليها مع اشتداد معارك حرب الاستنزاف، لكنه كان في أعماقه منصرفًا عن ذلك، لا يسـتطيع التغلب على إحساس جارف بأنه قد استرجع أخيرًا فتاة أحلامه التي طال شوقه للقائها..

شدته يسرا الصافي لمشاركتها نشاطها الحماسي في أنشطة الحركة الطلابية، فأصبـح يقضي معظـم وقته معها ما بين الحوارات والنـدوات، ويقضي الليل في قاعـة الاحتفالات الكبرى في الجامعـة، يتابع مع زملائه كلمات وفعاليات

لا تنقطـع.. تعـرف حينئـذٍ إلى كامـل هلال، فلـم تعجبه شـخصيته ولم يقبل توجهاتـه، ومن ثم لم تنقطع سـجالاتهما، رغم تسـليمه بذكاء هـلال وثقافته الموسـوعية.. عرفتـه يـسرا عـلى ليـلى عامر التـي أعجـب بتفكيرهـا المرتب وشخصيتها القوية، وظل على وده معها إلى أن فاجأه التصاقها بكامل هلال، في الشهور التي أعقبت القبض عليهم في قاعة الاحتفالات الكبرى، فخفتت علاقتـه بها تدريجيًّا.. جذبـه منذ وقت مبكر طارق جاد الـذي كان مقيمًا معه في المدينـة الجامعيـة، وكان معتـادًا اللقـاء بـه ومشـاركته في أنشـطته الثقافية والسياسـية الواسـعة، ولم يفقـد قـطُّ احترامـه لـه، ولم تنقطع منذئـذٍ صلتهما وودهما المشترك..

لم تتوقف محاولات صديقه القديم سعد رمضان- الذي استردت علاقتهما حرارتها بلقائهما مجددًا في رحاب جامعة القاهرة- لاستمالته لفكر الجماعات الإسـلامية وتوجهاتهـا، لكنهـا ظلت بلا جـدوى.. كان إبراهيم يسـخر من جهـود صديقه ويناشـده أن يكون واقعيًّا، فيقصر دعوته على الشـباب البكر الخـام الـذي لم يعرف طريقه بعـد للثقافة والنقد وإعمال العقـل.. فمن تمكن منـه الفكـر فلـن يقبـل التقولـب في صيـغ جامدة، وخضـوع مسـتكين لمبدأ السـمع والطاعـة.. رغم ذلك النقـد وتلك الخلافات الفكريـة لم ينقطع الود بـين الصديقين، وصارت علاقتهـما مضربًا للمثل بين زملائهـما على إمكانية وجود صداقة تجمع بين طرفي نقيض سـياسي وفكـري.. حتى يسرا الصافي، كانت تتعجب من قدر الود الذي يحمله إبراهيم لصديقه الإخواني، والذي لم ينقطع على مدى عمرهما الممتد..

بمجـرد انتهـاء امتحانات آخـر أعوامه الدراسـية وقبل إعـلان النتيجة، ألحَّ إبراهيم على يسرا لتحدد مع أسرتها موعدًا لحضور عائلته من كفر سـعد للتقدم لخطبتها.. تحججت بأن عائلتها ترى الوقت مبكرًا؛ لأنه مازال أمامها عامـان في الجامعـة، وأنه مازال أمامه فترة تجنيد، قـد تطول كثيرًا في الظروف التـي تمر بها البلاد.. لم ييئس إبراهيم وتوجه وحده بدون موعد مسـبق لبيت يسرا التي فوجئت به واقفًا أمام باب شـقتهم مُلحًا في الدخول للحديث مع والدها.. رجته مسـتجدية أن يعود أدراجه، مستشـعرة حرجًـا بالغًا من هذا الموقـف، فرفض.. وعدتـه أن تدبر له موعدًا قريبًا للقـاء والدها إذا انصرف الآن، لكنه أصر على لقاء والدها في الحال.. اضطربت الفتاة وكادت تبكي من الفزع والحرج، إلى أن خرج والدها مسـتفسرًا عَمّنْ طرق الباب ولم يدخل.. وجد شـابًّا مشـتبكًا في جـدل مع ابنته التي انسـحبت للداخـل بمجرد رؤية والدها مقتربًا منهما..

سأله الأب مندهشًا:

– خير يا ابني، هل تريد شيئًا؟

رد الشاب مبتسمًا:

– نعـم.. أنـا إبراهيم نجل المهندس عبد العزيز مروان، جاركم القديم في عشة شارع 18 في رأس البر.. ألا تتذكرني يا عمي؟!

– أهـلا يـا ابني .. لقد مضى على ذلك وقت طويل.. كيف عرفت عنواننا ولماذا بحثت عنا؟!

- أنا زميل يسرا في جامعة القاهرة.. هل تسمح لي بالدخول لبضع دقائق..

رغم الدهشة التي كست ملامح سيف الدين الصافي، فإنه تقدم إبراهيم إلى غرفة الصالون ثم أغلق بابها خلفهما ونظر إليه مستطلعًا.. مضت بضع دقائق من الصمت حتى استجمع الشاب شجاعته، ليفضي بأنه قد جاء يطلب موعدًا لحضور أهله من دمياط لطلب يد يسرا.. كان سيف الدين حاسمًا في أن ابنته مازالت طالبة، ولا تفكير لديهم في السماح بخطبتها قبل تخرجها في الجامعة.. عندما ألحَّ إبراهيم في طلب الموافقة على مجرد قراءة الفاتحة، واجهه المضيف بأنه هو أيضًا لم يحصل على شهادته بعد، وحتى إن تخرج فسيقضي سنين في الخدمة العسكرية قبل أن يتمكن من تكوين أسرة.. عندما استبد الحزن بإبراهيم وارتبك وطفرت الدموع من عينيه رق له قلب سيف الدين، فَطيَّب خاطره ووعده بأنه إذا كان لن يوافق على تقدمه لخطبة ابنته الآن، فإنه أيضًا لن يوافق على خطبتها لأي شاب آخر قبل تخرجها، ومن ثم فإن فرصته ستبقى قائمة إلى أن تتخرج يسرا، وتستقر أوضاعه هو ويحصل على وظيفة مناسبة.. رضي إبراهيم بهذا الوعد، مكررًا القسم إنه لا يمكن أن يفكر لحظة واحدة في التخلي عن حلمه بالزواج من يسرا، فإذا لم يتحقق ذلك فسيموت على الفور.. استمر سيف الدين في محاولة تهدئة انفعالات الشاب ودعوته للتماسك، لكنه ألزمه قبل انصرافه بأن يعده بالامتناع نهائيًا عن الاتصال بابنته أو مقابلتها إلى أن تنهي دراستها الجامعية..

شهدت الأسابيع التالية أتعس أيام حياة إبراهيم، بسبب حرمانه من رؤية يسرا أو الاتصال بها.. كان غير قادرٍ على الوفاء بتعهده بالكفِّ عن

لقاء حبيبته، وفي الوقت ذاته كان يفتقد الوسيلة للقائها.. فالإجازة الصيفية تحرمه من لقائها في الجامعة، ووعده لوالدها يحرمه من الاتصال بها هاتفيًّا في منزلها.. ساءت حالته النفسية وانتابه الشرود والضجر، وهو ما لاحظته والدته مما دفعها لسؤاله عما أصابه.. كانت في البداية تظن أنه قلق طبيعي لانتظاره إعلان نتيجته في امتحان البكالوريوس، لكنها تبينت أن الأمر أعمق من ذلك.. فابنها لم يعد راغبًا في الخروج للقاء أصدقائه، يتهرب من الحوار مع والده وشقيقه وضيوفهم، لا يأكل إلا القليل، علت وجهه صفرة غير معتادة، وبدأ يفقد سريعًا وزنه.. صارحت زوجها في أنها بدأت تشك أن ابنهما يعاني مرضًا ما وينبغي اصطحابه للطبيب.. فضل المهندس عبد العزيز أن يبدأ بالحوار مع نجله الذي بعد محاولات غير مجدية من التحجج بأسباب واهية، تطرق إلى حبه ليسرا الصافي ومقابلته لوالدها والمأزق الذي أصبح فيه..

ابتسم عبد العزيز وقد أدرك سر ما أصاب ابنه وقال قولته المعتادة:

- كل مشكلة ولها حل بإذن الله..

- وما حل مشكلتي أنا؟!

- لتصبر عدة أيام حتى تظهر نتيجة امتحانك، ثم لنر ما سيهدينا إليه الله سبحانه وتعالى..

صمت إبراهيم ونكس رأسه احترامًا لحكمة والده.. حقًّا لم يتوصل لحل مشكلته، لكنه كان في أعماقه، على الأقل، راضيًا وسعيدًا برد فعل والده المتفهم للمشاعر الجارفة التي انتابته تجاه يسرا.. شاع الخبر في العائلة، فلم

يسلم من مزاح ومشاكسة شقيقه، وعتب والدته عليه، لإخفائه سره عنها وهي الأقرب إليه..

أُعلنت النتيجة، ونجح إبراهيم بتقدير جيد جدًّا، فاصطحبه والده إلى القاهرة لزيارة عمه الذي يشغل وظيفة مرموقة في بنك مصر؛ سعيًا لتوظيفه في ذات البنك.. وهو ما تحقق بمجرد تقديم إبراهيم شهادة تخرجه بعد اعتمادها رسميًّا من الجامعة.. في الأسبوع ذاته بادر والد إبراهيم لزيارة سيف الدين الصافي في مقر عمله؛ ليحاول التأثير عليه لتغيير موقفه من التحفظ على خطبة إبراهيم ليسرا.. وكما توقع المهندس عبد العزيز، كان لخبر تعيين ابنه محاسبًا في بنك مصر تأثير كبير على الموقف المرن الذي بدأ والد الفتاة في إظهاره، لينتهي اللقاء بالاتفاق على عمل خطبة عائلية محدودة، قبل موعد التحاق إبراهيم بالجيش لأداء خدمته العسكرية..

كان إبراهيم يكرر حكاية قصة حبه ومعاناته العاطفية لزميله الملازم أول حسني خالد، وهو يتلقى يوميًّا بسعادة خطابات يسرا ذات الأغلفة الملونة التي تفوح منها روائح عطر أخاذ.. كانت أيام القتال قد ولت منذ عدة شهور وبقوا في هذا الموقع الحصين الذي كان مركزًا لقيادة لواء إسرائيلي في المنطقة الوسطى من سيناء، ثم نجحت كتيبتهم في الاستيلاء عليه في اليوم الثالث من القتال..

تجربة الحرب لم تكن أمرًا بسيطًا في حياة إبراهيم الذي وجد نفسه، منذ اللحظة الأولى، أمام اختبار حقيقي من الناحيتين الوطنية والنفسية.. فآلام هزيمة عام 1967 كانت تحفر بمخالبها في وجدانه.. لا ينسى كيف بكى

مع عائلته وأصدقائه أيامًا وأسـابيع بعد صدمة احتلال الإسرائيليين لسيناء، وانكسار التجربة الناصرية، والإحساس الذي انتابهم منذ ذلك الحين باليأس والهوان والرغبة في رد العدوان..

عندما عرف في يوم 6 أكتوبر 1973 أنه سيعبر مع وحدته بعد عدة ساعات قناة السـويس ، لم يَنْتَبْهُ الخوف على حياته؛ لأنه واجه نفسـه بأنه لا يمكن أن يقبـل أن يكـون منافقًـا، فهل يمكنه أن ينسـى أنـه طالـب مـع زملائه في آخر أيام حكم عبد الناصر بتعبئة كافة الجهود للحرب، وأنهم كانوا يسخرون من استمرار مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية السابقة على النكسة؟! وهل ينكر أنه ثار وتظاهر مع زملائه في الجامعة ضد أنور السادات لتحججه بالضباب، تقاعسًـا عـن مواجهة عنت وغـرور الإسرائيليين؟! والآن عندما يحصـل على فرصـة المشـاركة في القتال الذي نـادى به بحماس، هـل يجوز له أن يـتردد أو يخاف أو ينشـغل، ولو للحظة واحدة، بمصيره الشـخصي؟! إن فعل ذلك يكون حقًّا منافقًا ومُدلسًـا، وهو عار لا يرتضيه لنفسه ولا ينسجم مـع طبيعته.. رغـم ذلك، فإنه كان غـير قادر على أن يكبـح تفكيره في يسرا، وتعذبه فكرة تركها وحيدة في الدنيا إذا اختفى وتلاشـى في الحرب القادمة.. ياللتعاسة التي ستكابدها حينئذ ولا ذنب لها فيها!

قـرر أن ينتهـز فرصة الدقائق المتبقيـة لهم، قبل التحـرك في الموعد المحدد لسـاعة الصفـر باتجاه خـط الجبهة الأمامـي، ليكتب لها خطابًـا، يعبر فيه عن حبـه، ويدعوهـا لتقبل ما قد يحل به في الأيام القادمة، دون أن يشـير صراحة للحرب.. أقسـم لها مجـددا إنه يحبها بكل جوارحه، وإنها بالنسـبة له أهم من نفسـه، لكنـه يحـب مصر كـما يحبهـا، وإذا نادته مـصر فلابد له أن يسـتجيب

للنداء.. رجاها أن تتفهم ذلك وأن تفكر فيه كثيرًا، كما هو دائم التفكير فيها.. طلب من أحد جنوده أن يضع الخطاب في صندوق البريد، في القرية الصغيرة شبه المهجورة التي تجمعوا عند مشارفها، وهو غير واثق أن الساعي سيمر يومًا لالتقاطه.. كان على يقين أنه سيموت في الحرب القادمة، وعليه أن يتقبل هذه الحقيقة ويحارب بشجاعة؛ احترامًا لصدقه النضالي ومبادئه التي آمن بها.. لحظات ومرت فوق رأسه عشرات الطائرات المقاتلة، عابرة القناة شرقًا في طريقها لسيناء، ثم انطلقت بعدها مباشرة معزوفة للمدفعية الثقيلة تدك مواقع العدو..

مرت ساعتان على بدء القتال، حينما بدأ يستقل مع أفراد الفصيلة التي يقودها القوارب المطاطية، ليعبروا القناة، تطاردهم بعض قذائف مدفعية وطيران العدو التي تسقط بشكل غير منتظم هنا وهناك.. ساعد جنوده الذين يحملون مدفعًا مضادًّا للدبابات على تسلق سلالم الحبال التي تناثرت على الكثبان الرملية المرتفعة في الجانب الشرقي من القناة، والتي قام العدو في السنوات الماضية بتعليتها وتكثيفها لتصبح مانعًا يحول دون تقدم من يفكر في العبور.. بعد معاناة اجتياز المانع، تقدموا في تشكيل قتالي، يتحسسون رمل سيناء، وقد انتشى قلب إبراهيم بملمسه، لتطغى دموع الفرح على كل وجل أو خشية قد تكون تملكته.. تقدموا ثلاثة كيلومترات دون مقاومة تذكر، ثم تلقوا الأوامر بالثبات في موقعهم حتى الصباح.. بدءوا في حفر الخنادق والحفر البرميلية لحماية أجسادهم من القذائف التي يمكن عندما تتساقط أن تتناثر شظاياها لتفترش مساحات واسعة..

قبل ساعات قليلة من طلوع الفجر، تعرضوا لغلالات كثيفة من النيران، آتية بشكل مفاجئ من خلفهم وليس من الأمام.. انتابت إبراهيم حيرة بالغة، لا يمكنه الرد على النيران وإلا أصاب القوات الموجودة بكثافة في المؤخرة.. لم يفهم كيف يمكن أن تطلق عليهم النيران من الخلف.. هل هو سوء تقدير وخطأ في المعلومات التي وصلت إلى التشكيلات الأخرى؟! صرخ في جهاز اللاسلكي يستجدي قادته وقف إطلاق النيران الذي يوشك أن يقتل ويصيب جنوده.. سمع نفس الصرخات من زملائه قادة الفصائل الأخرى.. كان يعرف أن الجسور المعدنية التي أقامها الجيش فوق القناة قد بدأت في استقبال الدبابات والعربات المدرعة التي أخذت في الاندفاع إلى الضفة الشرقية، لتوفر التأمين والحماية لقوات المشاة التي سبقتها.. تساءل: هل تأتي النيران من رشاشات تلك المدرعات التي حطت لتوها على أرض سيناء؟!

بعد قليل، سمع الأوامر المشددة من قائد اللواء لكافة الوحدات بالامتناع عن إطلاق النيران، ولجميع القوات المدرعة والمركبات بالتوقف فورًا في أماكنها وإطفاء محركاتها، وإلا تعرضت لقصف سيبدأ بعد خمس دقائق على كل جسم متحرك.. مضت الدقائق الخمس، فانطلقت الصواريخ والمدافع المضادة للدروع والرشاشات في اتجاه ثلاث دبابات كانت لا تزال تتحرك، فدمرتها أو أعطبتها وقتلت من فيها.. تبين أنها فصيلة دبابات إسرائيلية كانت ضمن كتيبة تسللت من جهة الجنوب، لتتقدم نحو الشمال خلف التشكيلات العابرة، تثير الفوضى وتصيب وتقتل أكبر عدد من جنود المشاة المصريين..

كان الاحتكاك الأول بالقتال، ومكابدة الإحساس بالاقتراب من خطر الموت مبكرًا، فرصة ليطمئن إبراهيم على سيطرته على مشاعره، وليتأكد أيضًا من إحكام سيطرته على رجاله حتى في أحلك المواقف.. ليس أمرًا سهلًا أن يكون شخص مدني حتى النخاع مثله قائدًا عسكريًّا صغيرًا في حرب، يقود نحو أربعين رجلًا، من صف ضباط متطوعين وجنود رديف مخضرمين وجنود مستجدين، ليقاتلوا عدوًّا أحاط نفسه، منذ حرب الأيام الستة، بأسطورة القوة التي لا تقهر.. كان مشهد الدبابات المدمرة، وقد تدلت منها جثث بعض جنود العدو قبل دفنها، منحة قدرية لإكساب القوات الثقة بالنفس والإقبال على القتال بروح جديدة وثابة وواثقة في النصر..

في اليوم السادس من القتال تعرض التشكيل الذي تنتمي له كتيبة إبراهيم لهجوم مضاد شرس من تشكيلات العدو التي تقدمت تحاول رد القوات المصرية للخلف.. توغلت بعض وحدات العدو المدرعة لاحتلال التبة التي يتخذها التشكيل مقرًّا لقيادته.. حبس جميع القادة والضباط أنفاسهم وهم يتابعون عبر أجهزة اللاسلكي، وأحيانًا برؤية العين المجردة، نتيجة هذا الهجوم.. كان إبراهيم غير بعيد، يحاول أن يبث في جنوده روح الصمود، رغم الإصابات التي تعرض لها اثنان منهم، يساعده في ذلك يحيى مراد وبهجت مصطفى جنديا الرديف اللذان خدما في الجيش فترة حرب عام 1967، وعادا للمشاركة في هذا القتال.. كانا أكثر خبرة وصلابة من الجنود الآخرين، واعتبرا أنه الآن وليس غدًا، فرصة غسل عار هزيمة نالت من كرامتهما وكرامة بلدهما، دون خطأ من الجنود والشعب..

صعـدت دبابتـان للعدو فوق قمة الهضبـة المرتفعة، لتعتليا تمامًا الدشـمة التي تأوي قائد اللواء ورئيس عملياته، ثم اقتربت منها بقية دبابات التشكيل المعادي، فأيقن الجميع أنها النهاية! غير أن المشـهد تبدل في لحظة، عندما قفز أحـد الجنـود من حفرتـه البرميلية، مصوبًا عن قرب سـلاحه الآر بي جيه إلى الحد الفاصل بين جسـم إحدى هـذه الدبابات وبرجها، فهـوى البرج محدثًا دويًـا هائلًا، انطلقـت على إثره صيحة الله أكبر، بين مئـات الجنود المنتشرين في الموقـع وحولـه.. وقبـل أن يظهـر رد فعل بقيـة الدبابات المهاجمـة، كانت مجموعـة مـن صواريخ الموليتكا ودانـات مدافع الهاوزر قـد انطلقت من كل صوب نحوها، فاسـتبد بهـا الارتباك، وذهبت سُـدًى كل محاولاتها للتراجع أو الهروب..

كانـت بالفعـل، كما شـاهدها عن بُعـد إبراهيـم، مجزرة حقيقية لتشـكيل الدبابـات المعادية.. عاد صوت قائد اللواء ينطلق في جهاز اللاسـلكي معلنًا نهايـة معركة تبـة «الطاليـة»، وتدمـير كافة القـوات المهاجمة.. سـالت دموع الفرحة من عيني إبراهيم وقام يحتضن يحيى وبهجت، ناقلًا لهما ولبقية الجنود الخبر السـعيد.. في ذات اللحظة، كان الابتهاج يسـود مركـز قيادة العمليات الرئيـسي في القاهـرة، بعدما أوشـك كل من فيه على التسـليم بخسـارة ذلك الموقع الاستراتيجي..

يتذكـر إبراهيم أنه، في ذات الليلة، قرر قائد الفرقة ضرورة تطوير الهجوم والتقدم للأمام لاحتلال التبة العالية التي يتحكم فيها العدو، ويكشـف منها مواقعنا، ويرسل عبرها دباباته لمهاجمة قواتنا.. كانت المعلومات الاستخباراتية تظهـر أن العـدو يقوم أثنـاء الليـل بتجميع قواته، في مراكز رئيسـية شـديدة

التأمين، خشية تعرضها لهجوم مفاجئ من قواتنا.. فخطته التي كررها في الأيام الماضية تمثلت في التراجع أثناء الليل خلف التباب العالية، ثم إعادة نشر قواته لاعتلاء هذه التباب مع أول ضوء صباح؛ لذلك كان لا بد من الهجوم ليلًا، لاحتلال أهم وأعلى هذه التباب، ومفاجأة العدو بذلك، ثم التصدي لأي محاولة منه للتقدم نحوها في الصباح..

كانت الأوامر مفاجئة والوقت اللازم لتنفيذها محدودًا.. حقًّا المعلومات الاستخبارية مهمة، لكنها غير يقينية؛ فقد تكون هناك قوات تأمين تُستبقى أثناء الليل لقطع الطريق على أي محاولة لقواتنا للتقدم لقمم التباب، وقد يحدث تغيير في تكتيكات العدو بين يوم وآخر، فتفاجأ قواتنا بقوات العدو في انتظارها.. وفي الحالتين ستكون الخسائر جسيمة.. للتغلب على هذه المخاطر تقرر الدفع في البداية بمفارز محدودة، من أكفأ الضباط والجنود، لاستكشاف الطريق والتمهيد لصعود بقية القوات، مع الاقتصار على المشاة وحدهم، دون أي تحريك للدبابات أو المدفعية أو ناقلات الجنود المدرعة.. فلا بد من إيهام العدو بأن الليلة القادمة ستشهد بقاء كل شيء على حاله..

جمع قائد السرية ضباطه لتوزيع المهام وتحديد التكليفات.. وجه بأن يتولى النقيب عيد حقي قيادة المفرزة، ومعه ستة من صف الضباط المسلحين بالبنادق الآلية وستة من المجندين أصحاب الخبرة المسلحين بقذائف الآر بي جيه.. لكن النقيب حقي طلب إعفاءه من هذه المهمة؛ بسبب آلام مبرحة في ساقيه، وهو ما دفع قائد السرية لنقل التكليف لمن يليه في الأقدمية، وهو الملازم أول جابر عادل الذي لم يبد حماسًا، متشككًا في جدية حجة النقيب حقي.. انبرى إبراهيم طالبًا بحماس تولي هذه المهمة.. شكره قائد السرية

لشجاعته، لكنه تحفظ على تكليفه بقيادة المفرزة، بسبب حداثة تخرجه، ومن ثم قلة خبرته، وكذلك لعدم معرفته بشكل كافٍ بالرجال الذين سيقودهم في هذه المهمة الخطرة.. بعدئذٍ وجد الملازم أول جابر أنه لا مفر من قيامه بالمهمة، لكنه ألح على قائد السرية اصطحاب الملازم إبراهيم كمساعد له في قيادة المفرزة، وهو ما أيده ورحب به بشدة إبراهيم مروان..

انطلق الرجال في ظل ظلام دامس، مستخدمين البوصلة التي ترشدهم للاتجاه المنشود.. وفي الوقت ذاته، انطلقت عدة مفارز من السرايا الأخرى للكتيبة.. كانت مهمة النقيب سيد البحيري التنسيق بين المفارز المختلفة وضمان عدم شرودها بعيدًا عن الهدف.. تقدم جابر أمام طابورين يضم كل منهما ستة رجال، يرتدون الشدة الكاملة ويحملون أسلحتهم المحددة، وخلفهم تمامًا سار إبراهيم، مسلحًا ببندقية آلية وحاملًا جهازًا للرؤية الليلية يحركه يمينًا ويسارًا، بحثًا عن أي مؤشر عن وجود أفراد أو مركبات أو معدات تابعة للعدو.. كانوا يتقدمون ببطء، لا يرون سوى شجيرات كثيفة من العشب الجاف التي تنمو في باطن وعلى سفوح أودية هذه الصحراء اللانهائية.. كانوا يتحسبون للعدو المحتمل اختباؤه خلف أي شجيرة من هذه الشجيرات أو في ثنايا التباب التي يمرون بها..

بعد حوالي ساعة على بدء تقدمهم، تراجع الملازم أول جابر من موقعه على رأس المجموعة، واقترب من إبراهيم ليخبره أنه يعاني مغصًا شديدًا؛ لذلك يتعين عليه أن يتقدم لقيادة المفرزة، على حين سيذهب هو بصحبة النقيب سيد البحيري للبحث عن دواء عند زملائه من قادة المفارز الأخرى، ثم يلحق بهم بعد قليل.. واصل إبراهيم تقدمه وخلفه بقية الرجال، مضطرين

في بعض الأحيان للتوقف واتخاذ وضع القتال، عندما تصل إلى مسامعهم حفيف أصوات بعيدة، أو ينتابهم شك في وجود تحركات خلف الأكمة أو الجنبات القريبة.. ثم بعد مرور دقائق من الصمت المتحفز وزوال الشك، يواصلون من جديد تقدمهم للأمام..

اختفاء القائد الأساسي للمفرزة بدا مقلقًا لعدد من ضباط الصف الذين تقدم أحدهم من إبراهيم، مبديًا تشككه في جدية عذر الملازم أول جابر ومؤكدًا:

- سيادتك قد لا تعلم يا افندم أن النقيب سيد البحيري بلديات سيادة الملازم أول جابر وصديقه الصدوق.. ولأنه خشي تعرضه للخطر أخذه بعيدًا للخلف، مضحيًا بسيادتك وبنا لنبقى في المقدمة، نسبق كل المفارز ونتعرض لمفاجآت العدو ونيرانه..

فوجئ إبراهيم بهذا القول، فأصابه الضيق، ثم وجد نفسه يصيح منفعلًا:

- ليكن ذلك.. ماذا تتوقع مني الآن؟ هل ترغب في أن نتوقف هنا أم أن نتراجع للخلف؟! ومن أدراك أن العدو لن يهاجمنا في الحالتين؟! أنا سأتقدم إلى أعلى التبة حتى ولو تسربتم جميعًا وبقيت وحدي.. لا بد من السعي لاحتلال هذه التبة ولنترك مصيرنا لله سبحانه وتعالى..

رد الرقيب حسني سعد مدافعًا عن نفسه، وقد أحس بالاضطراب والخجل في مواجهة رد الفعل الحاسم للضابط الشاب:

- أنا سـأكون خلفك يا افندم ولن أتركك ولـو تخلف بقية زملائي.. كل ما حرصت عليه هو توضيح ما يحدث؛ لأنني أقدرك وأتعاطف معك، فأنت جديد في الجيش لا تعرف لؤم البعض هنا..

عندما وصل إبراهيم قرب قمة التبة، برز له فجأة المقدم عوض البارودي رئيس عمليات الكتيبة الذي سبق الجميع عـلى رأس مفرزة خاصة، ضمت مجموعـة متميـزة مـن الضباط وصـف الضباط.. هنـأ إبراهيم عـلى صعوده ومفرزتـه في وقـت قياسي وحـدد له المواقـع القتالية لفصائل سريتـه، مؤكدًا حتميـة قيـام جميـع الضبـاط والأفراد فـور وصولهـم بحفر الخنـادق والحفر البرميليـة والانتهـاء منها قبل طلوع الفجـر؛ لأنه يتوقع هجومًا كاسـحًا من العـدو عندمـا يكتشـف، مع أول ضـوء، نجاح قواتنـا في احتلال هـذه التبة الحاكمة والكاشفة لعدة كيلومترات أمامها وخلفها.. فور أن لحقت بهم بقية القوات، نقل إبراهيم التكليفات لقائد السرية الذي أمر الجميع بالشروع على الفـور في الحفر.. وقبل شروق الشـمس، كان الأفـراد وكذلك أطقم المدافع المضادة للدبابات قد احتلوا مواقع محمية نسـبيًّا، على قمة التبة وفي سـفوحها المرتفعة..

لم يتأخر رد فعل العدو بعدما أفاق من صدمة رؤية جنود المشـاة المصريين منتشرين بأعداد كثيفة فوق قمة التبة وعلى سـفوحها.. أخذ يمطر الموقع لمدة أربـع سـاعات كاملة بعشرات الآلاف مـن القذائف من كل الأعـيرة، بدءًا من قذائف الهاون ووصولًا إلى القذائف الكبيرة من عيار 185 التي أسـماها الجنـود قذائف «أبـو جاموس».. ثم أعقب ذلك بهجوم كاسـح بالدبابات.. كان العـدو يعلم صعوبة مهمة دباباته، لكنه قدر أن ارتفاع خسـائر المصريين

بعد الهجوم المدفعي القاسي سيربكهم ويقلل من قدرتهم على التصدي للهجوم المدرع.. حقًا كانت الخسائر كبيرة من توالي القصف المدفعي.. لكن على عكس توقعات العدو، كانت الروح المعنوية عالية والكل مصمم على الاحتفاظ بمواقعه.. قرر القادة التركيز على التصدي لهجوم الدبابات، مستفيدين من الموقع الحاكم الذي ييسر كشف تحركات العدو في مهدها.. عندما اقتربت دبابات العدو من نقطة محددة، انطلقت القذائف المضادة للدبابات بكثافة لتدمر وتعطب النسق الأول من الدبابات المتقدمة، وهو ما دفع بقية الدبابات للتراجع سريعًا للخلف..

بعد أقل من ساعة، ظهر الطيران الإسرائيلي في الجو وأخذ يمطر التبة بالصواريخ والقذائف العنقودية الفتاكة.. حمت الحفر البرميلية الجنود إلى حد كبير، لكن الخسائر بين رجال إبراهيم تصاعدت منذ الصباح: خمسة مصابين وثلاثة شهداء، من بينهم بهجت مصطفى الذي أطاحت شظية برأسه وأبقت على حياة شريكه في ذات الحفرة يحيى مراد.. كانت تلك الحفرة تقع مباشرة أمام موقع إبراهيم بنحو عشرة أمتار فقط، فشهد الموقف بأم عينيه.. بكى صامتًا وإن تعذر عليه التقدم لحين انتهاء القصف.. لم ينس حواره معه على ضفة قناة السويس في انتظار اجتيازها يوم السادس من أكتوبر.. وقتها لم يقدر بهجت، الذي يشتغل عاملًا فنيًّا في المدرسة الصناعية في المنصورة، على كبح الدموع التي أخذت تفر من عينيه، وهو يقول:

لن تصدق يا افندم كم عدد الليالي التي مرت عليَّ وأنا أحلم بهذه اللحظة.. لقد رأيت من حولي زملائي وأصدقائي يُقتلون بقصف الطيران الإسرائيلي الوحشي أثناء انسحابنا في عام 1967.. لقد مشينا على أقدامنا

عشرات الكيلومترات نعاني الحر والجوع والإجهاد.. لم تكن معنا أسلحة، وكنا قد فقدنا قادتنا، نسارع الخطى في الصحراء الواسعة، نسترشد بالشمس للتقدم غربًا، آملين بلوغ قناة السويس قبل أن نقع أسرى في يد العدو.. غير أننا فوجئنا بالطائرات الإسرائيلية تحلق فوق رءوسنا تطاردنا وتقصفنا بالرشاشات.. كان من الصعب أن نحتمي منها في صحراء مكشوفة.. جرينا في شتى الاتجاهات.. قتل معظمنا، بينما نجا عدد قليل كنت من بينهم.. عندما غابت الطائرات مع دخول الليل، دفنا الشهداء، وحملنا من استطعنا من الجرحى، وسرنا ساعات طويلة حتى وجدنا القناة، فعبرناها سباحة إلى الضفة الأخرى.. لقد عبرناها يا افندم بأجسادنا فقط، فمنذ تلك اللحظة بقيت أرواحنا معلقة هناك.. والآن يهزني الفرح لأنني بعد قليل سأعبر، لأسترجع روحي الغائبة التي فارقتني لأكثر من ست سنوات..

تبين تدريجيًّا لإبراهيم أثناء المعركة أنها لم تكن مجرد كلمات أو مشاعر، بل تجسدت في أفعال ومبادرات أقدم عليها بهجت بكل حماس على مدى أيام القتال.. كان وزميله يحيى الأكثر شجاعة والأكثر عطاء وقدوة للآخرين، ولكم استفاد هو شخصيًّا من خبراتها القتالية وقدرتهما على احتواء وتشجيع الجنود المستجدين في أحلك أوقات القتال..

سأل إبراهيم نفسه متألمًا:

- هل من العدل أن يفقد بهجت رأسه هكذا ويغيبه الموت الموحش؟!..

كان أكثر ما يؤلمه التفكير في أن فاطمة، طفلة بهجت الوحيدة التي كثيرًا ما كلمه عنها وأطلعه بفخر على صورتها، لن تراه مجددًا..

بمجرد ابتعاد طائرات العدو عادت مدافعه للقصف بشراسة غير مسبوقة.. استمر الرجال متمسكين بالصبر والانتظار، عدا الجندي المستجد عاطف داود الذي فوجئ به الجميع يغادر حفرته وسط القصف وهو يصيح صيحات هستيرية، غير عابئ بالقذائف المتساقطة.. كاد أن يُقتل لولا شجاعة العريف محمود نظمي الذي انتظر اقتراب الجندي من حفرته، ليقفز منها ويسحبه إليها، بعيدًا عن مخاطر الأرض المكشوفة..

توافق الجنود على ترديد مقولة أن «الدانة التي ستقتلك لن تسمع صفيرها»، فيجب ألا نخشى الدانات التي نسمع صفيرها المرعب؛ لأنها ستستقر في مكان آخر.. كان صفير الدانات الذي يسمعه إبراهيم لا ينقطع منذ ساعات.. كان ينتظر إما توقف القصف وإما قدوم الدانة التي لن يسمع صفيرها؛ لتضع حد النهاية لحياته.. بالفعل جاءت تلك الدانة التي لم يسمع لها صفيرًا لتسقط تمامًا على حافة حفرته، فينقذه الساتر الصغير من الرمال الناجم عن الحفر.. ليس فقط لم يسمع الصفير، بل إنه بسببها فقد مؤقتًا حاسة السمع، واغبر وجهه بالبارود الأسود.. بعدها قال له الرائد أحمد ممتاز قائد السرية إنه قرأ الفاتحة على روحه بعدما شاهد الدانة تستقر فوق حفرته التي تقع أمامه بنحو ثلاثين مترًا..

عندما توقف القصف مع قدوم المساء، استطاع الضباط والجنود الخروج من ملاجئهم، لحصر الخسائر ونقل المصابين ودفن الموتى وتناول وجبات الطعام الجافة وقضاء حاجتهم.. رغم ما أصاب إبراهيم، فإن روحه المعنوية كانت عالية وهو يرى نفسه حيًّا سليم البدن، وإن كان هناك طنين متواصل وألم شديد في أذنيه، ومضطر لأن يطلب من محدثيه استخدام لغة الإشارة

أو الكتابة.. في ذات الليلة، قرر قائد اللواء الدفع بالمهندسين العسكريين؛ لوضع الألغام في المنطقة الفاصلة بين التبة ومواقع العدو؛ تأمينًا إضافيًا ضد محاولات العدو المتوقعة للهجوم مجددًا.. في اليوم التالي، ظهرت حكمة مبادرة القائد؛ حيث خسر العدو أسفل التبة خمس دبابات إضافية، سقطت في حقل الألغام.. كانت معركة «التبة 141» تثير فخر وشجن إبراهيم على امتداد سنوات عمره اللاحقة، ربما أكثر من غيرها من حكايات تجربته في الحرب، والتي تعددت على مدى أيام القتال، وأيضًا في فترات الاحتكاك بقوات العدو عقب قرار وقف إطلاق النار..

استمرت خدمة إبراهيم العسكرية نحو أربع سنوات، تزوج خلالها من يسرا الصافي، وكانت لا تزال طالبة في الفرقة الرابعة، ثم أنجبا بعدها بعامين ابنهما البكر هيثم.. عندما سرح من الجيش تسلَّم عمله في فرع بنك مصر بالعباسية، ثم انتقل بعدها بعامين إلى فرع مصر الجديدة.. واظب على عمله بدأبه المعهود، لكنه كان كثير الاصطدام برؤسائه، وهو ما حرمه من الترقي السريع للوظائف القيادية، على خلاف المتوقع لمن كان في مثل إخلاصه وذكائه.. كانت السنون تمر ومع مرورها تتلاشى تدريجيًا ذكرى حرب عام 1973.. غير أنه لم يكن قادرًا على نسيان تلك الأيام، ومجاراة الآخرين في التفرغ لمعارك المعيشة اليومية ومشاكسات الحياة السياسية المحلية التي كان يراها تتردى شيئًا فشيئًا، لتقترب من مسرحيات «الفَارس» المجوجة.. ففضلًا عن تحفظه على المسار الذي اتخذه الرئيس السادات في عقد الاتفاقيات والمعاهدات المنفردة مع الإسرائيليين برعاية أمريكية، كان

غير قادر على الفكاك من ذكرى جنوده وزملائه الذين استشهدوا في الحرب أو خرجوا منها بعاهات جسيمة..

لسنوات عديدة طاردته في أحلامه عينا شعبان الضبع، المجند الصعيدي الشاب، الذي كان قد انتهى لتوه من دراسته الثانوية الفنية قبيل التحاقه بالجيش.. كان يتحرك خلفه في اليوم الرابع للقتال، وهم بصدد التقدم لاحتلال موقع قريب، في إطار الخطة التي وضعها رئيس عمليات الكتيبة.. كانت مدفعية العدو ودباباته لهم بالمرصاد، تواجههم بسلسلة من القذائف لمنع تقدمهم، تحاصرهم وتحكم تركيزها عليهم شيئًا فشيئًا.. كانوا سبعة رجال خلفه، من بينهم شعبان وزميل له يحملان مدفعًا مضادًّا للدبابات.. سمح إبراهيم لشعبان وزميله أيمن بالتأخر قليلًا، بسبب ثقل المدفع وصعوبة التقدم به في ظل القصف المتواصل، ثم نجح والرجال الخمسة المتبقون معه في احتلال الموقع المطلوب وأخذوا في تأمينه.. تدريجيًّا انضم إليهم بقية قوة الفصيلة، فاكتمل العدد باستثناء شعبان الضبع الذي أردته أثناء تقدمه قذيفة دبابة.. كيف كان بمقدوره رغم تباعد الأيام أن يهرب من عيني الشاب البريئتين، تشعان في وجهه شبه الطفولي، وهو يستأذنه في التقدم خلفه بسرعة أبطأ، بسبب ثقل المدفع الذي يحمله هو وزميله.. كان ذلك مشهد ما قبل النهاية الذي لم يستطع إبراهيم إزاحته من ذاكرته قطُّ.

عندما حانت الذكرى الأولى للحرب، ووجد إبراهيم الإعلام لا يكاد يذكر من بطولات الحرب وتضحيات المقاتلين شيئًا، في مقابل المبالغة في مآثر الرئيس، صاحب قرار الحرب والسلام، أمسك مفكرته وكتب فيها:

«يطاردني البعيد بصخب وزعيق مرددًا: مر عام يا كرام على الانتصار، فافرحوا وغنوا وارقصوا، واحلموا بألف انتصار، واشكروا للرب العون، وللزعيم القرار، بعد زمن الاحتضار.. انسوا الذكريات الأليمة والأشجان العميقة والظلمة القديمة.. ولتنسوا كل شيء عن السادس من أكتوبر سوى أنه كان انتصارًا عظيمًا بقرار عبقري ملهم من السماء.

على حين يوجعني القريب بهمسه المؤلم، يذكرني بأنه قد مر عام عليكم يا أحبائي، في التراب يا رفاقي.. وها أنا أعود من جديد لألتقي بذكراكم، وذكرى الدم والرمل، الخوف والشجاعة والحب.. بلحظة الذبح العظيمة، ولحظة اليأس العقيمة.. وانتهت الحرب، وعدت وحيدًا منكم.. من الأصدقاء والحب، والذكريات والحرب.. غير أني لم أنس شيئًا من التفاصيل الصغيرة والكبيرة، البعيدة القريبة».

عندما حلت الذكرى الثالثة للحرب، كان الرئيس السادات قد تبنى سياسة الانفتاح الاقتصادي التي رأى إبراهيم فيها مخاطرة اقتصادية واجتماعية؛ لأنه لم تصاحبها قوانين وقواعد تضمن الشفافية، وتحول دون الفساد المتوقع، من جانب بعض السياسيين والبيروقراطيين ومغامري الأعمال والصفقات لذلك لم يدهش عندما بدأت تصل سريعًا إلى مسامعه حكايات عن روائح مشبوهة تزكم الأنوف.. وفي مناسبة الاحتفال بذكرى النصر، قرر الرئيس أيضًا تغيير الزي العسكري للجيش، ليقترب من زي القوات النازية في زمن الحرب العالمية الثانية، وأقام عرضًا عسكريًّا تميز بالفخامة والبذخ، فانتفض إبراهيم مستنكفًا ومستاءً، وكتب في مفكرته من جديد مخاطبًا رفاق الحرب:

«مازلتم تحومون في ذاكرتي، صباح مساء، ليل نهار، فأسأل نفسي مئات المرات: لم لا تغيبون، وقد غاب معنى أكتوبر؟!.. لقد باعوا الحدث العظيم في سوق التملق والتعظيم، باعوا فعلكم العظيم قربانًا لقرار الزعيم.. كأنكم ما فعلتم شيئًا، وما كان موتكم موتًا، ودمكم دمًا، ولحظات خوفكم وشجاعتكم، تقدمكم وتضحيتكم، ما كانت شيئًا.. كأن الرمل الملتهب في سيناء ما ارتوى منكم، ولم يحتضن الأجساد والأشلاء، الدموع والدماء.. لقد باعوا أنبل اللحظات، وتناسوا التضحيات، واحتفوا بالأزياء».

هذا الغضب المكتوم والرفض المبدئي لكل المظاهر المستفزة التي كان يراها حوله - أثر تدريجيًا على صحة إبراهيم النفسية وعلى علاقاته بمن حوله.. حاولت يسرا بلا نجاح يُذْكر أن تسرِّي عنه، وأن تأخذه بعيدًا عن دائرة السياسة ومنغصاتها، لكنه ظل مشدودًا إليها، متخذًا موقفًا ناقدًا من سياسات السلطة.. عندما سمح السادات بتكوين المنابر السياسية، فكر أن ينضم إلى منبر اليسار، لكنه لم يجد نفسه مقتنعًا بما يسمعه ويشاهده بعد اجتماعين اثنين حضرهما.. قال لنفسه: هؤلاء رجال يحترفون السياسة وأنا لا أطيق ذلك، فلن أكون أبدًا واحدًا منهم ولو بعد سنين.. فضل أن يمارس المعارضة السلبية من خلال النقد اللاذع الذي أخذ يجهر به في البيت والبنك ولقاءات الأصدقاء، وأثناء مشاركته في بعض الندوات التي بادر طارق جاد لرعايتها بعد عودته من البعثة..

بعد تولي حسني مبارك الرئاسة عقب اغتيال السادات، لم يتغير موقف إبراهيم كثيرًا، واستمر في الهجوم على ما رآه خضوعًا للهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، وانتشارًا لمظاهر الفساد والجمود.. زاد من إحباطه خسارته

لكثير مـن فرص الترقي للوظائـف القيادية في البنك، والتـى أرجعها لهيمنة شـبكات المعارف وتوغل المحسـوبية.. ثم أضاف القدر جانبًا مأسـاويًّا طبع حياته سـنين طويلة بالحزن الدفين، عندما فقـد ابنه البكر «هيثم»، غريقًا على شاطئ رأس البر في صيف 1986، وهو مازال دون العاشرة..

في تلـك الأيام خشـيت يسرا أن يفقـد زوجها عقله.. أصر عـلى أن يبقوا في رأس الـبر بعد الوفاة لأكثر من شـهرين، يسـتيقظ عنـد الفجر، يخرج من البيت وحيدًا في اتجاه موضع البحر الذي شـهد غـرق ابنه.. يأخذ في الهذيان بصـوت عـالٍ، هل كان يكلم البحر أم يناجي روح ابنه؟! تنسـال دموعه بلا توقف.. يخلع ملابسـه ويبقى سـاعات الصباح الطويلة بلباس البحر، معتليًا صخرة عالية، متوجهًا صوب الشمال، واقفًا بلا حراك.. يدير ظهره للشاطئ وللبشر الذين يرقبونه، متعجبين من وقفته الطويلة الغريبة التي كادت تصبح للبعض منهم مَعلمًا من معالم رأس البر.. كانت يسرا تتابعه من بعيد، باكية لا تقدر على مواجهته، تخشى أن تفقده للأبد، كما فقدت ولدها..

حاول طارق جاد أن يسرِّي عنه ويشـده بعيدًا عن الاستغراق في مأساته، لكنـه أيقـن أن إبراهيـم الـذي كان يحسـده عـلى حماسـه وتفاؤله قـد توارى تدريجيًّـا، ليخلفه رجل آخر، أكثر جدية وصرامة وإحباطًا من سـلوك الناس وسياسات الحكومات المتعاقبة وتصاريف الأقدار، وإن حافظ دائمًا على نقائه الفطري.. سَـلمَ بـأن صديقه ظل دائمًا محاربًا شـجاعًا وثائـرًا نبيلًا، وإن بقي رومانسـيًّا رقيقًا وهشًّا، تقوده مشاعره الحارة لتصرفات أو أقوال حادة، دون اعتبار للعقبات والنتائج..

كان إبراهيم ينزعج بشدة من مظاهر الفساد والاضمحلال التي يراها محيطة به في كل مكان: في البنك والحكومة والأجهزة المحلية والمرور، تدهشه لامبالاة من حوله بما أصاب كل شيء من تدهور، ويتألم لما اعتبره ترديًا أصاب سلوك وأخلاق معظم الزملاء والأصدقاء القدامى.. فمثلًا لم يخف دهشته وهو يرى سعد رمضان يوطد علاقته يومًا بعد آخر بكامل هلال.. إبراهيم الذي يعرف جيدًا الرجلين منذ أيام الجامعة، وجد بمرور الأيام «كامل»، الذي كان ثوريًّا متمردًا ومناهضًا صلبًا لسياسات الانفتاح التي تبناها الرئيس السادات، يعود للظهور تحت الأضواء في عهد مبارك، رئيسًا لإحدى شركات القطاع العام، مشاركًا في المؤتمرات الاقتصادية، وناشرًا للعديد من المقالات في الصحف والمجلات واسعة الانتشار.. ثم وجده بعد سنوات أخرى قد ترك شركة القطاع العام ليرأس شركة كبرى مشتركة بين القطاعين العام والخاص، ويصبح من كبار رجال الأعمال ومن أقطاب اللجنة الاقتصادية في الحزب الوطني..

سأل سعد رمضان وهو لا يخفي دهشته:

- ماذا جمع الشَّامي على المغربي؟!

ابتسم سعد وهو يتصنع عدم فهم السؤال:

- هل هي فزورة؟! من تقصد بالشَّامي ومن تقصد بالمغربي؟

- الشَّامي هو صديقنا كامل هلال.. الشيوعي السابق، والقيادي الحالي في الحزب الوطني، والعصامي الفذ، المولود في المقابر، كما كان يدعي، والذي نجح - بنزاهة شديدة - في تكوين ثروة شخصية تقدر بعشرات وربما مئات

الملايين من الجنيهات.. والمغربي هو أنت: سعد رمضان سليل كبار التجار، الذي نشأ منضويًا تحت عباءة جماعة الإخوان المسلمين، وأشك في أنه قد غير في أي وقت انتماءه لها، والذي رغم عدم انضمامه بعد للحزب الوطني، نجح أيضًا في تكوين ثروة تجاوزت مئات الملايين!

ابتسم سعد رمضان واكتفى بالقول:

- أنت كالعهد بك لا تكف عن المبالغات، يأخذك الخيال بعيدًا فتتخيل صفقات وهمية وملايين افتراضية.. لو كنت مثلنا تعيش دنيا الأعمال لعرفت أن التواصل بين رجال الأعمال ليس ترفًا، بل ضرورة لا مفر منها يا صديقي العزيز.. ثم هل تشعر بالغيرة من نجاح كامل هلال أو من نجاحي؟!

- أنت أعلم الناس بزهدي في أموالكم وفي تنظيماتكم.. لكني أصارحك بأني أشم رائحة شيء مريب..

- يا أخي إبراهيم، توقف عن شكوكك الأبدية وتقبل التغيير الذي تأتي به الحياة كل يوم.. لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليعمر الأرض، وهذا هو معنى الاستخلاف.. فلتصفق لنا لأننا نعمر وأنت تكتفي بالهجوم والنقد..

- سمعًا وطاعة.. سأصفق للقاء الشَّامي مع المغربي.. لكن يومًا ستنجلي الأمور وينكشف المستور..

كانت فرحة إبراهيم بثورة 25 يناير 2011 واسعة، خاصة أن ابنتيه صافي ومروة قد شاركتا منذ البداية في فاعلياتها بكل حماس، ثم سرعان ما انضم إليهما ومعه زوجته عقب يوم 28 يناير.. لقد استرد مشاعره الإيجابية

في الميدان بعد أن غابت عنه سنين طويلة.. حقًّا كانت تستفزه أحيانًا بعض مبالغات زعماء التيارات ومحترفي السياسة التي تصدر عن هذه المنصة أو تلك، كما كان يزأر إذا اقترب بعض الشبان المشاكسين من بنتيه بأكثر مما ينبغي، لكنه أحب الحالة الثورية التي استغرقته وعائلته ومن حوله، والتي أعادته لأجواء السبعينيات، وعلى أفضل صورة..

غير أنه أصيب بالارتباك في الأسابيع التالية وهو يرى سليم البطراوي متصدرًا المشهد الإعلامي، مهاجمًا بضراوة النظام السابق ومتحدثًا باسم تحالفات القوى الثورية.. كان يتوقع ذلك من أي شخص سوى سليم، والذي كان زميلاً له في جامعة القاهرة، وتعرف إليه للمرة الأولى في خضم فاعليات الحركة الطلابية.. كان سليم الطالب في كلية الزراعة يقضي يومه متنقلًا بين المجموعات الطلابية المختلفة، لا يكترث بردود الأفعال السلبية على مداخلاته التي تتسم دائمًا بالغلو وتدعو إلى الفوضى والعنف.. كان هو أول من نادى بإسقاط الرئيس السادات، وهو من ألح على اقتحام الطلاب معامل كلية العلوم؛ بهدف تصنيع قنابل المولوتوف؛ استعدادًا لمواجهة قوات الشرطة إذا فكرت في اقتحام الحرم الجامعي..

منذ تعرف إليه للمرة الأولى، أحس إبراهيم أن هذا الشاب يتسم بقدر كبير من سوء السلوك والرعونة والانتهازية.. لم يكن وحده الذي يرى ذلك، فهو لم يجد بين كل زملائه من يتصدى للدفاع عن سليم سوى كامل هلال، فقط في البداية، ثم سرعان ما أنكره هو الآخر بعد احتكاك لم يطل؛ لذلك أحس بالدهشة، ثم الاستياء والاستنكار، وبعدها القلق الشديد، لرؤية سليم البطراوي يحاول تصدر المشهد بعد الثورة، يعلن عن تأليف روابط

ثورية، يدعو للهجوم على بعض مؤسسات الدولة كوزارة الداخلية ووزارة الدفاع ومبنى البرلمان، يقف وراء العديد من الاحتجاجات الفئوية العادلة وغير العادلة، ويكاد يكون قاسمًا مشتركًا في البرامج التلفزيونية الحوارية..

ذهب يبحث عن تفسير عند طارق جاد الذي لم يكن أقل منه دهشة واستنكارًا.. ردًا على انفعال إبراهيم، عقب طارق مُسلمًا:

- معك حق، إن «سليم» يجسد التاريخ الحي للؤم والانتهازية والفشل..

- كيف لنا أن نسمح له بأن يصعد على أكتاف شبابنا الغض، ممتصًا رحيق فعلهم العطر وملوثًا مبادرتهم النبيلة؟!

- لا تقلق، ستكشف الأيام زيفه، كما حدث معه دائمًا..

- مع ذلك لا بد أن نفعل شيئًا كي لا نسمح له بأن يعود من سنوات مواته الطويلة التي كافأت أفعاله القميئة وضميره الخَرِب، ليلوث أطهر ما أنجزناه بعد عقود من العجز والجمود..

- ماذا بيدنا أن نفعل؟! الظرف الحالي يتيح الفرصة للمغامرين والمنبوذين للظهور وتصدر المشهد، ولو إلى حين..

- كما تبين لنا أيام الجامعة؛ هذا الشخص قادر على أن يزيف الحقائق، وأن يغير جلده كل خمس دقائق، وأن يبني أهرامات من الضلال والوهم، رغم علمه بأنها لن تصمد طويلًا.. فهو يعيش اللحظة ويعشق الفرقعة الإعلامية.. هو يبيع نفسه للشيطان من أجل أن يظهر في التلفزيون أو أن تنشر تصريحاته

الجوفاء هنا أو هناك.. لا يكترث للنتيجة وإنما تطربه الفوضى، ويكرس جهده للهدم لا للبناء..

لم يكن طارق جاد بحاجة للتعليق؛ لأنه يؤمن بصدق كل كلمة نطقها إبراهيم مروان الذي خطر له بعد ذلك بيومين أن يسأل سعد رمضان، بمناسبة اتصاله هاتفيًّا للتأكيد على دعوته السابقة للقاء في فندق واحة الحنين، مستفسرًا منه بوجل:

- هل دعوت، ضمن من دعوت، سليم البطراوي؟!

- دعوت كل الزملاء دون أن أفكر في إقصاء أحد؛ حتى أنجو من اتهاماتكم التي لا تتوقف..

- لكن سليم حالة خاصة، فلم يكن مشاركًا بإخلاص في الحركة الطلابية كالآخرين، كان مجرد انتهازي صغير يبحث عن فرصة للفوضى والتدمير..

- دعنا نترك جانبًا الأحكام القيمية وتقدير الأفعال، ولنلتق كزملاء قدامى تجمعنا ذكرى مشتركة، ثم لا تنس أنه قد أضحى الآن جزءًا من المشهد السياسي..

- هذا بالضبط ما يقلقني.. هل هذا لا يقلقكم؟!

- أصارحك بأننا نشعر بضعف خاص تجاه كل من خرج للشارع احتجاجًا على نظام الحكم البائد..

- حتى ولو كان ذلك لأغراض انتهازية أو حبًّا في الفوضى؟! ألا تعلمون أنه يستعد غدًا للانقضاض عليكم، كما سيفعل بالتأكيد في مواجهة أية سلطة؟!

- نحن نثق بقوتنا ومساندة الشارع لنا..

- هنا أقول لك يا صديقي إن الأيام ستظهر لكم أن الأوهام الخادعة تكون أسرع طريق للفشل، ولن أزيد فأقول لك إن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنيات الحسنة..

- هل إلى هذا الحد تستنكف دعوتي لسليم البطراوي؟!

- لم يعد ذلك مهمًّا الآن.. المهم هو ما سيترتب على هذه الدعوة إذا حدث اللقاء بالفعل في واحتك المعزولة!

■■■

6

سليم البطراوي

ظروف عنيدة وتحولات عديدة مرت بها حياة سليم البطراوي، لكنها لا تكفي وحدها لتفسير شخصيته المعقدة ومزاجه العنيف المتقلب وردود أفعاله المندفعة.. عندما شبَّ في إحدى قرى المنيا، وجد نفسه مشتتًا بين المدرسة التي أظهر فيها تفوقًا مبكرًا، وبين معاونة والده وشقيقه الأكبر في مهنة الحدادة والسمكرة الشاقة.. كانت المدرسة تأتي دائمًا في المرتبة الثانية في الأولوية، ولا يذهب إليها إلا إذا كان خاليًا من الواجبات الأخرى، مثل المساعدة في العمل داخل ورشة أبيه البدائية على قارعة الطريق، أو الجري للحقول المحيطة لحمل قطعة غيار أو وقود لموتور ري أو ماكينة رش مبيدات معطلة هنا أو هناك..

لو لم يكن متفوقًا في الدراسة يشيد به المعلمون في كل مكان، الأمر الذي أضحى مثار فخر أبيه في مجالس المصاطب في المساء، لما كان قد حصل على فرصة التعليم، ولكان مصيره مشابهًا لشقيقه وشقيقاته والغالبية الكاسحة

مـن أولاد وبنـات القريـة.. تفاخر أبيه بتفوقـه لم يحمه من العنف العشـوائي الذي كان يصيب كافة أفراد الأسرة، بسـبب تقلبات مزاج الأب الذي أدمن تعاطي الحشيش.. الرعب كان يصيبهم عندما يبلغ هياج رب البيت مداه، في الأيام التي يفتقد فيها جرعة المخدر الذي أدمنه، سواء بسبب عجز ذات اليد أو بسبب صعوبات في التزود به من المدينة القريبة..

ظل خاله الأزهري الشيخ عبد الرحيم، بكرمه وتشجيعه للمعرفة والعلم، هو سنده وسند والدته لمواجهة تعسف الأب، خاصة عندما كان يُصر أحيانًا على إخراج الولد من المدرسـة أو يرفض تحمل مصاريفها ومتطلباتها من زي أو أدوات دراسـية، ثم أيضًا في مرحلـة لاحقة، عندما اعترض على مواصلته الدراسـة في المرحلتين الإعدادية والثانويـة ورفض توفير مصاريف إقامته في مدينـة المنيا.. ظـل طوال حياته يحمـل لخاله هذا الجميل، لكنه لم يمنع نفسـه لاحقًا من السـخط عليه بسـبب تجاهله اسـتجداء والدته موافقته على خطبة كريمتـه صفيـة لولدها عندمـا التحق بكليـة الزراعة، وتفضيلـه تزويجها من محمود عبد الجواد نجل شيخ البلد..

في مدرسـة المنيـا الثانوية واصـل تفوقه، خاصة بعـد أن تحرر من ضغوط العمل مع والده وتخلص من التعرض لنوبات مزاجه المتقلب.. شارك خمسة من أبناء قريته في سـكن متواضع ودبَّر معيشـته بأقل التكاليف، إلى أن تعرف إلى رأفت السعداوي، سليل إحدى العائلات القديمة التي تجاوزت ملكيتها مئات الأفدنة فخضعت لقوانين الإصلاح الزراعي؛ وإن كانت أملاك الأسرة العقارية الأخرى قد ضمنت لأبنائها مستوًى مرتفعًا من الرفاهية والبذخ.. لجأ رأفت لسـليم لمساعدته في حل الواجبات التي يكلفه بها الأساتذة وإعادة

شرح ما يستعصي على فهمه من دروس.. في بيت زميله، تعرف سليم للمرة الأولى في حياته على مظاهر الثراء، وشاهد كيف ينفق رأفت في ليلة ما يتجاوز مصروفه لشهرين كاملين.. في معظم أمسياته، كان يهرب من زحمة الشقة المتواضعة التي يقيم بها إلى صحبة رأفت، سواء في بيته أو للجلوس معه على مقهاه المفضل أو مشاركته ارتياد حفلات السينما..

نجح سليم في الحفاظ على خيط دقيق، مكنه في جانب من مواصلة التفوق الدراسي، رغم الساعات الطويلة التي كان يقضيها بصحبة رأفت؛ حيث تعودّ الاستيقاظ مبكرًا عند أذان الفجر لحل واجباته ومراجعة دروسه قبل الانطلاق إلى المدرسة، وفي الجانب الآخر من الاحتفاظ بصداقة ورضا زميله، رغم سخطه الداخلي على تصرفاته.. لقد توصل الصديقان على نحو أو آخر لتفاهم ضمني لتبادل المصالح والمهام.. كان سليم هو رأس حربة رأفت في مواجهة المنافسين والمشاكسين من طلبة المدرسة، ووسيلته لتحسين مستواه العلمي المتردي، وإنجاز الواجبات المدرسية التي لا يكف المعلمون عن طلبها.. وفي المقابل أضحى رأفت المصدر المالي الأهم لسليم، في مواجهة متطلبات الدراسة ونفقات الإقامة في المنيا.. لم يستجد سليم مبالغ مالية محددة من زميله، لكنه استطاع بذكائه أن يوفر كثيرًا من مصاريف الطعام والشراب، وأن يدخر جزءًا مما كان يلقيه رأفت بسخاء وبرغبة في الزهو والاستعراض من هبات ومكافآت..

عندما حصل على مجموع جيد في الثانوية العامة، لم يلق بالًا لاعتراض والده على مواصلته الدراسة ومطالبته له بالبحث عن عمل؛ لتوفير دخل إضافي للأسرة التي تعاني شظف العيش.. أعلن صراحة استقلاله وأكد أنه

سيواصل دراسته، لكنه لن يطلب منهم مساعدته وسيعتمد تمامًا على نفسه.. شجعته والدته بطريقة خفية، وقد تملكها الفخر لرؤية ابنها ضمن المعدودين من أبناء القرية الذين التحقوا بالجامعة.. كان اختيار كلية الزراعة منطقيًّا وأقرب لتفكيره؛ فهو يريد لقب مهندس، ومصاريف ومتطلبات الدراسة في هذه الكلية أكثر اعتدالًا مقارنة بكلية الهندسة، ومناهجها أيسر وأقرب لخبراته السابقة، والتخرج فيها سيكون بعد أربع سنوات فقط..

قبل شهر من التحاقه بجامعة القاهرة وأثناء الإجازة الصيفية، مر بأولى تجاربه العاطفية.. كانت تسكن في البيت المجاور لهم امرأة شابة من القاهرة، أتى بها خفير الشونة العجوز كزوجة بعد وفاة زوجته الأولى.. كانت في أواخر العشرينيات، ذات طول فارع وجسد فائر، تخيل سليم أنها تتعمد ألا تخفي عنه تضاريسه كلما رأته واقفًا أو مارًّا بالقرب منها.. أصبحت المرأة تدريجيًّا تشغل خياله، خاصة أنها كانت موضوع الحديث اليومي الشيق مع أقرانه الذين تولدت لديهم قناعة بأن هذه المرأة تحتاج إلى رجلٍ؛ لأن حالة زوجها العجوز الصحية تتردى شيئًا فشيئًا، وهي القاهرية لن تطيق صبرًا على ذلك.. اقتنع أنه أقرب جيران هذه المرأة، وأنه من ثمَّ أحق من غيره بأن يكون ذلك الرجل المنشود، فأخذ يبادر لجر طرف الحديث معها بمناسبة وغير مناسبة.. بحسن نية بادلته المرأة الحديث بعفوية وتحرر نساء الحضر، خاصة أنها كانت لاتزال تنظر إليه كصبي يافع..

طلبت منه ذات مرة أن يساعدها في إصلاح ماكينة الخياطة التي تتكسب منها في حياكة أثواب فلاحات القرية، فاستجاب لفوره ودخل بيتها في غياب زوجها، ولم يدخر جهدًا في الاحتكاك بجسد المرأة أثناء قيامه بعملية

الإصلاح، على حين كانت هي تحاول النأي بنفسها وتجاهل ما يفعل.. نجح في مهمته فشكرته المرأة وحاولت أن تمنحه ربع جنيه نظير جهده، لكنه رفض وفاجأها بطلبه استبدال ذلك بقبلة.. ضحكت المرأة مندهشة ومستنكرة ودفعته خارج المنزل.. كاد أن ينصرف عن التفكير في المرأة وقد اقترب موعد مغادرته للقاهرة للالتحاق بالجامعة، لولا أن سمع صباح أحد الأيام، بينما كان يستلقي بين أكوام القش فوق سطح بيتهم، أصواتًا هامسة لرجل وامرأة، تأتي من المقعد الذي يعلو سطح جارهم خفير الشونة.. بالغ في إخفاء نفسه بين أكوام القش وأخذ في مراقبة سطح الجيران، إلى أن شاهد المرأة تخرج تتلفت يمينًا ويسارًا ثم تنزل بالسلم الخشبي إلى أسفل دارها، وبعدها بعدة دقائق فوجئ بجارهم خميس إبراهيم، السائق الذي يعمل في مجلس مدينة المنيا، وهو يخرج مسرعًا ليقفز من فوق سطح بيت الخفير إلى سطح بيته..

استرجع سليم حكايات المغامرات الجنسية التي كان رأفت السعداوي لا يكف عن تكرارها بما يلهب خياله، ووجد فيما رآه اليوم فرصته لابتزاز المرأة القاهرية والحصول منها على ما يشتهي.. في صباح اليوم التالي وبعد خروج الخفير لعمله، دق باب بيته فخرجت زوجته تستفسر، فدفعها للداخل وأغلق الباب.. قبل أن تفيق من دهشتها عاجلها بذكر ما شاهده أمس، لكنه سارع لطمأنتها بأنه لن يقدم على فضحها، إذا وافقت على أن تصعد معه إلى المقعد، وتتركه يفعل ما فعله الأسطى خميس أمس.. المرأة شبه المنهارة لم تجد حيلة في مواجهة إصرار الفتى سوى الاستجابة له.. لم يكتف سليم بتلك المرة، بل ظل ينتهز كل فرصة متاحة في إجازاته الدراسية ليواصل علاقته

بالمرأة، إلى أن كره هو نفسه الاستمرار في ذلك، فلم تعد تجذبه، خاصة حينما أدرك أنها بعد موت زوجها قد أضحت غانية القرية..

طلب سليم من رأفت السعداوي الذي التحق هو أيضًا بكلية الزراعة، أن يساعده في الحصول على عمل ينفق منه على دراسته، فنفحه لفوره خمسين جنيهًا عربونًا لصداقة ستدوم، واصطحبه في سيارته لينهيا معًا إجراءات الالتحاق بالكلية.. عرض رأفت على سليم الإقامة معه في الشقة التي تمتلكها عائلته في حي الدقي القريب من الجامعة، لكن الأخير فضل السكن في المدينة الجامعية؛ للاحتفاظ بقدر من الاستقلال عن صديقه، وخشية منه أن يتحول إلى مجرد تابع أو خادم لذلك الصديق.. وكعادته بدأ دراسته الجامعية بجدية، لتظهر على الفور ملامح تفوقه، وهو ما جعل رأفت يؤكد تمسكه بصداقته ويزيد من سخائه معه، فصرف النظر عن الالتحاق بعمل أثناء دراسته..

عايش سليم الحياة الماجنة التي دأب عليها رأفت وأخ له في شقتهما؛ حيث كانت الساقطات لا يأتين فقط من حين لآخر، بل كن يتناوبن الإقامة ويتولين النظافة والطهي وغسل الملابس وكيها، وتلبية كافة صور الاحتياجات والرغبات التي ترضي ساكني الشقة وأصدقاءهما، ومن بينهم سليم.. في أعماقه الداخلية لم يكن راضيًا عن الحياة التي يحياها؛ حيث كان يحتقر رأفت السعداوي، وأكثر منه أخاه المغرور سامي، ويستاء من تبديدهما الأموال بلا حدود.. كان يعتقد أنها أموال الفلاحين -ومن بينهم عائلته- التي حرموا منها، رغم أنها نتاج عملهم المضني في الأرض.. فبدلًا من أن يحصل هؤلاء على نصيبهم العادل، فإنه ولأسباب مختلفة قد تم وبشكل متراكم عبر التاريخ الاستيلاء عليه، من قبل الملاك، من أمثال عائلة السعداوي..

أسـهم في تشـبعه بهذه الأفـكار ذهابه المتكـرر إلى مكتبة الجامعـة المركزية بجـوار كليـة الآداب، مطالعًا قراءات حرة في غير تخصصـه.. قرأ في التاريخ والسياسـة، وتعرف على الاشتراكية والماركسية، فشدته في البداية توجهاتها، إلى أن وجد سـخطه يتجاوز الإقطاعيين والرأسـماليين إلى الطبقات الكادحة التـي ارتضـت حياة الذل والهوان، فاسـتحقت أن تُسـتغل وأن تنسـحق.. لم يصـدق فكرة الخلاص الجماعي ووجدها محض خيـال مثالي ووهـم غير قابل للتحقق.. أيقن تدريجيًّا أن سـعيه يجب أن يتجه نحو خلاصه الشخصي، وأن هدفه الأسمى هو أن يخترق كافة الحواجز الاجتماعية والطبقية؛ ليحقق لنفسه مكانة سامية، تتناسب مع ذكائه وقدراته الذاتية.. وفي سبيل الوصول لذلك، فـإن كافة الوسـائل والأدوات تكون مباحة وجائـزة.. أخذ يجرب الكتابة في صحف الحائط وينشر مقالات نارية وأشعارًا حماسية وجدت بعض الصدى لدى زملائه، فأرضى ذلك جانبًا من غروره..

بدأ يكتسب بين زملائه صبغة المتمرد الساخط على كل المؤسسات والنظم، بـما في ذلـك اتحـاد الطـلاب وإدارة الكليـة والحكومة.. اقترب مـن تجمعات الماركسـيين والناصريين ولامس الجماعات الإسلامية.. في البداية كان يشارك بحماس مفتعل، سرعان ما ينجلي زيفه، فيعقبه الرفض والطرد.. عندما بدأت بوادر الاحتجاجات الطلابية في يناير 1972 ضد سياسات الرئيس السادات، شـارك بحـماس ووجد نفسـه في قلـب الفاعليـات المتنامية وأخـذ يزايد على الجميع، متبنيًا أكثر المطالب تطرفًا وأشـد الشـعارات تهجمًا وإهانة للرئيس.. تعـرف إلى القيـادات الجديدة للحركة الطلابية مـن الكليات الأخرى، فتفرغ تقريبًا لتنفيذ كل تكليف يطلبونه منه وبحماس منقطع النظير..

لم تبهره أفكار طلاب الجماعة الإسلامية وأساليبهم في جذب الطلاب، ولم يُجد معه سِحر سعد رمضان الذي من جانبه سرعان ما قلص علاقته به بعدما سمع خطبه المهيجة.. شدته في البداية شخصية طارق جاد، وشارك في بعض الفاعليات التي ينظمها، لكنه وجده مثاليًّا أكثر مما ينبغي، فابتعد عنه.. احتك بإبراهيم مروان، فلم يتقبله، وشعر أنه يتعامل معه بريبة وتعالٍ.. وعلى النقيض من ذلك، قربه كامل هلال إليه، عندما أحس بأنه يتبنى جانبًا كبيرًا من أفكاره ويتقبل توجيهاته، ولا يجد غضاضة في أن يعتبر نفسه واحدًا من أتباعه وحوارييه..

أحس سليم أنه يجد نفسه في أحداث الحركة الطلابية، فأخذ يظهر المكبوت من سخطه على كل الأنظمة، في جو من الحرية استنشقه للمرة الأولى في حياته؛ لذلك لم يلزم نفسه، على خلاف معظم الطلاب، بأي حدود أو قيود سياسية أو أخلاقية.. كان يعتقد أنه قد آن أوان التخلص من الأوضاع القديمة دفعة واحدة، من خلال الطليعة الطلابية، لبناء حالة جديدة، تسمح ببعث طموحات وتطلعات المحرومين وهو في مقدمتهم.. كان الأمر بالنسبة له يتجاوز سياسات السادات ومسألة الحرب والسلام و قضية الكرامة الوطنية، إلى حتمية إحداث تغيير جذري في الأوضاع الاجتماعية، يفيده ويفيد من يعتبرهم مهمشين مثله..

لم يستجب لنصائح رأفت السعداوي بالهدوء وتوخي الحذر، فتم القبض عليه أثناء مظاهرات الطلاب في ميدان التحرير.. شعر بمرارة الحبس، لكنه سعى لأن يرسخ في اعتقاده أن هذه ضريبة لا مفر منها، لتحيله التجربة شخصًا جديدًا، يشعر نحوه زملاؤه بالامتنان والاحترام.. غير أنه في أحيان

أخرى، كانت تسيطر عليه مشاعر إحباط ويأس من نتيجة ما يفعله، فقد يقوده تهوره لفقد فرص التقدم لأعلى، واختراق بوتقة الفقر والذل.. لكن بعد تأمل، كان يرد على نفسه بأنه لا توجد في الحقيقة أمامه أية فرصة أخرى للتخلص من وضعه المتردي، إذا سارت الأمور مسارها المعتاد؛ فليس أمامه من سبيل سوى أن يخاطر ويقتحم المجهول ويراهن بكل شيء يحوزه؛ لخلق مسار جديد من العدم..

عندما خرج سليم من المعتقل فوجئ بطرده من المدينة الجامعية، فاضطر لمشاركة زميلين له هما إمام خليل من كلية الزراعة وإسماعيل الوكيل من كلية الحقوق في شقتهما الصغيرة في أبي قتادة.. لم يتوقف عن مشاركاته السياسية، ولا عن مداومته على اللقاء بكامل هلال وأصدقائه، في الجامعة أو في شقة متولي المهدي وراضي شعبان القريبة منه في أبي قتادة..

عندما رأى ليلى عامر تتردد على كامل هلال وتصحبه في كل مكان، انتابته نوازع غيرة لا تقاوم؛ فالفتاة جميلة ومثقفة وتهيم بحب كامل الذي يعتقد في أعماقه أنه يفضله من نواحٍ عديدة، على الأقل من ناحية البنية الجسدية القوية، ومع ذلك لا يجد هو من فتاة تهتم به سوى ساقطات شقة رأفت السعداوي.. التهب خياله بالتفكير في ليلى عامر، وحاول مرارًا أن يلفت انتباهها إليه، لكنها لم تعر محاولاته التفاتًا، بل لعلها لم تلحظها لانصرافها التام حينئذ للهيام بكامل هلال.. لم ينكر قطُّ بينه وبين نفسه هذا الإحساس بالغيرة من كامل الذي رآه ندًّا ونقيضًا يحوز كل ما كان يفتقده من ثقافة رفيعة، ومعرفة وافرة، وعلاقات واسعة بالبيئة الثقافية في العاصمة، ووهج

قيادي يجذب إليه الأتباع والمريدين، وهو من ضمنهم، إضافة إلى جذب الفتيات المتميزات، مثل ليلى عامر..

في غضون ذلك لم يتوقف عن زيارة رأفت السعداوي في شقته ليشارك في أنشطتها الماجنة، ولم يتوقف عن كتاباته ومواقفه الحماسية المعارضة للسادات، فأضحى مُتَابَعًا من رجال مباحث أمن الدولة.. غير أن ذلك لم يعد يقلقه، كما كان الأمر في البداية، بل على العكس استغله في بناء سمعة لنفسه كزعيم طلابي مناوئ للحكومة، فاكتسب في الجامعة وخارجها العديد من التابعين والأنصار، خاصة عندما اتخذ لفترة رداء ثوريًّا زاعقًا، بعدما حدثت قطيعة عنيفة بينه وبين كامل هلال وفريقه.. رسب دراسيًّا لأول مرة في حياته، لكنه عوض إحباطه بنشر مقالاته وأشعاره في صحف غير دورية تُصدرها المعارضة.. تدريجيًّا بدأ بالفعل يلقى اهتمامًا من بعض المثقفين.. قبض عليه عدة مرات وأودع السجن، لكن فترات حبسه لم تستمر في أي مرة طويلًا؛ مراعاة لظروفه كطالب.. نشر مرة في جريدة «فجر الحرية» غير الدورية إحدى تجلياته التي يعبر فيها عن معاناته الداخلية، جاء فيها:

«ليالينا أُنس وسهر ومرح حتى الصباح، في شقة بعمارة في حي راقٍ، متعة بلا خوف أو صياح، كما الحال عندنا في الزقاقْ.. من الفقر جئت، إلى البؤس سكنت، إلى الجامعة وصلت، إلى حجرة قذرة مظلمة انتهيت.. أبي وعمي وخالي والقرية فارقت، لأصبح مثل السادة، لأملك سيارة، وبذلة، وأمسك سيجارة، وصوتي يعلو فوق كل صوت في الحارة، لكنني إلى حجرة قذرة مظلمة انتهيت.. قالوا الوطن، فأحببت الوطن وبه تعلقت، شنقوا الوطن ومعه شنقت، وانتهت آمالي إلى شقة بعمارة في حي راقٍ.. في القناة

يسبح إسرائيلي، وفي بحر النجاسة بشقة في حي راقٍ، أغوص مع زملائي.. صحت من أجل الوطن، ومن أجل الطهر الذي فارقني منذ شنق الوطن، فتورمت كتفي وانساب دمي بضربة من شرطي، غسلت خطيئتي وغفر لي الوطن.. أُخذت إلى حجرة قذرة مظلمة في معتقل، فغسلت الحجرة من جديد خطيئتي، وباركني الوطن في المعتقل، وخرجت من جديد لأرى وطني يشنق من جديد، ولأنتهي مرة أخرى إلى حجرة قذرة مظلمة، أفارق فيها ثوب الطهر، ولأحلم كل ليلة بشقة في عمارة بحي راقٍ، متعة بلا خوف، إلا من لعنة الوطن».

بعد تخرجه في كلية الزراعة، أُعفي من الخدمة العسكرية لعدم اللياقة الطبية، جنبًا إلى جنب مع رأفت السعداوي الذي كان قد تكفل بدفع رشوة كبيرة لأحد الوسطاء الذي عرفه سليم عليه.. وفي انتظار تعيينه عن طريق القوى العاملة، تمكن من تدبير أموره المالية عن طريق العمل كمندوب مبيعات متنقل، في شركة استيراد للبذور، يمتلكها عم لرأفت السعداوي، بتوصية من الأخير.. غير أن عراكًا مفاجئًا خاضه مع سامي شقيق رأفت، بسبب نميمة من إحدى عاهرات شقة الدقي، حرمه من هذا العمل والدخل الذي يدره.. وفي أثناء فترة عمله تلك كان قد داوم على أن يرسل شهريًّا مبلغًا زهيدًا لأمه؛ لمساعدتها في تدبير سبل معيشة العائلة، لكنه في المقابل لم يلق بالًا لمطالبات والده الكثيرة، بل إنه كثيرًا ما كان يتبادل معه أقذع الشتائم والاتهامات عندما يزور قريته ليوم أو يومين..

قبيل مرور عامين على تخرجه تم تعيينه، عن طريق القوى العاملة، في إحدى إدارات وزارة الزراعة بالدقي، فسعى في البداية لأن يجمد نشاطه

السياسي الذي وإن لم يتوقف في الفترة السابقة فإنه كان قد هدأ قليلًا، ليمنح نفسه سمعة طيبة في عمله الجديد، قائمة على الجدية والالتزام.. بل إنه فكر جديًّا في الزواج وبدء حياة زوجية مستقيمة، خاصة بعدما انقطعت علاقته برأفت السعداوي، واستأجر شقة جديدة صغيرة في واحد من الشوارع الفرعية في حي الهرم.. غير أن ذلك كله كان مجرد تمنيات، فلم يستغرق الأمر سوى شهور معدودة، ليجد نفسه يخوض معارك تحدٍّ سافرة مع رؤسائه في العمل، فعرف طريقه للشئون القانونية والجزاءات التأديبية، متهمًا بالإهمال وعدم الانتظام في الحضور والتعدي على الرؤساء..

على إثر ذلك، أخذ يبحث عن حركات الاحتجاج والمعارضة ويتنقل بينها؛ ليسهم بنشاط في فاعلياتها. وفي الوقت ذاته، عرفت بعض ساقطات شقة الدقي طريقهن لشقته الجديدة، وانقطع عن الاتصال بعائلته تاركًا أمه وإخوته لمصيرهم.. أدرك أنه بطبيعته لا يطيق الالتزام، سواء تجاه العمل أو العائلة أو لصالح أي كيان سياسي، حزبي أو وطني.. رضي بذلك وسلم نفسه لمشاعره المندفعة وغرائزه الجامحة، محاولًا الاستمتاع بحياته لأقصى حد متاح، وإن أقنع نفسه بحجة يبرر بها كل ما يفعله، وهي الظلم التاريخي الواقع عليه وعلى طبقته الكادحة..

بعد أقل من عام جاءته فرصة ذهبية لإبراز قدراته الثورية والفوضوية، عندما خرجت الجماهير في القاهرة ومعظم مدن مصر في يومي 18 و19 يناير 1977، محتجة على قرار صدر برفع أسعار السلع والمنتجات الاستهلاكية.. كان رد الفعل الشعبي على هذا القرار عنيفًا وحادًّا من جانب معظم فئات الشعب، الأمر الذي أدى إلى أحداث دامية، تجاوز عدد

ضحاياها مائة قتيل ومئات الجرحى.. لم تتوقف الفورة الشعبية التي شارك فيها سليم بحماس وأسماها «ثورة الجياع»، حتى أعلن السادات إلغاء قرار رفع الأسعار، وفرض حظر التجول لمدة ثلاثة أيام، وأنزل قوات الجيش إلى شوارع وميادين العاصمة..

أثناء تلك الأحداث، قاد سليم وآخرون جحافل المحتجين الغاضبين في شارع الهرم لاقتحام الملاهي وعلب الليل المنتشرة بطول الشارع الشهير، لتحطم وتسرق الأثاث ولتنهب ما تحتويه مخازنها وأقبيتها من مأكولات وخمور.. وبتوجيه من سليم الذي كان في قمة نشوته، سهر سكان الحواري الفقيرة الكائنة خلف شارع الهرم في ليلة لم يُشهد لها مثيل من قبل، يستمتعون بموائد طعام وشراب عامرة.. وقف سليم سكيرًا يبرر للناس ما فعلوه بأن هذا هو أقل انتقام من تلك الملاهي التي سئموا فسقها ودعارتها وتجاهلها لجوعهم الأبدي..

عبّر في اليوم التالي عن ذلك في خاطرة أرسلها للأستاذ هلال البيومي الذي كان ينشر له من حين لآخر بعض مقالاته، لكن الأستاذ امتنع هذه المرة عن نشرها، جاء فيها:

«في حفلة الأمس الدامية، سكرنا ورقصنا، وملأنا بطوننا الخاوية.. من حشودنا تراجعت فرق الجند هلعًا، ومن زحفنا توارت الحشرات المتخمة خوفًا، ولبطشنا تدحرجت في عيوننا الدموع فرحًا.. اقتحمنا أوكار الفسق، حطمنا هياكل العربدة والفُجر، سلبنا متاعنا المسلوب أبد الدهر.. أقمنا وليمتنا الأولى، في أزقتنا المتوارية خلف الشمس، تذوقنا وجبتنا المتخمة

الأولى، بعد مجاعتنا المستديمة منذ العام الألف.. تسابقنا في الطعام، تنافسنا في الشراب، ونصبنا ميزان العدل بين أوكار الفسق والعُهر.. تصايحنا حزنًا وفرحًا، ثم رقصنا رقصة النصر والموت، وعند الفجر حطمنا الكأس».

في الشهور التالية، خاصة بعد زيارة السادات للقدس، برز نشاط سليم البطراوي في ساحة الاحتجاجات السياسية.. في البداية ضمن إطار حزب التجمع والمتحالفين معه، ثم بعد اصطدامه بكوادر الحزب، لاستنكافه مما اعتبره قيودًا حاولوا فرضها عليه، بدأ يلتحم بعدد من المتمردين الناقمين غير الحزبيين، ومنهم من كان منضمًا لخلايا ثورية سرية.. قاده ذلك إلى السجن من جديد، فمكث به حتى خرج منه عقب اغتيال السادات.. أحس بعد خروجه من السجن بالسأم والإحباط، فسعى للبحث عن فرصة عمل في الخارج، وهو ما تحقق بفضل مساعدة أحد زملاء الحركة الطلابية الذي كان قد استقر في الكويت منذ عدة سنوات.. في غضون ذلك، تزوج من فتاة من قريته، رشحتها له والدته، تعمل مدرسة لغة إنجليزية، فأنجب منها ثلاثة أبناء، في الوقت الذي حصلت فيه هي أيضًا على فرصة عمل مجزية في الكويت..

استمرت حالة سكونه السياسي نحو عشرين سنة، هي مدة إعارته للخارج، حتى اعتقد معارفه وربما هو ذاته أنه قد تغير للأبد ولم يعد ذلك المتمرد المشاكس.. غير أن الجميع كان واهمًا، فبعد شهور قليلة من عودته لعمله في وزارة الزراعة، بدأ يثير الاحتجاجات ويرفع نداء محاربة الظلم ويدلي للصحافة بمعلومات عن الفساد، قليل منها صحيح ومعظمها متخيل أو مختلق.. لم تُجدِ معه التحقيقات والعقوبات التأديبية، بل إنه وجد في مبالغاته الاحتجاجية، والنشر الذي حرص على أن يغطيها، خير حماية له

مـن أي تعسـف قد تقـدم عليه الحكومـة في مواجهته.. لقـد أصبح على نحو أو آخر شـخصية عامة، تغطي صحف المعارضة وأحيانًا الصحف الحكومية ذاتها أخبار نشـاطاته واتهاماته.. فرغ نفسـه للاتصـال بالمحتجين وأصحاب المظالم الفردية والجماعية؛ لتشـجيعهم على الحضور للقاهرة لعرض مطالبهم، ليس فقط على قيادات الوزارة، ولكن أساسًـا على وسـائل الإعلام، مع كثير من المبالغة، وإغفال تام لرد ومبررات الجهات المعنية..

انتابه شـعور بالرضا لاسـترداد حالته الثورية التي تجمـدت فترة إعارته، فأعـاد تأكيـد قناعاته بأنه خلـق ليقود الثورة ضد كل الأنظمة والمؤسسـات، التـي طغـت وظلمت الناس على مدى السـنوات والعقـود الماضية.. فلتكن تلك الحرب المسـتمرة ضد الحكومة، أي حكومة وكل حكومة، هي انشغاله وهدف حياته، ولن يعوقه عن ذلك أي خوف أو خشية.. فقد أدمن الجزاءات التأديبيـة وفقد كل فرص الترقي ولم يعد يخشـى السـجن الـذي اعتاده، ولن يقلـق على أبنائه؛ حيث اختفى تأثيره عليهـم منذ عودتهم من الكويت.. فقد تولـت زوجته القيادة، بفضل تحكمهـا في مدخراتهم وقيامها بالإنفاق عليهم مـن عملها في إحـدى المدارس الخاصـة.. لقد أراحـه ذلك وفرغه لرسـالته التـي تبناها وغزت مشـاعره واسـتقرت في يقينـه: إذا كان هنـاك ظلم منظم تمسـك خيوطه الحكومات فلا بد أن يقابله مقاومة منظمة، لها فرسـانها وهو في مقدمتهـم، مـن أدواتها بـث الفوضى والارتبـاك في الهيئات والمؤسسـات العامة..

لذلـك عـلى حين كان زملاء سـليم البطراوي، والمحتكـون به عن قرب، يرونـه فوضويًـا مهرجًا صاحب نشـاط أجوف هـدام، كانت الصـورة التي

ترسـمها له الصحـف المعارضة والمسـتقلة في أذهان القراء تتمثـل في المدافع الثوري الصلد عن المظلومين والمضطهدين، والمحارب الشـجاع ضد الفساد والمفسـدين؛ وهـو الأمر الذي مكنه في أعقاب 25 ينايـر 2011 من احتلال الصفـوف الأولى بين مدعي أبوة الثورة الجديـدة.. كيف كان يمكن أن ينكر عليـه أحـد ذلـك وصورتـه حـاضرة في كل احتجاج سـابق على الثـورة، أيًّا كان موضوعـه أو هدفـه؟! وكيف كان يمكن لأحد أن ينسـى صورة وجهه الدامي؛ بسـبب دفعة من شرطي أمام نقابة الصحفيين في شـارع عبد الخالق ثروت؛ تلك الصورة التي انتشرت في وسائل التواصل الاجتماعي، وأبرزتها جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان المحلية والعالمية..

بعـد الثـورة أخـذت البرامـج الحوارية في التلفزيون تسـعى لاسـتضافته بإلحاح، لدرجة التنازع بينها، فكان يضطر لأن يقضي معظم أمسياته في مدينة الإنتـاج الإعلامـي، متنقلًا بين محطة وأخـرى، حتى يُرضي الجميـع؛ متقبلًا في البدايـة بحـرج مكافـأة نقدية للظهور فيهـا، ثم ملحًّا ومشـترطًا الحصول عـلى تلـك المكافأة للمشـاركة.. أما الصباح فـكان يسـتغرقه في الوقوف بين المتظاهريـن والمحتجين والمطالبين بمزايا فئوية.. لم يعد نشـاطه مقصورًا على وزارة الزراعة، بل اتسـع لكل صور ومظاهر الاحتجـاج أيًّا كان موضوعها أو مدى مشروعيتها.. لم يكن مجرد واحد من المحتجين، بل كان يحتل المقدمة، ويستدعي الصحفيين والمصورين والإعلاميين الذين يتواصل معهم، ليصوغ أمامهم أقصى المطالبات تطرفًا، ويستخدم أقسى عبارات الهجوم اللاذع على المسئولين غير المتجاوبين مع أهداف الثورة..

أيقن أن نفوذه الإعلامي مرتبط بشدة هجومه على مسئولي النظام السابق ومسئولي المرحلة الانتقالية، ومدى ما تتضمنه تصريحاته من قسوة ومبالغة.. كان هذا النفوذ مرتبطًا كذلك بتكثيف مشاركته في أعنف صور الحصار للمنشآت والوزارات، وقطع الطرق، والتهجم على ضباط الداخلية والمجلس العسكري.. أدمن المبالغة في كل ذلك، وبدل تحالفاته ليكون إلى جانب القوى الأكثر تطرفًا وادعاء بالثورية الخالصة، بل إنه أعلن عن تزعمه لكيان جديد سماه الجبهة الثورية الطليعية المتحدة، وبهذه الصفة استضافه المسئولون، وتحاور معه زعماء الأحزاب والتحالفات الأخرى، بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين، تمهيدًا للانتخابات القادمة..

شاركته في حماسه الثوري نادية البيطاش، امرأة أربعينية مطلقة، مازالت تحتفظ بمسحة جمال قديمة، لم تنجب وتفرغت للأنشطة الاحتجاجية والفاعليات الميدانية.. جمعتهما الأرصفة والمظاهرات والاجتماعات، وأحس بأنها تقترب منه شيئًا فشيئًا.. غزته ذكريات شقتي الدقي والهرم في السبعينيات.. حاول أن يقاوم احترامًا لسنوات الإخلاص الزوجي اللاحق، لكنها كانت مقاومة يائسة لنهم نحو ملء فراغ عاطفي وشبق جنسي طال أمده.. عرفا طريقهما إلى الفنادق الرخيصة في وسط البلد وكذلك إلى شقتها في المنيرة.. خفف من تأنيب ضميره دأب زوجته على تجاهل كل ما يفعله، وسلوكها العدواني في مواجهته في الشهور الأخيرة.. لم تعد تسأله ماذا فعل؟ وأين كان؟ لم يعد مبيته خارج المنزل يثير استغرابها، ولم يعد ظهوره التلفزيوني المتكرر يثير اهتمامها، بل كثيرًا ما كانت تسخر منه مستهزئة به، حتى في وجود أولادهما..

رضي بهـذه الحياة المزدوجة، وأعجبـه في نادية جرأتها، وميلها الدائم مثله لتخطـي كل الحدود وتحطيـم كل القيود التي درج الناس على التعارف عليها سياسـيًّا أو اجتماعيًّـا أو أخلاقيًّا.. سـخرت منـه عندما عـرض عليها حرجًا الـزواج بهـا، قائلـة بثقة إنها اعتبرت نفسـها منـذ منحته نفسـها للمرة الأولى متزوجـة بـه عرفيًّا، وهـذا يكفيهـا ويجنبها التعقيـدات الاجتماعيـة للزواج الرسمي.. أعجبته حكمتها التي حررت ضميره من أي ذنب تجاهها، وجنبته في الوقـت ذاته مغبة الانهيـار المحتمل لعلاقته بأفراد عائلته.. كان ذلك أيضًا إذنًا له بالانطلاق في مغامرته العاطفية والجنسية الجديدة، في وقت استعذب فيه وضعية الزعيم الاحتجاجي، مفرغًا نفسه لمتطلباتها التي أخذت تستغرق كل وقته وجهده.. لكن الأمر لم يسلم من نوبات ضمير حادة كانت تقتحمه بين الحين والآخر، سأل نفسه مرارًا:

وماذا بعد؟! ألا تتسرب مني حياتي في هذا النشـاط والضجيج المحموم؟ وتلك الممارسات الحسية التي استسلمت لها؟ هل هذه فعلًا الحياة التي تمنيتها منذ كنت صغيرًا؟ هل هذا هو الخلاص الذي تمنيت الحصول عليه؟ ماذا يفيد في المحصلة النهائية المكسـب المـادي والبروز الإعلامي؟! أليس جلوسي مع أولادي والاقـتراب من عالمهم أكثـر جدوى؟!.. فأنا لم أعد أراهم تقريبًا، لا يطلبون مني شيئًا، ولا يستفسرون مني عـن شيء.. هـم غائبون عن حياتي وأنا غائب عن حياتهم، يكتفون بأمهم التي تقوم لهم بكل شيء.. يا له من تناقض مفزع وأنا أجد نفسي في الميادين والشوارع محاطًا بالعشرات وربما بالمئات من الشـباب والفتيـات الثائرين المحتجين، لكن ليس من بينهـم أبنائي! لم ينزلوا مرة واحدة إلى الميدان.. عندما طلبت منهم ذلك مرة في بداية أحداث الثورة،

نظروا إلي بدهشة، بينما أخذت زوجتي تهاجمني وتهزأ مني ومن أفعالي.. أيضًا أفتقد شقيقي وشقيقاتي في القرية؛ حيث انقطعت صلتي بهم وبأولادهم منذ زمن طويل.. آخر مرة رأيتهم كانت في جنازة أمي منذ نحو عشر سنوات.. ألا يعني كل ذلك أنني قد أضعت حياتي دون جدوى؟!

غير أن هذه النوبات لم تكن لتستمر طويلًا، ومن ثم لم تترك أثرًا عمليًّا على مجريات حياة سليم، فسرعان ما تشده الفاعليات التي لا تنقطع، فينجرف للمشاركة فيها بحماس، على الأقل هربًا من معاناة مواجهة النفس..

جاء اتصال سعد رمضان به لدعوته للقاء واحة الحنين وهو في أوج تألقه السياسي وظهوره الإعلامي، فأبدى في البداية بعض التمنع، متحججًا بتقززه من لقاء شخصيات من النظام البائد، من أمثال كامل هلال، لكنه عاد ليوافق، مشترطًا سيارة خاصة وجناحًا مميزًا في الفندق، وهو ما وعده به سعد.

7

كامل هلال

ثلاث أزمات كبرى يعتبرها كامل هلال هي أصعب ما واجهه في حياته، لعل آخرها هي الأشد وقعًا عليه، عندما طلب منه وزير الاستثمار تقديم استقالته من رئاسة الشركة الكبرى التي يديرها منذ أربع سنوات.. بدأ الوزير حديثه بمقدمة طويلة عن احترامه لكفاءته وتاريخه المتميز في القطاع الصناعي، لكنه عرج على الوضع السياسي بعد ثورة 25 يناير 2011 والتأثير الكبير للشارع والميدان، ومطالبتهما بسرعة عزل كل رموز الحزب الوطني المنحل.. كان كامل هلال ينظر للوزير ساهمًا، متوقعا ما سينتهي إليه حديثه المجامل بطلب تقديم الاستقالة، وهو ما كان في كل الأحوال متيقنًا منه منذ تنحي مبارك عن الحكم في 11 فبراير الماضي..

كان يعرف الوزير الذي أتى من الجامعة بعد الثورة، فكثيرًا ما كان يستعين به وبغيره من الأساتذة، في وضع المخطط الاستراتيجي للصناعة المصرية، وهو الملف الذي كلفه به الحزب في السنوات الأخيرة.. رأى أن

الوزير لا حيلة له في الأمر، وأيًا من كان قد أتى وزيرًا كان سيطلب منه ذات الطلب.. تركه للشركة لا يقلقه، بقدر ما يخشى من الملاحقات القضائية المحتملة، والاتهامات المتوقعة بقضايا فساد وسوء استخدام للمال العام.. لقد بدءوا بكبار المسئولين وسينتقلون تدريجيًا لبقيتهم.. كان يشعر بأن روح انتقام تحرك الشارع، ولا بد من أن يكون لها من ضحايا، وهو مرشح بقوة لأن يكون واحدًا من هؤلاء..

بادل الوزير عبارات المجاملة واعدًا بإرسال استقالته في الغد، حتى يتسنى للوزير طلب عقد اجتماع طارئ لمساهمي الشركة، لقبول الاستقالة واختيار مسئول جديد.. غادر مبنى الوزارة ساهمًا، وإن لم يشعر لا بالمفاجأة ولا بالسخط، مفكرًا بأنه ربما قد آن الأوان ليفكر في مغادرة مصر، مستجيبًا لإلحاح لينيا زوجته السويدية في قضاء بقية حياتهما في أوروبا.. لم يرزقا بأطفال رغم استمرار زواجهما لحوالي ربع قرن.. لقد تعرف عليها أثناء دراسته في ستوكهولم، حينما حصل على منحة للحصول على الدكتوراه في الهندسة الكيميائية.. كانت من بين طالبات الدراسات العليا اليساريات الناشطات في الجامعة، فانجذب إليها، وقبلت الرجوع معه لمصر ليتزوجا ويقيما في حي المعادي الهادئ..

لم تكن في جمال أو جاذبية ليلى عامر، لكنها كانت على الأقل تشاركه أفكاره وتسانده في الصراعات التي لم يكف عن خوضها، ولم تتخل عنه رغم تبدلاته الفكرية التي أبعدت عنه العديد من أصدقاء الماضي.. كان يعلم أنه ليس من السهل على الآخرين التعامل معه وتقبل اعتداده بنفسه وتحولاته المفاجئة، لكن لينيا تقبلت كل ذلك، وتمكنت من احتوائه والوصول لأعماقه

أكثر من أي امرأة أخرى عرفها في حياته.. كان في منتصف الثلاثينات عندما تزوجها، على حين كانت هي في أواخر العشرينات، حريصة على أن تُنجح علاقتهما الزوجية، رغم الشكوك التي عبر عنها أصدقاؤها في السويد..

في طريقه لبيته في المعادي استرجع سنوات عمره التي مرت متسارعة، منذ نشأته في شارع الخلا، لأب مثقف ونقابي نشيط، يعمل موظفًا في وزارة الثقافة، وأم ربة بيت، توفيت وهو في الثانية عشرة من عمره.. كانت وفاة والدته بأزمة قلبية مفاجئة المأساة الأولى في حياته، حيث افتقد حضنها الحنون الذي كان يسبغ عليه كل الحب والرعاية، خاصة مع اعتلال صحته أثناء مرحلة الطفولة، وما أورثه ذلك من ضعف في بنيته الجسدية..

ذات مرة سألته ليلى عامر عن سره الدفين، فأجابها بصدق نادر: إنه شجنه الليلي في كل مرة يدلف فيها داخل شقتهم ولا يجد أمه في انتظاره.. عودته أن تكون في الشرفة وعند مدخل الباب تنتظره عندما يرجع من مدرسته، تبقيه في حضنها دقيقة أو دقيقتين قبل أن تعتقه، لتسرع بإعداد وجبة الغداء.. لقد احترم دائمًا أباه وتعلم منه الكثير، لكنه ظل يفتقد حضن أمه ولغة حنانها الصافي التي استغرقته منذ اكتسب الوعي.. اعترف لليلى عامر أنه مازال حتى الآن، وهو طالب في الجامعة، ينهض ليلًا يبحث عنها ويبكي من الألم عندما يتذكر أنه قد فقدها وللأبد.. في السنة التي أعقبت وفاتها، اعتاد أن يستيقظ فزعًا في منتصف الليالي على كابوس فقدانها، فيبكيها وهو يتقلب في سريره، ليفاجأ غير مرة بوالده يدخل عليه حجرته ويشاركه البكاء ويقضي بقية الليل ممددًا إلى جواره.. استمعت له ليلى وقد فرت الدموع من عينيها، فأخذت تربت على يديه هامسة:

- من يراك من الخارج معتدًّا بنفسك، قويًّا ومستغنيًا عن الآخرين، لن يمكنه إدراك عمق مشاعرك تجاه أمك، ومدى ألمك الداخلي بسبب فقدانها مبكرًا.

ظل الأب بعد وفاة زوجته مكرسًا حياته لطفله الوحيد، حريصًا على تعليمه وتثقيفه والعناية به، معتبرًا أن ذلك هدف حياته الأسمى.. استجاب كامل لطموحات والده وأظهر ذكاء حادًّا منذ نعومة أظفاره، مكنه من التفوق الدراسي، ومجاراة أصدقاء والده من المثقفين والفنانين والنقابيين في حواراتهم التي لا تنقطع.. كان اللقاء بهؤلاء متعة تسعده، خاصة عندما كانوا يجتمعون مرة على الأقل أسبوعيًّا لدى الفنان التشكيلي حاتم البنان، في ساحة مقبرة أميرة من الأسرة المالكة السابقة، قريبة من مسكنهم، اتخذها البنان مرسمًا ومستقرًّا فنيًّا وثقافيًّا له.

تكونت شخصيته تدريجيًّا من خلال النقاشات والحوارات المتصلة مع والده وأصدقائه المثقفين، والقراءات الواسعة التي وجهوه نحوها، وحضور بعض الأنشطة النقابية التي كانت تأخذ الكثير من اهتمام والده.. تعرف مبكرًا ومنذ المرحلة الثانوية على الفكر الاشتراكي.. انضم لفترة محدودة لمنظمة الشباب، لكنه اصطدم بالموجهين الذين اتهمهم بتبني الرؤى البرجوازية وتجاهل العمل على تحقيق تطلعات الطبقة العاملة الكادحة.. قرأ المانفستو الشيوعي وكتاب رأس المال لماركس وأنجلز، وحفظ بعض مقاطع منه، أسمعها متفاخرًا لوالده وأصدقائه.. أحبه واعتنى به محمود البهتيمي، الكاتب والصحفي اليساري اللامع، فدعاه لحضور لقاءات وندوات

المثقفين، وشـجعه على كتابـة مقالات قصيرة عن الاشـتراكية نشر له بعضها وهو لايزال طالبًا في المرحلة الثانوية..

كان الأول على مدرسـته في الثانوية العامة، فالتحق بكلية الهندسة جامعة القاهـرة وحصل على منحـة التفوق.. حافظ على تميزه الـدراسي في الجامعة، لكنه خصص معظم وقته للنشاط الثقافي والسياسي، خاصة مع تنامي الحركة الاحتجاجيـة الطلابيـة بعد أحكام الطيران في عهد عبـد الناصر، ثم مع تولي أنور السـادات الحكم وتراجعه عن الخط الناصري.. اكتسـب مكانة متميزة بين أصحاب التوجه الاشتراكي من طلاب الكلية وشارك بحماس في الحركة الطلابيـة في مطلـع عام 1972، حيث تعرف على ليـلى عامر التي مثل تخليها عن علاقتها به الصدمة الثانية في حياته..

في سـعيه للتميز، ودأبـه على القراءة، واتسـاع مداركه بفضـل الحوارات بين المثقفين التي داوم عليها منذ سـني عمره المبكرة، كان يبدو دائمًا أكبر من سنه، قادرًا على أن يبهر من حوله، فيسلمون له بالقيادة.. أورثه ذلك اعتدادًا شـديدًا بالنفس، وهو ما اعتبره بعض منافسيه نرجسية وغرورًا غير مقبول.. عندمـا رأى للمـرة الأولى ليلى عامر تتحرك بين المشـاركين في الاحتجاجات الطلابيـة، أبهرته بجمالها وأناقتها، فسـعى للفت انتباهها نحوه، وهو ما نجح في تحقيقه منذ اللقاء الأول.. كان حريصًا على استعراض نواحي تميزه الفكري والحركـي، لكن دون أن يقلل من شـأن تميزها هي أيضًـا.. أدرك أنها لا تقل عنه اعتدادًا بنفسها وتمسكًا باستقلالها.. كانت الشهور التي أعقبت ذلك من أسـعد أيام حياتـه، مفعمة بالعاطفة والنشـاط والثقة بالنفـس، رغم تعرضه

للاعتقال لمدة فاقت تلك التي تعرضت لها ليلى عامر، واستمرار ضباط أمن الدولة في مضايقته حتى بعد الإفراج عنه..

عندما انهارت فجأة علاقته بليلى عامر، اعترف لنفسه أنه قد ارتكب أخطاء جسيمة ولم يحسن التصرف مع فتاته في كثير من الأحيان.. كان يعتمد على قدرته على الإبهار، بثقافته الواسعة، ومبادراته الجذابة، وسيطرته على حوارييه وأتباعه الذين يؤمنون بأفكاره الطليعية.. غير أن تلك الأمور لم تكن لتستمر طويلًا في التأثير على فتاة عنيدة وقوية الشخصية كليلى عامر، تربت على الاستقلال والثقة بالنفس.. عندما أصرت الفتاة على تركه، عاودته كوابيس المنام ومزقه الألم ولم يتعاف من ذلك إلا بمرور شهور وربما سنين.. كان حبًّا حقيقيًّا وعاطفة جياشة نحوها، لكنه من فرط حمقه وغروره لم يشعرها بذلك، فتسربت من بين يديه في لحظة غادرة، فشلت بعدها كل محاولاته للرجوع إلى ما كان.. فسرها هندسيًّا بأنها مشكلة فارق توقيت؛ فهي كانت تحبه بشغف، وهو لم يشعرها حينئذ بصدق حبه، فخبت تدريجيًّا مشاعرها، وحينما أراد أن يعبر لها بقوة عن مشاعر حبه، فإن ذلك قد أتى متأخرًا وفي التوقيت الخطأ.. لو كان أقل غرورًا واستسلم لحبها وتوقف عن مجادلاته الجوفاء واعترف بذلك منذ البداية لاحتفظ بحبها للأبد!

بعد تجاوز محنة الفراق وصدمة الهجر، لملم شتات نفسه وقرر أن يظهر أقصى قدر من الصلابة، فبدا أكثر راديكالية في توجهاته الفكرية والسياسية، وأكثر تحديًا واستفزازًا لمنافسيه السياسيين في الجامعة وخارجها.. لم يحتفظ بصداقة حقيقية خارج نطاق أنصاره السياسيين إلا مع طارق جاد، رغم تباين في الآراء والمواقف ازداد اتساعًا عبر الزمن، لكنه كان يشعر دائمًا بالاطمئنان

والثقـة عندمـا يحاور طارق ويفـضي له بهمومه.. عمل فـور تخرجه في مصنع للأدويـة في الأميريـة.. أصبح سريعًا قيـادة نقابية وانتخـب عضوًا في مجلس الإدارة ممثلًا للعاملين.. انضم لمنبر اليسـار فور قيامه، ثم لحزب التجمع عند إعلانه، وواصل بين الحين والآخر نشر مقالاته السياسية في جريدة الأهالي.. اعتقل في عهد السادات مرتين أخريين، الأولى عقب الاحتجاجات الواسعة على ارتفاع الأسعار في يناير 1977، والثانية ضمن موجة اعتقالات سبتمبر 1980 قبيل اغتيال الرئيس..

بعـد خروجه من السـجن في المرة الأخيرة، قرر مواصلة دراسـاته العليا، فنجح في أعوام قليلة في الحصول على درجة الماجستير، بفضل ذكائه وتركيزه على هـذه المهمة، ثم أخذ يراسـل الجامعات الأوروبيـة للحصول على منحة للحصـول على درجـة الدكتوراه، حتى حـاز قبولًا من جامعة سـتوكهولم في مطلـع عـام 1983، في ذات الوقـت الـذي كان طارق جاد قد أنهى رسـالته للدكتـوراة وعـاد من فرنسـا.. لقد ذهـب إلى أوروبـا وكله حمـاس للمعرفة والاحتـكاك بالغـرب والتعـرف عـلى التيـارات الفكريـة المختلفـة، خاصة اليسارية منها..

في بدايـة تعرفـه عـلى الحـركات السياسـية السـويدية التقـى طلابًـا مـن التروتسـكيين الذين يتميـزون بالدأب على التحرك والتواجـد في الفاعليات الطلابيـة والحـرص عـلى توزيع منشـوراتهم وإقامـة معارضهم كل أسـبوع تقريبًا.. غير أن الحوار معهم لم يرحه؛ لما لاحظه من تطرف في المواقف وغلبة التعصب الأيديولوجي على آرائهم.. في المقابل جذبته لينيا، بعد تعرفه عليها مصادفـة في المطعم الجامعي، لحضور بعض لقاءات حزب العمل الاجتماعي

الديمقراطي الذي يتبنى مفاهيم اشتراكية أكثر اعتدالًا، ويقود البلاد منذ عقود..

كان كامل هلال ومنذ كان في مصر، معجبًا بشخصية أولف بالمه زعيم هذا الحزب ورئيس الحكومة السويدية.. كان يقدر له تبنيه سياسات عدم الانحياز والوقوف بقوة ضد أمريكا في حرب فيتنام ومناهضة الاستعمار والإمبريالية وتشجيعه لحركات التحرر الوطني، خاصة موقفه الصارم ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقيا وتأييده لقضية الشعب الفلسطيني.. لذلك لم تجد لينيا صعوبة في جذبه لتوجهات حزبها الاشتراكي المعتدل، بعيدًا عن قناعات كامل المستقرة من قبل بتأييد المبادئ الشيوعية الراديكالية.. ساعد على ذلك أيضًا التغير الكبير الذي شهده الاتحاد السوفيتي على إثر مبادرات جورباتشوف نحو تبني سياسات إصلاح وتحديث للنظام الشيوعي العتيق قائمة على المصارحة والمكاشفة (البيروسترويكا والجلاسنوست)..

كان كامل هلال على مدى سنوات دراسته في الخارج يتابع بشغف هذه التطورات في روسيا وتأثيراتها على بقية الدول الاشتراكية، وكذلك انعكاساتها على مصير الأحزاب الشيوعية في الغرب.. فقد لاحظ أنه في فرنسا بدأ الحزب الشيوعي يفقد بسرعة التأييد الشعبي، بعد أن كان قد حصل على أعلى نسبة تصويت لصالحه مع جورج مارشيه في انتخابات الرئاسة عام 1981.. وفي إيطاليا سار أكبر الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية منذ الحرب العالمية الثانية نحو التفكك والانهيار.. وفي السويد نفسها تضاءل تدريجيًا تأثير حزب اليسار الشيوعي ليتحول تقريبًا إلى حزب هامشي، مثله في ذلك مثل حزب التروتسكيين..

هزت هذه التطورات، والمناقشات التي كانت تثيرها في وسائل الإعلام وبين المثقفين، أفكار كامل هلال، فاعترف لنفسه، ثم للينيا بخطئه في الانسياق كأعمى نحو تبني الفكر الشيوعي، كما صاغه ماركس وأنجلز وحاول تطبيقه لينين وستالين.. سلم بأن النظرية ليست بدرجة الإحكام التي تخيلها، وأن التطبيق قد جاء مخيبًا للآمال، وأن الانهيار آت لا محالة.. لهذا عندما بدأ الاتحاد السوفيتي في التفكك، وتخلى الحزب الشيوعي الصيني عن أفكار ماركس الاقتصادية، وتبنت أوروبا الشرقية، وكذلك روسيا فيما بعد النظام الرأسمالي بديلًا عن الاشتراكية، أحس كامل بصواب تقديره المبكر، وإن شعر في الوقت ذاته بأنه يفقد مذاق سنوات نضاله منذ كان طالبًا في المرحلة الثانوية..

كان هذا هو التحول الفكري الأول الذي مر به كامل هلال، والذي لم يكن يسيرًا.. عندما كتب إلى الأستاذ محمود البهتيمي عما يشاهده في أوروبا، وقناعته بضرورة تجاوز معطيات النظرية الماركسية التقليدية والانفتاح على التبدلات الكبرى التي يشهدها العالم في أواخر القرن العشرين، تلقى تعقيبًا حادًّا من الأستاذ وتحذيرًا له من السير على خطى المرتدين التحريفيين الذين فقدوا القدرة على الصمود في مواجهة موجة الليبرالية الرأسمالية العاتية التي يقودها ريجان في أمريكا وتاتشر في بريطانيا.. ظل كامل محبطًا لعدة أيام، مدركًا جسامة القطيعة التي يمكن أن تحدث مع رفاق وأصدقاء الماضي إذا تمسك بنهجه الجديد.. اضطر لأن يصارح لينيا بالمأزق الذي يواجهه، فاقتربت بوجهها من وجهه ونظرت في عينيه قائلة ببساطة:

أنت رجل حر، ويجب أن تتمسك في كل الظروف بهذه الحرية.. إذا كنت مقتنعًا بما تؤمن وبما تفعل فلا تلق بالًا للآخرين، أيًا كانت أهمية تواجدهم في حياتك الماضية.. فالأصدقاء يتغيرون والمواقف تتبدل ولا يبقى ثابتًا سوى تقديرك لنفسك واحترامك لقناعاتك..

استغرق الأمر عدة أسابيع من المعاناة وتقليب الأفكار على وجوهها المختلفة، إلى أن حسم كامل رأيه، بأنه قد طلق إلى غير رجعة النظرية الماركسية، وأنه من الآن فصاعدًا سيتبنى التوجه الاشتراكي الديمقراطي المعتدل.. توقف عن دفاعه عن ديكتاتورية البروليتاريا وبدأ تبشيره بالمشاركة الاجتماعية، والتأكيد على واجب الدولة في حماية الفقراء، من خلال أدوات أقل حدة وأكثر فعالية، كالضرائب التصاعدية والإعانات والضمان الاجتماعي.. لم يجرؤ على معاودة الكتابة للأستاذ البهتيمي أو إلى أي من رفاقه السابقين .. عندما عاد إلى مصر وحاول الدفاع عن أفكاره الجديدة، لم يجد منهم تفهمًا أو تشجيعًا، فتقطعت تدريجيًا الصلات مع معظمهم.. الوحيد الذي تفهم تحوله واستمع له بشغف كان طارق جاد الذي لم يكتف فقط بذلك، بل خصص لعدة مرات ندوته الأسبوعية، ليحاضر فيها كامل هلال عن التغيرات الجديدة سياسيًا واقتصاديًا في الشرق والغرب.. بعدها عكف كامل على عرض أفكاره في سلسلة من المقالات في صحيفة يومية بارزة، مما لفت إليه أنظار المفكرين والمسئولين..

في الوقت الذي حدثت فيه فرقة وقطيعة مع أصدقاء الماضي من اليساريين، اقتربت منه قوى وتيارات أخرى أقل راديكالية، وجدت فيه مفكرًا معتدلًا ومثقفًا متميزًا يصلح كواجهة سياسية مقبولة لها، لكنها كانت قوى هامشية

ضعيفة التأثير في المجتمع.. بحسه السياسي الفطري أدرك كامل أن هذا ليس زمن الأحزاب، فالدولة تهيمن على كل شيء وتحرك كل شيء، وأن التفاعلات السياسية التي يحتفي البعض بها ليست سوى فقاعات محدودة التأثير والأجل.. ركز جهوده في مصنعه ليكتسب سمعة طيبة في تخصصه، ولهذا سعى خلفه العديد من شركات الدواء في القطاع الخاص..

قرب أواخر التسعينات طلب إجازة من شركته ليتولى إدارة مصنع أدوية جديد تابع لإحدى الشركات متعددة الجنسية، فرسم بذلك خطوط تحوله الثاني متعاونًا مع المؤسسات الرأسمالية العالمية.. في هذه المرة لم يتضامن معه طارق جاد، بل سخر من قراره.. قرأ في دوريات اليساريين نقدًا مبطنًا وصريحًا له كنموذج للمتحولين الذين باعوا ضمائرهم ومبادئهم لقاء حفنة من الدولارات.. كان مثل هذا النقد يؤلمه، لأنه لم يعتقد للحظة واحدة أنه خالف ضميره أو تنكر لقضية العدالة الاجتماعية التي ظل مؤمنًا بها.. كل ما فعله هو أنه عرف أكثر وتعلم أكثر واختبر الحياة أكثر، فاكتشف أن الأدوات الأنجع لتحقيق تلك العدالة ليست التأميمات ولا مصادرة الثروات ولا احتكار الدولة للاقتصاد، إنما تشجيع التشغيل عن طريق الزيادة المتواصلة في حجم الإنتاج..

مصر متشبعة بالمنظرين والمتسيسين، لكنها تحتاج إلى منتجين مخلصين، وهذا هو مجال إسهامي الحقيقي الذي ستدركون قيمته إن لم يكن اليوم، فغدًا..

قالها كامل بامتعاض لطارق جاد عندما انتقد تحوله للعمل في خدمة المؤسسات الرأسمالية الأجنبية..

في تلك المرحلة حاول أن يجمد نشاطه الفكري والسياسي ويركز على عمله، فحقق نجاحًا مبهرًا دفع كبار المسئولين في وزارة الصناعة والقطاع العام لمطاردته، على أمل إقناعه بالعودة لتولي انتشال إحدى كبريات شركات الأدوية العامة من تعثرها المزمن.. بدافع وطني كان لايزال يلح عليه وبرغبة في إثبات الذات قبل التحدي، فأنهى إجازته وعاد رئيسًا لمجلس الإدارة وعضوًا منتدبًا لتلك الشركة.. سرعان ما أثبت كفاءته الإدارية وأعاد التوازن لشركته، بعد سلسلة محكمة من إجراءات قاسية قادت لإصلاح الهياكل المالية والإدارية.. عقب ذلك بدأ يتكيف مع البيئة الحاكمة لقطاع الأعمال والآلة الحكومية الضخمة التي تهيمن على مقدرات البلاد، وأخذ يحتك للمرة الأولى بشكل مباشر بدوائر الحكم ويتعرف على الخطوط التي تربطها ماليًّا وسياسيًّا..

أحس أن سنوات النضال قد ولت سواء تحت راية الشيوعية أو في ظل قناعات الاشتراكية الديموقراطية.. حقًّا كان قد عاد إلى نشر مقالاته الاقتصادية والسياسية في الصحف، وإلى الظهور من حين لآخر في البرامج الحوارية في التليفزيون، لكنه كان يفعل ذلك بلا حماس، معليًا من صورة الخبير الاقتصادي المتمكن، على حساب صورته القديمة كناشط سياسي.. غير أن ذلك لم يستمر سوى بضع سنين كان يحضر نفسه فيها لتحوله الثالث، الذي دَوَّى بإعلان انضمامه إلى اللجنة الاقتصادية والأمانة العامة للحزب الوطني.. منذ هذه اللحظة انقطعت علاقته بمعظم أصدقاء الماضي بمن فيهم طارق جاد، على حين أخذ آخرون يتقربون منه، مراهنين على أنه سيكون من نجوم الحكم في مصر في السنوات القادمة..

اعتمد على ذكائه في كل خطوة يخطوها، مدركًا أنه من الآن فصاعدًا سيدوس على ألغام لا تنتهي، ليس فقط من جانب المعارضين والحاسدين، بل خصوصًا من جانب زملاء الحزب والسلطة الذين يبتسمون طويلًا في وجهه، ويبادرون لشده لأحضانهم رغمًا عن تحفظه وعدم حماسه البادي.. كان في أعماقه يحتقر معظمهم، موقنًا أنهم يمارسون النفاق كما يتنفسون، وأن الغباء قد خيم على أدمغتهم، وأنهم يعتقدون أنهم يمارسون السياسة، على حين كانوا في الحقيقة يتصرفون كقطيع ضال يتغذى على المحسوبية والإفساد.. حاول أن ينأى عن هؤلاء ويقصر علاقاته بالمسئولين الكبار، الذين يرسمون الخطوط ويحركون العرائس ولا يفاجئون بردود الأفعال.. هؤلاء هم الذين يستحقون الاهتمام والسعي للحصول على رضاهم وتجنب غدرهم، وهم الذين سيكونون سنده في طموحه السياسي وقبلها في صعوده الاقتصادي..

كان يحس شيئًا فشيئًا بالوحدة ولا يجد دفئًا حقيقيًّا إلا عندما يجلس في المساء مع لينيا يحكي لها عما يراه حوله من مشاهد سيرك لا تنتهي.. يحلل وينتقد ويسخط ويعظ، وهي تستمع في هدوء تام مبدية الاهتمام والمشاركة والتشجيع.. كان يعرف في قرار نفسه أنها تفعل ذلك لأنها تحبه، وتدرك أنها بذلك تطهره وتعالجه نفسيًّا، حتى يستطيع أن يواصل ما يقوم به..

ما حظي به من مظاهر الترف المادي وسهولة الحياة المعيشية وتراكم المدخرات والبروز الاجتماعي تواكب، خاصة في السنوات الأخيرة، مع خواء نفسي أخذ يزداد عمقًا مع الأيام.. كان يدرك أنه يصعد بسرعة مثيرة، ليهبط غالبًا بعدها، بركلة مدوية.. كان يستيقظ أحيانًا في عمق الليل وقد

هاجته أحلام تدور في هذا الإطار.. لذلك كان يأخذ كل نجاح يحققه على أنه خطوة نحو القمة، لكنها تمهد في الوقت ذاته للقفزة الكبرى نحو القاع والهاوية..

كان كامل واثقًا أن الوزارة ستُعرض عليه قريبًا، وربما رئاسة الوزراء، غير أنه لم يكن متعجلًا تلك اللحظة؛ لأن مشهد السقوط النهائي، الماثل دائمًا أمام عينيه، لا بد أن يعقب ذلك.. أدرك دائمًا أنه في عالم يفتقد المعايير ويتغلب فيه الغموض على الشفافية، من اليسير لمن لديه قدر من الذكاء والعلاقات أن يصعد لأعلى المراكز، لكن دفعه إلى أسفل سيكون أيسر وأسرع، ولن يحتاج إلى تبرير أو تفسير..

إدراكه لهذه الحقيقة أخذ يدفعه لأن يهتم بأموره المالية بشكل جدي.. أخذ ينوع مصادر دخله ويدير محفظته المالية بأقصى قدر ممكن من الكفاءة، كما طلب من لينيا أن تفتح حسابًا مصرفيًا مشتركًا لهما في جنيف.. سعى حثيثًا لأن يقنع أصدقاءه في أوروبا ودول الخليج بإقامة شركة أدوية عملاقة، بالتعاون مع شركة قطاع الأعمال العام التي يرأسها.. أجرى دراسات مستعينا بخبراء من الخارج والداخل، ليظهر للمسئولين جدوى هذه الشركة الجديدة لمواجهة تحديات صناعة الأدوية في ظل العولمة الطاغية، وإلا فإن شركات الدواء الحكومية سيكون مصيرها الخصخصة أو الانهيار.. اقتنع الكبار في الحكومة وفي الحزب بأن ما يقترحه كامل قد يشكل مخرجًا عبقريًا، يجنبهم مخاطر النقص المحتمل في عرض الدواء وما قد يرتبه من سخط شعبي في المستقبل، وهو كذلك يبعدهم عن خيار الخصخصة الذي يثير دومًا اللغط ويعرضهم للنقد من الصحافة والنقابات؛ فضلًا عن أن الحكومة لن تكون

مجبرة على ضخ أموال جديدة، حيث ستشارك في أكثر من نصف رأسمال الشركة المقترحة بقيمة الأصول الموجودة بالفعل..

نجح كامل هلال في إقناع الجميع بالمشروع الجديد، واختير رئيسًا لمجلس إدارة الشركة المشتركة، بمرتب خيالي، أثار حتى دهشة لينيا التي أخذت تسافر على فترات متقاربة لسويسرا، تتصرف في الأموال المودعة في حسابهما المشترك وفق تعليمات زوجها.. في إحدى هذه الزيارات قامت بشراء شقة أنيقة في لوزان، تطل من بعيد على البحيرة.. كانت تأمل أن تسمح ظروف زوجها بقضاء عطلاتهما فيها، إلى أن يأتي الوقت الذي تؤويهما في شيخوختهما عندما يحين وقت التقاعد..

في حواره المستديم مع نفسه كان مقتنعًا أن ما يحققه من دخل مرتفع هو المقابل الطبيعي لجهده وخبرته وكفاءته في إدارة شركته.. فهاهي تحقق مئات الملايين من الأرباح الصافية، توزع بين الدولة والشركاء الأجانب.. ومن الطبيعي أن يحصل العاملون على مرتبات مجزية، وأن يتجاوز مرتبه السنوي ومكافآته الملايين.. هذا ما يحدث في الشركات المماثلة في الخارج، فلماذا يستكثره البعض عليه في مصر؟!.. هو لم يسرق ولم يرتش ولم يغتصب مال أحد؛ هو فقط ينال الجزاء الطبيعي لجهده وكفاءته.. لذلك تألم بشدة، ولم يطق الاستمرار في ندوة عن صناعة الدواء عقدت في نقابة المهندسين، عندما برز فجأة صديقه القديم متولي المهدي معقبًا على حديثه بقوله:

حقًّا رسم لنا الدكتور المهندس كامل هلال صورة النجاح الوردي الباهر لشركته ولمؤسسيها من عمالقة الدواء العالميين والمستثمرين العرب وحكومتنا

الرشيدة وهو شخصيًّا.. فهم جميعًا يربحون بفضل هذا النجاح الذي لا يختلف عليه أحد.. لكن هل يمكنني أن أسأل: من يدفع الفاتورة؟!.. أليس هم المرضى من فقراء المصريين، الذين يئنون تحت وطأة أسعار الدواء التي لا تتوقف عن الصعود.. أرباحهم ترتفع ودخولهم تتضخم، لأن مرضانا لا يجدون مهربًا من بيع كل ما يملكون لشراء الدواء باهظ الثمن، في ظل عولمة قاسية، ومسئولين وطنيين فقدوا مشاعرهم وتنكروا لتاريخهم النضالي، من أجل مال حرام، ملوث بدم المصريين الفقراء المرضى..

حاول كامل هلال أن يشرح للحضور أسباب زيادة أسعار الدواء.. فهي ناجمة عن التكاليف الباهظة لبحوث التطوير التي تتحملها الشركات قبل بَدْء الإنتاج، ولابد من تضمينها في مستويات الأسعار، كما أن الأجيال الجديدة من الدواء، وهي الأكثر فعالية، محمية ببراءات اختراع، ولابد لشركته من أن تدفع مقابلًا باهظًا لتصنيعها محليًّا، وأن سعر صرف الجنيه قد تراجع أمام الدولار، مما أدى لارتفاع تكاليف الإنتاج، وأن...

قاطعه المهدي وهو يكاد يصرخ:

أأنت الذي تردد كالببغاء الأسطوانة المشروخة للرأسمالية المتوحشة وتلقي علينا بروثها المقزز؟! ألا تحقق شركتك أيها المناضل القديم -رغم كل ما قلته- مئات الملايين من الأرباح؟! هل تنكر أنك تحصل على مرتب ومكافآت تقدر بعدة ملايين سنويًّا؟! كل ذلك من عرق ودم شعبنا المسكين.. أنت معذور لأنك منذ تغربت نسيت هذا الشعب، كما نسيت حديثك القديم عن فائض القيمة.. أنت يا دكتور خنت ولا تزال تخون شعبك..

لملـم كامل هلال أوراقـه وغادر القاعة وهو يتمزق من الألم والسـخط.. كان مقتنعًـا بمنطقه، يوقن أن صديقـه القديم يردد كلمات جوفاء لا يفهمها، كما كان يفعل هو نفسه في الماضي.. لكن من سيستمع له إذا أخذ يشرح بالعقل والمنطـق تصـوره لعلاج مشـكلة الصحة في مصر؟!.. ليـس الحل أن تفرض أسعارًا جبرية رخيصة، وإلا فإن الإنتاج سيتعثر ويتوقف ولو بعد حين، وإنما يتعين إعادة هيكلة المنظومة الاجتماعية والاقتصادية المتآكلة لتشجيع الإنتاج والتشـغيل، بما يؤمن ضمانًا صحيًّا واجتماعيًّا مناسـبًا لـكل المواطنين.. كانت قناعته تتزايد بأن لا أحد يريد أن يسـتمع لأحد.. فقط الكل يزايد على الكل في سباق محموم نحو الهاوية..

أصابه الإحباط لعدة أيام وشـعر بوحدة قاسـية.. لم يعرف إلى من يشـكو همه ومع من يدافع عن قناعاته.. في الحزب، لا يشغلون أنفسهم كثيرًا بالآراء المعارضة ويتعاملون معها كأنها رذاذ مطر حمضي لا قيمة له سيتلاشى تدريجيًّا مع مرور الوقت، يتعين تحمله كضريبة للسـلطة والنجـاح.. لكنه كان يعتقد أنه مختلف عن الآخرين في هذا الحزب، فهو صاحب فكر يسـتطيع أن يدافع عنه، إذا سادت موضوعية الحوار مع رفاق الماضي.. لكن أين هي الموضوعية عندما يعلو الصخب ويسـتأثر بالمشهد أصحاب الأصوات العالية والحناجر الرنانـة والشـعارات البراقـة وتـتردى مستويات الثقافـة العامـة إلى الدرك الأسفل؟!

سَرت عنه لينيا عندما قالت:

- أنت تجهد نفسك كثيرًا وتحملها ما لا طاقة لها به.. تريد أن تكون موضوعيًّا في بيئة غير موضوعية، وتريد أن تكون مقنعًا على حين لا يسمعك الآخرون، وتريد البحث عن تحسين الإنتاجية في مجتمع يعاني أكثر من نصفه البطالة الصريحة والمقنعة، وتدافع عما تعتقد أنه دخلك العادل المساوي لتميزك ولجهدك الكبير، على حين يعيش معظم من تريد محاورتهم على دخل يقترب من خط الفقر.. أنت تريد سلامًا مع نفسك يصعب تحقيقه في ظل كل هذه المتناقضات!

كان يعلم أنها على حق، وأن عليه أن يرضى بالنتائج المترتبة على خياراته في العمل والسياسة، وإن أثارت غضب أصدقاء الماضي، وأضرت بصورته التي تمنى أن تنطبع في أذهان الآخرين.. يبقى هناك على الأقل إبراهيم الفيومي وعائلته يفهمونه ويدركون فضله ويشعرون نحوه بامتنان لا حدود له.. إبراهيم، ابنه الذي لم ينجبه، تكفل برعايته منذ كان صبيًّا صغيرًا، علمه في أفضل المدارس الخاصة إلى أن أصبح الآن طالبًا متميزًا يدرس العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة..

لم يكن عبد الموجود الفيومي والد إبراهيم يحلم، عندما تقدم للعمل كسائق للدكتور كامل هلال، أن حياته ستتغير على هذا النحو المثير.. كان قد انتهى لتوه من خدمته العسكرية كسائق في الجيش، فجاء إلى القاهرة يبحث عن فرصة عمل، بعيدًا عن قريته في الفيوم التي تعاني البطالة والفقر.. رشحه ابن عمه متولي، بواب العمارة التي كان يسكن فيها الدكتور وزوجته الأجنبية، كسائق لسيارتهما، فنال سريعًا ثقتهما لالتزامه وأمانته وحسن تصرفه.. عندما شيدا بيتهما الأنيق في المعادي خصصا له ولعائلته جزءًا من البدروم، وتوليا

بالرعاية ابنه وابنته كأنهما من صلبهما.. كانت السيدة الأجنبية تعامل زوجته كصديقة لها، تعلمها وتثقفها وتؤدي معها الأعمال المنزلية جنبًا إلى جنب، وتصر على أن تحصل هي وعائلتها على رعاية طبية متميزة مماثلة لما تحصل عليه هي والدكتور..

كان كامل وزوجته كريمين للغاية معه ومع عائلته.. فمن الدخل الذي حصل عليه منهما بسخاء اشترى القراريط ثم الفدادين في قريته.. لم يتكلف جنيهًا واحدًا في تعليم ابنه أو ابنته، فقد تكفل الدكتور بذلك واختار لهما أفضل المدارس.. أدرك مع مرور الوقت أن الأمر يتجاوز الكرم إلى المشاركة في حب ورعاية الولد والبنت.. تقبل وزوجته ذلك كأمر طبيعي من جانب زوجين لم ينجبا أطفالًا.. كان كامل هلال يجد صورة طفولته في إبراهيم، الذي لم يخيب أبدًا ظنه.. فقد اتسم بالأدب الجم والذكاء والقدرة على المشاركة في الحوار بما يتجاوز سنوات عمره.. أصبح بمرور الأيام بالنسبة إليه ابنا وصديقًا حقيقيًّا، يحاوره ويعرف من خلاله كيف يفكر الجيل الجديد من المصريين.. كانت فادية أخت إبراهيم الصغرى محببة أيضًا إلى قلبه، لكنها بقيت محل الاهتمام الأول لزوجته..

قبل سنوات قليلة من ثورة 25 يناير 2011 كان كامل هلال يجد نفسه متورطًا في وضع غير مريح. . استمر يحقق نجاحات اقتصادية ومهنية جيدة، لكنه في الوقت ذاته بدأ يشعر بالضجر من وجوده في الحزب. . كان يتحسب الخطر القادم الذي يوقن أن جميع المسئولين يشعرون به بدرجات متفاوتة، وإن كانوا قد وصلوا إلى درجة من التبلد تعيقهم عن فعل أي شيء لتجنبه.. رآهم إما مستسلمين لقدرهم وإما مستفيدين بانتهازية شديدة من تردي

الأوضاع. . أقلقته الفجوة المتصاعدة بين الحكومة والشعب واعتماد النظام على الأمن في تأمين وجوده، وأثاره ما يلاحظه من تفضيل متخذي القرارات السيادية لأكثر البدائل بيروقراطية وأقربها لفتح أبواب المحاباة والفساد..

يصيبه التعجب عندما يجد نفس المخاوف تتردد بين العديد من زملائه، الذين ينظر إليهم الناس على أنهم كبار رجال الدولة. . حينئذ كان يسأل نفسه: إذن من يقود هذا النظام إلى هاويته؟! هل هو الرجل العجوز الذي تجمدت معارفه ومداركه بفعل الزمن؟! هل هو ابنه الشاب وبطانته الحمقاء؟! هل هو وزير داخليته أم رئيس مخابراته وأجهزتها الأمنية التي تكاثرت وانتشرت في السنوات الأخيرة؟!.. لم يعرف أبدًا ما هي الإجابة الصحيحة..

تمنى ترك الحزب والسياسة ككل، لكنه كان يدرك أن ذلك سيقود حتمًا للخروج من الشركة التي يديرها وإحالته إلى التقاعد، وربما أيضًا تعكير صفو كهولته باتهامات أو شائعات تمس كفاءته أو نزاهته.. كان يعرف الحكمة الشعبية التي تردد أن لا كرامة لمستقيل أو مُقال. . بدا له أنه قد وضع قدميه على طريق ذي اتجاه واحد لابد من أن يخوضه لنهايته، لأن ثمن تراجعه سيكون قاسيًا ليس فقط عليه، بل ربما على لينيا أيضًا.. اختار أن يستمر ولكن بلا حماس.. كان يحضر الاجتماعات متثاقلًا يكتفي بالاستماع والابتسام.. لفرط دهشته وجد أن هذه الاستراتيجية قد زادت من حظوته لدى قادة الحزب، الذين كانوا يضجون ممن يهوون المجادلة وتعكير صفوهم بطرح الأسئلة أو بيان التحديات والصعوبات التي تواجه الحزب والدولة..

ربـما بدافـع مـن التكفير عـن مشـاركته في أوضـاع لا يرضى عنهـا تمامًا، أو ربما بسبب حنين لقناعاته الفكرية المترسبة في أعماقه منذ حقبة الشباب، قرر أن يتبرع بعدة ملايين لإنشـاء مدرسـة لتعليم الفقراء في منطقة نائية.. اختار قريـة عبد الموجود الفيومـي، فطلب منه البحث عن أرض مناسـبة لشرائها، واسـتعد للسـفر إلى هناك لإتمـام التعاقد وبَدْءِ المشروع الـذي كان قد مهد له بالحصول على موافقة من وزير التربية والتعليم. . غير أن الأحداث توالت في بدايـة عام ٢٠١١ لينهـار النظام وليفقد وظيفته، وليجد أن خياره المتاح الآن هو السفر إلى سويسرا وليس التوجه إلى الفيوم!

خـشي أن يكون موضوعًا على قائمة الممنوعين من السـفر.. لم يكن أمامه سـوى أن يخاطـر بالذهـاب إلى المطار مصطحبًـا زوجته، آمـلًا أن تمر الأمور بسلام، وهو ما حدث، لفرط دهشته وسعادته.. إنه الآن في لوزان يسير بجوار لينيا كالمعتاد على شـاطئ بحيرة ليمان، مسـتمتعًا برؤية منظر خلاب ومنتشـيًا بنسـمة هواء باردة منعشـة. . سـيتناولان بعد قليل غداءهمـا في مطعم فندق «الموفنبيك» المطل على شـاطئ البحيرة أمام مرسـى اليخـوت، غير بعيد عن قلعة «أوشي»، ثم سـيصعدان سـيرًا على الأقدام عبر جادة «فريدريك سيزار دو لا آرب» إلى شقتهما الأنيقة، يقضيان فيها أمسيتهما الهادئة، بعد أن يشاهدا قليلًا في التليفزيون أخبار مصر المضطربة وبرامجها الحوارية الصاخبة..

كان أحيانًـا يفكـر في رد فعـل صديقه القديم متولي المهدي إذا ما شـاهده الآن.. هل سيكتفي بأن يصفه بأنه من الفلول، أم سيرميه بالانتهازية والفساد والخيانـة؟.. لعـل متـولي الآن في ميـدان التحريـر يقـود المظاهـرات الثورية أو الاحتجاجـات الفئوية.. سـأل نفسـه مـرارًا من منا على حـق؟! من الذي

كان أكثر فائدة لمصر وأكثر إخلاصًا لمصالح شعبها.. كان يبحث عن إجابة تريح ضميره المثقل وتؤكد له مرة جديدة أنه لم يخن المبادئ التي نشأ عليها.. لم ينس قبل مغادرته مصر أن يودع في حساب إبراهيم الفيومي مبالغ تغطي مصروفاته الدراسية ولحين التخرج.. وترك أيضًا في يد والده أموالًا كافية للصرف على احتياجات عائلته والعناية بالفيلا وصيانتها لسنوات قادمة..

لا يعرف متى سيعود إلى مصر.. اتصل به منذ نحو شهر سعد رمضان يستفسر عن أحواله ويُطمئنه على المستقبل ويستشيره في بعض البرامج الاقتصادية التي يفكر في تضمينها برنامج حزب الحرية والعدالة الانتخابي.. غير أن أخبار الاتهامات والمحاكمات لرموز نظام مبارك كانت تثير قلقه، لأنه لا يعلم إلى أي مدى ستستمر السلطات الجديدة في التنقيب وراء كل قيادي انتمى للنظام القديم.. لم يكن يثق كثيرًا في تطمينات سعد رمضان؛ لأن الإخوان لم يصلوا بعد إلى السلطة، وبالتالي لم تنجل حقيقة نواياهم، ولأن سعد رمضان في كل الأحوال لن يقدر على صقور مكتب الإرشاد إن قرروا يومًا الانتقام.. زاد من بلبلته ما طالعه في الأخبار عن إرسال مندوبين من وزارة العدل للبحث عن أموال المصريين في سويسرا.. قرر فورًا على سبيل الاحتياط تحويل جانب كبير من ودائعه إلى استثمارات في العديد من الأسواق المالية الآسيوية باسم لينيا..

أول أمس تلقى من جديد اتصالًا من سعد رمضان يدعوه للنزول إلى مصر، قبل الرابع والعشرين من يناير القادم، لحضور لقاء تذكاري يجمع زعماء الحركة الطلابية بمناسبة مرور أربعين سنة على أحداثها.. أكد له أهمية حضوره باعتباره من أبرز هؤلاء الزعماء، وأنه يضمن عدم تعرضه لمضايقات

سـواء عند الدخول أو الخروج لما أصبح له من صلات قوية بمسـئولي الأمن وأعضـاء الحكومـة الحاليـين.. لم يَعِـد سـعد إلا بالتفكـير في الأمـر وإبلاغه بموقفه قبل نهاية العام الحالي.. نزل أمس إلى شـاطئ البحيرة واسـتأجر قاربًا وأخذ يقوده بطول الشـاطئ باتجاه جنيف، منشـغلًا بالتفكير في وضعه الحالي والمستقبلي.. كره أن يظل بلا نشاط أو عمل، كما كره أن يعتبر نفسه أو يحسبه البعض مطاردًا من وطنه.. تلقى عرضًا للعمل كمستشـار صناعي لمجموعة شركات خليجيـة كبرى بمرتب خيالي، لكنـه أنف أن يعمل لدى الغير، وقد كان مسئولًا بارزًا في وطنه والآمر الناهي في شركته..

عندمـا أعـاد التفكـير في دعوة سـعد رمضـان للاحتفاء بذكـرى الحركة الطلابيـة، اقتحمـت مخيلتـه صـورة ليلى عامر وهـي تقف إلى جانبـه في تلك الأيام.. أحس بقشـعريرة تهزه رغمًا عنه.. مضت أربعون سـنة ومازال يتذكر تلـك الأحـداث كأنهـا مـرت بالأمـس.. أي قـوة كان يملكهـا وأي عاطفة غامرة كانت تأخذ بتلابيبه؟!.. أين اختفى كل ذلك وإلى أي شاطئ رمت به الأيام؟!.. لا الأموال ولا النجاح ولا السـلطة تسـاوي يومًا واحدًا من تلك الأيام المفعمة بالبهجة والثقة بالنفس والأمل في غد أفضل.. هل أفضى ذلك كله إلى سراب؟!.. أين أخذته الأيام وأين أخذت ليلى عامر؟!

كان يشعر أنها رغم فُرقة الأربعين عامًا مازالت تهز مشاعره الأكثر عمقًا.. كان يعرف أنها تقيم قريبة منه في برن مع زوجها سـفير مصر في سويسرا.. في كل مرة سـابقة زار فيها سـويسرا كان السفير يهاتفه ليدعوه للغداء أو للعشاء في سكنه في برن، وهو ما حرص على الاعتذار عنه، مفضلًا عدم نكء الجراح

القديمة.. تساءل: هل يا ترى ستحضر ليلى عامر ذلك اللقاء الذي دعا إليه سعد رمضان في واحة الحنين؟!

الحنين!.. يا له من عنوان مثقل بالمعاني المشبعة بالآلام المزمنة والآمال المجهضة.. طفرت من عينيه الدموع، فأدار الدفة عائدًا إلى المرسى في لوزان..

■■■

8

سامـــي خليــل

مهمـة ثقيلة تلك التي طلبها مني الدكتور سـعد رمضان صاحب الفندق الذي أديره.. علاقتي بالدكتور رمضان تمتد لأكثر من عشر سنوات.. التقيته أول مرة في نيويورك حيث أقام وعائلته نحو أسبوعين في الفندق الذي كنت أعمـل به.. وجدته ودودًا، كما وجدت زوجته سـيدة مصرية ذات شـخصية مرحـة، تعاملت معي بود رغم الحجاب الـذي ترتديه، ورغم أنها عرفت أن اسمي بالكامل هو سامي مرقص خليل..

طلـب منـي الدكتور أن أفـرغ الفندق من سـائر النزلاء في الفـترة الممتدة بـين 22 و25 ينايـر 2012، لأنـه دعا زملاء لـه منذ أيام الجامعـة للحضور للاحتفـال بذكرى مرور أربعين عامًا على انتفاضتهـم الطلابية.. حذرني من تباين مواقف هؤلاء الزملاء السياسية، ومن جموح العديد منهم، وبالتالي من احتمال حدوث بعض التجاوزات أو التصرفات العنيفة..

لم يكن سهلًا إقناع بعض رواد الفندق الدائمين بمغادرته أو تأجيل حجوزاتهم خلال الفترة المقررة للقاء.. كانوا يتحفظون على تغيير خططهم، التي أعدوا لها منذ فترة طويلة وانتظروا تحققها بصبر كبير.. فعندنا يستردون سكينتهم ويتخلصون من صراعات الحياة التي يلهث وراءها الإنسان المعاصر..

اعتقدت أن المسألة ستكون بسيطة، وأن المطلوب مني فقط هو التحلي بالصبر، واستخدام أقصى ما لدي من المرونة في التعامل مع الزوار المتوقعين، وأن أطلب من أفراد الأمن وأطقم الاستقبال والخدمة المزيد من اليقظة والانتباه.. غير أن المشاكل بدأت مبكرًا.. فقد تلقيت اتصالًا من ضابط شرطة السياحة المسئول عن متابعة فنادق الواحات، يخبرني فيه بزيارة مهمة لأحد زملائه في الأيام القادمة.. طلب مني التعاون الكامل معه.. عندما رغبت في معرفة الموضوع الذي يهم زميله، اكتفى ضابط السياحة بطلب الانتظار لحين يلقاني الزميل، فهو ذاته يجهل الموضوع..

بعد يومين حضر شاب أنيق عرفني بنفسه على أنه الرائد مجدي شفيع من جهاز الأمن الوطني الذي حل مؤخرًا محل جهاز مباحث أمن الدولة، طالبا بحسم اعتبار مهمته سرية يجب ألا يعرف بها أحد، بمن في ذلك صاحب الفندق.. وجدته يتطرق للدعوة التي وجهها الدكتور سعد لزملاء الماضي للالتقاء في هذا المكان.. سألني عن دوافع هذه الدعوة وعن عدد المدعوين وأسمائهم والترتيبات التي أعددناها لهذا اللقاء.. أجبته بأنني حتى هذه اللحظة أجهل الإجابة عن كل الأسئلة السابقة، فيما عدا أننا سنخلي كافة حجرات الفندق الثمانين لاستقبال هؤلاء الزوار.. عندما حاولت أن أفهم

منه سبب اهتمام جهازه بهذا اللقاء، اكتفى بالقول بأن لديهم معلومات عن مشاركة شخصيات مهمة وأخرى مثيرة للجدل.. أعاد التأكيد لي على أهمية الاحتفاظ بسرية مهمته، وأنه سيعاود الحضور قبيل الموعد المقرر..

لم يمض سوى أسبوع حتى زارني ضيف آخر أشد غموضًا، ذكر لي أنه أحد ضباط جهاز المخابرات العامة.. استفسر تقريبًا عن نفس المسائل التي سعى الرائد مجدي شفيع للحصول على إجابة عنها، لكنه سألني على وجه التحديد عن علاقة الدكتور سعد رمضان بشخصين هما سليم البطراوي والدكتور كامل هلال.. أجبته بأنني أجهل تمامًا الشخصين المشار إليهما.. أعلمني أنه يعرف أن ضابطًا من الأمن الوطني قد زارني، لكنه لا يريد أن يصل خبر زيارته للفندق لأي شخص، بما في ذلك ضباط الأمن الوطني وصاحب الفندق، مع تلميح بعودته مجددًا في الموعد المحدد للقاء..

أخذ الموعد المقرر يقترب، فأصبحت أتلقى اتصالات متكررة من الدكتور سعد، يراجع فيها معي ترتيبات اللقاء.. اتفقنا على تأجير حافلتين سياحيتين كبيرتين وعدة حافلات مكيفة متوسطة وصغيرة، فضلًا عن العديد من السيارات الخاصة لمن يرغب من المدعوين.. طلب مني الدكتور إبداء المرونة التامة في تلبية رغبات الضيوف، فيمكن لهم اصطحاب أي عدد يشاءون من أفراد عائلاتهم أو من أصدقائهم.. كان الاتفاق على أن يتسم هذا اللقاء بالخصوصية، فلا نسرب أخباره للصحافة أو وسائل الإعلام الأخرى.. غير أنني فوجئت بصحفي من جريدة البدر المستقلة يطلب حجز غرفة، لأنه سيأتي لتغطية أحداث اللقاء.. اعتذرت له بحجة أن جميع الغرف محجوزة مسبقًا.. لم ييئس وطلب مني إبلاغ الدكتور سعد باستيائه من

رفض حضوره، واعتبار ذلك موقفًا معاديًا من جماعة الإخوان المسلمين تجاه صحيفته.. عندما أخبرت الدكتور، طلب مني تدبير حجرة له، تجنبًا لردود الأفعال العدائية لتلك الصحيفة..

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، حيث تلقيت طلبات حجز عدة غرف من قناتي تليفزيون مستقلتين لذات الغرض، فلما اعتذرت لهما بأن الفندق كامل العدد، أبلغاني أنهما سيجدان أماكن في فنادق الواحة البحرية القريبة، وستحضر أطقمهما في كل الأحوال لتغطية الحدث.. بدا لي الأمر غامضًا بعض الشيء.. لماذا كل هذا الاهتمام بلقاء قيل لي إنه مجرد احتفال تذكاري بأحداث مضت عليها أربعون سنة؟.. هل هناك أسرار لا أعرفها؟!.. من يكون هؤلاء المدعوون؟!.. سبق أن حافظت على سرية لقاءات غامضة كانت تجرى بين نزلاء مصريين وأجانب.. لم يطلعني أحد على شيء.. لكني كنت أعرف أن هناك شيئًا ما يربط هؤلاء بأعضاء جماعة الإخوان المسلمين.. لم أصرح بشيء.. احترمت ثقة الدكتور في، خاصة أنه هو الذي فرضني كمدير لهذا الفندق واستدعاني من أمريكا لهذا الغرض.. أقدر وفاءه، وتتعامل زوجتي مع زوجته كأخت كبيرة، وأحب أولاده كأولادي، عندما يأتون من حين لآخر لقضاء إجازاتهم هنا.. ظللت أتساءل: هل سنصبح هنا في خطر ما؟! وهل ستنتقل إلينا الاضطرابات التي تسود القاهرة منذ نحو عام؟!

بينا سمعتنا في هذا الفندق على أننا نقدم الهدوء والسكينة والسلام.. أصحاب القلوب الخائفة والمأزومة، وضحايا المشاعر القلقة، يجدون عندنا السكون الذي ينشدونه.. بوصولهم إلى الواحة تنقطع صلاتهم بعوالمهم

المضطربـة وأحداثهـا المتلاحقة.. عقب زيـارة سريعة لبقايـا المعبد الروماني، وأحيانًـا للواحات البحْرية غـير البعيدة، يقضونِ معظـم أوقاتهم حول حمام السباحة الكبير، تحيط بهم عن بعد كثبان الرمال الصفراء السامقة، وتعلوهم سـماء نقيـة رائقـة الزرقة، فيغوصـون في طبقـات لانهائية من الصفـاء الآمن والعودة لأعماق النفس وأصل الوجود..

أنا شـخصيًّا تغـيرت حياتي منـذ قدومي إلى هـذا المكان الـذي أصبحت أعشقه.. في الليالي القمرية أستقل سيارتي وأقودها بعيدًا عن الفندق، متوغلًا قليلا في عمق الصحراء.. أنصب خيمتي الصغيرة، أغوص في حضن الطبيعة البكر، أتأمل الماضي، أفكر بصفاء في المسـتقبل، أناجي السـماء، مأخوذًا ببهاء المـكان ونقائه الذي لا يقاوم.. أحيانًا تصحبنـي زوجتي، كما نجحت مرة في إقنـاع الدكتور سـعد بمصاحبتي في هـذه الخلوة الصحراويـة.. كان مبتهجًا ووعدني بتكرارها كلما سـنحت له الفرصة.. أعتقد أننا كنا في غنى عن ذلك اللقاء الذي بدت مبكرًا مظاهر القلق الذي سيجلبه لنا..

كثفنا اسـتعداداتنا لاسـتقبال المدعويـن، وجهزنا القاعـة الكبرى لإقامة احتفـال كبير مسـاء يـوم 23 يناير، مع إعداد خشـبة مسرح في عمـق القاعة كطلب الدكتور سـعد، لتذكرهم إلى حد ما بخشـبة مسرح قاعة الاحتفالات الكـبرى بجامعـة القاهـرة التي جمعتهـم في نفـس التوقيت منذ أربعـين عامًا وحتى اعتقالهم منها قبيل انبلاج الصباح التالي.. قبل يومين من موعد اللقاء حضر ضابط المخابرات العامة، وفي اليوم التالي حضر ضابط الأمن الوطني، وقد التزمت بالاحتفاظ بسرية شخصية كل منهما، ثم بدأت طلائع المدعوين في الحضور ومعها بدأت مشاكلهم التي لم تنقطع..

عند العصر وصلت إحدى سيارات الليموزين التي استأجرناها، فنزل منها رجل قوي البنيان، تعرف عليه العاملون معي على الفور لكثرة مشاهدته مؤخرًا في التليفزيون، هو سليم البطراوي.. رحبوا به وبالسيدة التي اصطحبها معه، والتي عرفها لموظف الاستقبال على أنها زوجته.. طلب منه الموظف بطاقة هويته، فأخرجها مازحًا بأن مثله لا يجب أن تطلب منه البطاقة، لكونه شخصية عامة معروفة.. اعتذر الموظف بأنه فقط ينفذ التعليمات.. غير أنه عندما طلب الموظف بطاقة السيدة، خرج البطراوي عن طوره وهاج وماج، متهمًا الفندق وموظفيه بعدم اللياقة، وبأنه سيجلب لهم العقاب من صاحب الفندق، فإذا لم يحدث ذلك، فسيغادر الفندق والواحة ويعود أدراجه للقاهرة، وبعدها سيتحمل كل طرف مسئوليته.. لمحت ضابطي المخابرات والأمن الوطني يتابعان الحوار باهتمام، محاولين إخفاء وجهيهما عن الضيف المزعج..

نظر لي موظف الاستقبال مذعورًا، فأشرت له بالاستمرار في طلب بطاقة هوية السيدة، رغم كل الزوبعة التي أثارها البطراوي.. عندئذ أشار الرائد مجدي شفيع لأحد أفراد أمن الفندق وأعطاه ورقة أسرع بها نحوي، ينصح فيها بتخلي موظف الاستقبال عن طلبه، وأن تترك السيدة تصعد بصحبة سليم البطراوي دون الإفصاح عن شخصيتها.. نظرت إليه مندهشًا، فأومأ لي بأنه سيفسر ذلك فيما بعد.. اقتربت من البطراوي وعرفته بنفسي وبمنصبي وسألته عن سبب غضبه وكأني لا أعرفه.. نظر لي بنوع من الازدراء معبرًا عن سخطه لعدم اكتفاء الموظف ببطاقة هويته، ليطلب أيضًا الاطلاع على بطاقة هوية زوجته.. أبديت اعتذارًا دبلوماسيًا، وقلت إن وضعه كشخصية

عامة مرموقة يجعلنا نتغاضى عن الشكليات التي تطلب من النزلاء العاديين، فانفرجت أساريره ونظر للسيدة نظرة رضا وانتشاء.. زدته تفاخرًا بقولي إننا قد حجزنا لإقامته واحدًا من أفضل الأجنحة في الفندق..

بعد صعود البطراوي وابتعاد ضابط المخابرات منشغلًا بمكالمة هاتفية، اقتربت من الرائد شفيع مستفسرًا عن سر طلبه التخلي عن تنفيذ التعليمات، فأجابني بود:

- خفت عليك أن تفقد منصبك بسببه.

لم أستسغ عبارته وقلت باستهجان:

- هل أنت جاد فيما تقول؟

أجاب بلهجة تقريرية:

- المرأة عشيقته وليست زوجته.. أنا ونصف ثائري التحرير نعلم ذلك.. لم أشأ أن أعطيه الفرصة لفض الحفل قبل بدئه، وحينئذ كنت ستثير غضب وإحباط الدكتور رمضان، دون ذنب من جانبك..

نظرت إليه نظرة هي خليط ما بين الدهشة والامتنان، فأضاف وهو يتنحى مبتعدًا إلى أحد الصالونات الجانبية:

- استعد يا بطل للكثير من هذه المشاهد من الآن فصاعدًا وعلى مدار اليومين القادمين.

استقبلنا في الساعات التالية عشرات الضيوف الذين حملتهم تباعًا الحافلات الكبيرة والصغيرة والسيارات الخاصة، وقد سارت إجراءات

تسكينهم على نحو يسير نسبيًّا، في ظل متابعة دقيقة من ضابطي المخابرات والمباحث اللذين وجدتهما قد أجريا تعارفًا متبادلًا وأصبحا يتحركان معًا في معظم الأحيان.. وقد بلغ اهتمامهما ذروته عندما وصل إلى الفندق الدكتور سعد رمضان وزوجته، ثم عندما عرفا بوصول سفير مصر في سويسرا وزوجته وصديقهما الأستاذ الجامعي طارق جاد.. كانت مفاجأة صباح اليوم التالي هي حضور القيادي السابق في الحزب الوطني الدكتور كامل هلال وزوجته السويدية.. ثم اكتمل الحضور بعد نحو ساعتين بأن فوجئ الجالسون في الاستقبال برؤية الداعية السلفي الشهير الشيخ ياسين الشهاوي يدلف إلى الفندق، مصطحبًا زوجته المنتقبة وشقيقها الشيخ محمود طاحون..

مع اكتمال حضور المدعوين، فيما عدا العدد القليل الذي اعتذر منهم، بدأنا استعداداتنا لوجبة الغداء المتأخر، الذي سيسبق بنحو خمس ساعات الاحتفال التذكاري الذي قرر الدكتور سعد أن يبدأ في تمام الساعة الثامنة مساء في القاعة الكبرى.. لاحظت وأنا أتفقد المطعم أثناء وجبة الغداء، الدهشة التي كانت تنتاب الجميع عندما يبادرون للتعرف مجددًا إلى بعضهم، فيما عدا معرفتهم بالشخصيات العامة منهم.. لقد وقف مثلًا الدكتور سعد مشدوهًا أمام سيدة بدينة تُذكره بنفسها، غير مصدق أنها ذاتها أميمة حسن الفتاة الناصرية الشابة التي كثيرًا ما هاجمته بضراوة في لقاءات الحركة الطلابية.. لفت انتباهي أن الدكتور كامل هلال قد انتحى جانبًا قصيًّا من المطعم مع زوجته الأجنبية، فلم يشارك مائدتهما أحد من الحضور سوى الدكتور سعد، بعدما طاف سريعًا بمعظم الموائد مرحبًا بالمدعوين..

- لاحظت أن سليم البطراوي كان يختلس بين الحين والآخر النظرات نحو السفير المصري في سويسرا وزوجته اللذين جلسا مع مجموعة من أصدقائهما، غير بعيدين عن المائدة التي جلس عليها مع السيدة التي كانت بصحبته، لكنه في الوقت ذاته لم يتوقف عن النظر شذرًا باتجاه المائدة التي جلس عليها كامل هلال وزوجته.. كنا نتحسب من تصرفات البطراوي، بعدما أحسسنا أنه سيكون المصدر الأساسي للاضطراب في هذا اللقاء.. لكن على غير توقعنا، بدأت أولى التصرفات المثيرة من شخص آخر كنت أجهله، ثم عرفت فيما بعد أن اسمه متولي المهدي، الذي وقف فجأة يدق بالسكين على الكأس الموضوعة أمامه، طالبًا الهدوء من الجميع، قائلًا بمزيج من الجدية والسخرية بصوت جهوري:

- اسمحوا لي أن أحظى بانتباهكم قليلًا لأشكر صديقنا سعد رمضان، الذي استطاع بضربة معلم أن يجمع في هذه القاعة الإخوان مع الثوار، دون أن ينسى الفلول.. الأنقياء مع الملوثين.. الأتقياء مع الضالين.. الخونة مع المخلصين.. لقد جئنا تلبية للدعوة، لكن هذا لا يعني أن الرءوس متساوية أو أننا سنغفر ما فعله بنا أنصار النظام السابق، حتى ولو كانوا فيما مضى شركاء لنا في الحركة الطلابية..

وقف الدكتور سعد محاولًا بابتسامته الهادئة أن يخفف من أثر كلمات المهدي قائلًا:

- لا تنس يا أخ متولي أننا التقينا اليوم كزملاء سابقين، جمعتنا أيام مجيدة للنضال الطلابي من أجل قضية التففنا حولها جميعًا.. لا يجب أن نجعل

اختياراتنـا اللاحقة أيًا ما كانت تفقدنا بهجة الالتقاء مجددًا، بعد أربعين سـنة من الفراق..

سـاد الهدوء عدة دقائق، وقبل أن يعود الضيوف لما كانوا فيه قبل مداخلة المهدي، انتفض سليم البطراوي صارخاً:

- كل ما قلته يا دكتور سـعد يمكن تقبله، فيما عدا جواز قبول الفلول في هذا اللقاء.. هؤلاء المستبدون الذين تعاونوا مع النظام البائد لم يعد لهم مكان بيننا بعد ثورتنا المجيدة..

غلب الصمت على الحضور وكاد الدكتور كامل هلال ينسحب من المكان مع زوجته، لولا أن وقف رجل له مهابة من بين الحضور قائلًا:

- لمـن لا يتذكـرني، اسـمي إبراهيـم مـروان خريـج كليـة التجـارة دفعة 1972، حاربت بشجاعة في أكتوبر 1973 وتعرضت للموت عدة مرات.. قضيت حيـاتي أعمل بشرف ونزاهة، حاربت الفسـاد وظُلمت كثيرًا، نزلت أنـا وبناتي إلى ميـدان التحرير منذ اللحظـة الأولى.. أقـف الآن لأقول فقط: إننـي لا أحب أصحاب الأصـوات العالية والحناجر الرنانـة الذين يزايدون باسمنا ليل نهار في الميادين والبرامج الحوارية.. بصراحة لن أسمح للمنافقين والمهرجـين والمزايديـن أن يعكـروا صفو هذا اللقـاء.. بعد الثـورة تركنا لهم الميادين وشاشات التليفزيون، فليكفهم هذا وليصمتوا الآن..

كان واضحًا لنا أن المخاطب بحديثه هو سـليم البطراوي الذي لاحظت الاضطراب الذي حل به ومحاولته لم شتات نفسه للنهوض للرد على ما قيل.. غير أنه في نفس اللحظة تحرك باتجاهي مسرعًا الدكتور سـعد ليوجهني لدفع

أطقم الخدمة ليحيطوا بمائدة البطراوي وما حولها من موائد مفتعلين ضوضاء مقصودة، ليعيقوا محاولته الكلام ويدفعوا الجميع نحو استكمال طعامهم.. بالفعل تدريجيًّا انصرف الضيوف للأحاديث الجانبية ولتناول غدائهم، ومن ثم أُجهضت محاولة الكلام من جانب سليم البطراوي..

بعد انتهاء وجبة الغداء أخذ الضيوف في الانصراف استعدادا للقاء المرتقب في الثامنة مساء.. مر الرائد مجدي شفيع بجانبي مبتسمًا وهو يهمس:

– كانت هذه فقط البروفة، المشهد الرئيسي موعده حفل الثامنة مساء!

لم أعلق، فمشاعري خليط من الدهشة والوجل.. لم أعرف كيف ستتصرف مع هؤلاء الناس الذين هبطوا علينا فجأة في هذه الواحة الهادئة ليعكروا صفو سكونها.. أنا ومن يعملون معي غير مهيئين للتعامل مع هذه الأجواء المضطربة.. ماذا لو اعتدى بعضهم بدنيًّا على البعض الآخر؟!.. وماذا لو تطور الأمر إلى سقوط أحدهم قتيلاً؟!.. حينئذ سيُقضى على مستقبل هذا الفندق، وتضيع كل جهودنا التي بذلناها خلال الأعوام السابقة، لتسويقه محليًّا وعالميًّا على أنه بقعة السكينة وواحة الصفاء الدائم..

أخرجني من تفكيري اقتراب الدكتور سعد مني وطلبه أن أتبعه إلى حجرته الخاصة في جناح الإدارة التي لم يدخلها من قبل إلا نادرًا.. أغلق الباب بإحكام وطلب مني الانتباه جيدًا لما سيقوله:

– أقدر العبء الواقع عليك وعلى رجالك في التعامل مع هذا الحدث ومع هذه النوعية من الضيوف.. لكن أصدقك القول إنني لم أفاجأ كثيرًا.. فعندما فكرت في الدعوة لهذا اللقاء كنت واعيًا بالمخاطر التي قد يجلبها

معه.. كنت سعيدًا بالثورة وأحببت بشدة أن يجتمع أفراد جيلنا الذين ساهموا بشكل أو بآخر في التمهيد مبكرًا لها للاحتفال بها، وربما التفكير في مستقبل بلدنا.. فنحن قبل أي شيء أو بعده جيل واحد من المصريين، ماضينا مشترك ومستقبلنا واحد..

- لكن هل تعتقد يا دكتور أن زملاءك السابقين يشاركونك في هذه المشاعر والأفكار؟

- للأسف لا، لقد تغيرنا جميعًا للأسوأ.. أضحينا أكثر أنانية ونرجسية.. لا ننظر إلا تحت أقدامنا فقط.. ويغيب عنا الهدف المشترك..

- هل يصدق ذلك على الجميع؟.. اعذرني إذا تجرأت وسألت: هل يشمل هذا الإخوان المسلمين؟

ابتسم الدكتور سعد عندما لاحظ حرجي من طرح هذا السؤال، فأومأ برأسه مُصدقًا، ثم أضاف بصدق لم يفاجئني:

- أخي سامي.. لا يغرنك الشكل، فهناك أيضًا درجات من التفاوت في وجهات النظر وفي السلوك حتى بين أعضاء الجماعة.. نحن أيضًا مصريون نعاني مثل غيرنا مما أصابنا من تدهور في السلوك والتصرفات.. أرجوك لا تثر مواجعي بالاستفسار عن رأيي فيما يحدث الآن داخل الجماعة، ولننصرف لتأمين نجاح هذا اللقاء قدر المستطاع..

- قبل أي شيء أريد أن أصارحك بعدة أشياء.. أولًا يتواجد في الفندق ومنذ يومين ضابطان أحدهما من المخابرات العامة والآخر من الأمن الوطني حضرا خصيصًا لمتابعة هذا اللقاء..

- أمر غريب.. ماذا يهمها في هذا اللقاء الذي يجمع زملاء قدامى؟!

- ربما السبب هو في تجمع هذا العدد الكبير من الشخصيات العامة المتناقضة في مكان واحد..

- استغرب أن أحدًا من المسئولين لم يحدثني في الأمر.. من جانبي لم أُخطر أي مسئول في الجماعة، معتبرًا أن هذا الموضوع لا يتعدى كونه مبادرة شخصية من جانبي، أو قل: إنها نزوة رجل اجتاز عتبة سن الستين، طمح لجمع زملاء الماضي لاستعادة ذكرى عزيزة على نفوسنا، في لحظة فارقة من تاريخ وطننا..

- لعلك تتذكر أيضًا أنك كنت قد وافقت على نزول صحفي من جريدة البدر في الفندق لتغطية اللقاء.. لحسن الحظ كان قد تناول غداءه مبكرًا فلم يشهد ما جرى منذ قليل، لكنه بالتأكيد سيكون حريصًا على حضور الاحتفال..

- هذه من بين المنغصات التي لا مفر من تحملها..

- كذلك نحن نتوقع حضور طاقمي قناتين تلفزيونيتين لتغطية اللقاء.. فبعد اعتذارنا عن استضافتهم في الفندق أفهمونا أنهم سيقيمون في أحد فنادق الواحة البحْرية ليتمكنوا من تغطية اللقاء..

- أرجوك لا تسمح لهم بهذا.. هذا لقاء خاص لا يجب تغطيته تلفزيونيًّا بأي حال.. امنعهم من دخول القاعة، فليس لهم أي حق قانوني يبيح انتهاكهم لخصوصية الناس.. أما عن الصحفي فسألتقي به بعد قليل وأتفق

معـه على الالتزام بتغطية اللقاء كخبر، دون تجاوز ذلك لمضمون ما سـيجري أثناء اللقاء..

- وماذا عن الضابطين؟

- لا تشغل بالك بهما.. فنحن لا نخفي أسرارًا و لن نضر بأمن الدولة على أي نحو كان..

- هل تعتقد أن هذا اللقاء قد يشهد عنفًا على نحو أو آخر؟..

- لا أعتقـد ذلـك.. فزملاؤنا يجيـدون الصخب ولا يتجهـون إلى الفعل إلا نادرًا.. سيسـجلون المواقف، كل في مواجهة الآخر، لكن لا مصلحة لهم أو دافع نحو التحول إلى العنف..

- ولا حتى سليم البطراوي؟!

- لا أعتقـد أنـه سـيتجاوز الهجـوم اللفظـي؛ لرغبتـه في الثأر لنفسـه من الزمـلاء الذيـن تجاهلوه على مـدى أربعين سـنة.. هو يعتقد أنه قـد جاء يوم انتقامـه الآن.. لكن تحسـبًا لأي احتـمال لا بد من أن تختـار فردين من الأمن للتناوب على حراسـة الدكتور كامل هلال، فهو أكثر الشخصيات المستهدفة من بين الحاضرين..

تركـت الدكتـور في مكتبـه وتوجهـت نحو الردهـة الرئيسـية، فوجدت تجمعـات مـن الضيوف قد تناثرت على الأرائك والمقاعـد أو تنحت جانبًا في أحاديث جانبية.. لفت انتباهي اشـتباك الشـيخ السـلفي وزوجته في حديث جانبي مع السفير وزوجته، على حين دار حوار يبدو حميمًا ووديًا بين إبراهيم

مروان الذي كان آخر المتحدثين أثناء الغداء والأستاذ الجامعي طارق جاد، الـذي لاحظت أنه كان بين الحين والآخر يختلـس نظرات قلقة نحو زوجتي السفير والشيخ السلفي..

تقـدم مديـر أمن الفندق نحوي مهـرولًا، ليبلغني بأن أحـد عمال النظافة لاحـظ وجـود مسـدس في حجـرة نزيـل اسـمه راضي شـعبان.. فحصـت المعلومـات المسـجلة عـن هذا النزيـل، فوجدت أنـه يعمل مهندسًـا في هيئة السـكك الحديديـة، وقد حضر هنـا تلبية لدعوة الدكتور سـعد، ومنذ وصل لا يـكاد يفـارق زميلـه متـولي المهـدي.. انتابني القلـق الشـديد واحترت في البدايـة كيف أتصرف: هل أخطر شرطة السـياحة أم أبلـغ ضابطي المباحث والمخابرات، أم أخطر الدكتور سـعد، أم أبدأ باسـتدعاء النزيل واسـتجوابه عن سبب وجود السلاح معه؟!

اخـترت البديـل الأخير وتوجهـت لمكتبي.. قبل حضـور النزيل، جاءني اتصـال من أفراد الأمن المسـئولين عن البوابة الخارجية للفندق يشـكون من رد الفعـل العنيـف من جانب أفـراد طاقم قنـاة تليفزيونية، عندمـا أبلغوهم قراري عدم السماح لهم بدخول الفندق.. طلبت أن أكلم رئيسهم، فأسمعني تهديدات متنوعة، وتوعدني ببلاغات قضائية، وهجوم إعلامي يشـوه سمعة الفنـدق والإخوان المسـلمين معًا.. اكتفيـت بتكرار التأكيد عـلى أنه من غير المسـموح لهم حضـور لقاء خاص بـدون دعوة، وأن القانـون يحمي الحق في الخصوصية.. ما جرى بيننا عقب ذلك كان أشـبه بحوار الطرشـان، فالآخر يواصـل تهديداته ووعيده ولا يسـمعني، وأنا لا أعير كلامـه اهتمامًا وأكتفي

بتكرار ما قلته، إلى أن انتابه اليأس، فأغلق السماعة في وجهي وغادر المكان.. ولحسن الحظ لم يحضر مندوبو القناة التليفزيونية الأخرى..

عندما دخل مكتبي المهندس راضي شعبان، وجدته رجلًا أصلع ممتلئ البدن ذا شارب كثيف.. سألني عن سبب استدعائه، فواجهته باكتشافنا حمله مسدسًا معه إلى داخل الفندق.. أفاد بغير اكتراث بأنه مسدس مرخص، وأخرج من حافظته رخصة السلاح.. بعد أن راجعت الرخصة، قلت له: إنه كان يتعين عليه مع ذلك أن يخطر إدارة الفندق بحمله هذا السلاح معه.. اعتذر بعدم معرفته بالقواعد.. طلبت منه إيداع السلاح كأمانة لدى إدارة الفندق لحين المغادرة، فلم يعترض..

اقتربت الساعة من الثامنة فأحسست بقلق متزايد لم أعهده تقريبًا منذ حضرت إلى هذه الواحة.. مررت على حجرة الدكتور سعد فوجدته يستعد للمغادرة متجهًا إلى قاعة الاحتفالات وقد غلب عليه الإرهاق واختفت ابتسامته الودود المعهودة، فلم أمنع نفسي من التعليق:

- هل لقاء الأصدقاء القدامى يجلب معه التعاسة أم السعادة؟

رد بنصف ابتسامة:

- كان من المفترض أن يجلب معه السعادة، لكنها غاية عسيرة على التحقق ما لم يهد الله البشر..

- هل سنبدأ في تمام الثامنة؟

- سنذهب الآن إلى هناك، وبمجرد اكتمال الضيوف سأصعد على المنصة التي أعددتموها وأبدأ في الحديث طالبًا مشاركتهم، آملًا من الله أن تكون مداخلاتهم متسمة بالاتزان والهدوء..

لم يجتمع شمل الحضور إلا نحو الساعة الثامنة والنصف، وعندها بدأ الدكتور سعد حديثه بالترحم على الزملاء الذين توفوا، فغابوا عن هذا اللقاء، وفي مقدمتهم الدكتور أحمد عبد الله أمين اللجنة العليا للطلاب.. ثم عرج بعدها للحديث عن مسيرة الزمن التي تطورت معها أفكار ومشاعر وظروف معظم المحتجين القدامى، وأكثر من ذلك تغيرت أشكالهم وملامحهم، لدرجة أنهم لم يتعرفوا إلى بعضهم البعض إلا بصعوبة.. بعدها طلب من الحضور الوقوف دقيقة وقراءة الفاتحة ترحمًا على من رحل من الزملاء وعلى شهداء ثورة 25 يناير المجيدة..

وقف الجميع، فلاحظت أن معظم الأنظار تتجه نحو الدكتور كامل هلال الذي وجدته قد وقف مثل الآخرين بتلقائية، وبجانبه زوجته وأربعة من الضيوف، ثلاثة رجال وسيدة.. وقبل أن يعود الجمع للجلوس، انبرى سليم البطراوي صائحًا بصوته الجهوري، يطلب قراءة الفاتحة والترحم أيضًا على ضحايا المجلس العسكري شهداء ماسبيرو ومحمد محمود ومجلس الوزراء.. رد عليه واحد من الرجال الذين وقفوا بجوار الدكتور هلال، معلقًا أيضًا بصوت جهوري:

- لا مانع، بشرط أن نترحم أيضًا على شهداء الشرطة والجيش الذين دفعوا حياتهم وهم يؤدون واجبهم في خدمة شعبهم ودولتهم..

عقب سليم ساخرًا:

- شيء رائع أن نساوي بين الجلاد والضحية!

رد الرجل الآخر الذي عرفت أن اسمه إسماعيل الوكيل ويعمل محاميًا:

- ليس جلادًا من يدافع عن مقر عمله ضد هجوم البلطجية والمتآمرين..

- هل تعتبر الثوار الشرفاء بلطجية ومتآمرين؟!.. هل فقدت رشدك يا إسماعيل.. أم انضممت دون أن ندري إلى فلول الحزب الوطني؟

- أنت تعرفني جيدًا يا سليم كما يعرفني معظم الحضور.. لم أنضم يومًا إلى الحزب الوطني ولم أعمل لدى أي حكومة.. لكن ابن شقيقي حسين الوكيل كان أمين شرطة وفقد حياته وهو يدافع عن القسم الذي عمل به أثناء أحداث الثورة.. هل أنسى القانون الذي تعلمته وأشتغل به، والذي يجرم الاعتداء على المنشآت والأقسام، ويعطي ضباطها وجنودها الحق في الدفاع الشرعي؟.. كيف تريدني أن أعتبر ابن شقيقي جلادًا ومجرمًا، وهو فقط كان يؤدي واجبه بشرف؟! قل لي يا بطراوي بأي ذنب قتل وترملت زوجته وتيتم أطفاله؟! إن من قتلوه وزملاءه ليسوا بالتأكيد ثوارًا وليسوا شرفاء..

- أنت إذن تنكر ثورة 25 يناير العظيمة وتنضم إلى مواكب الفلول وتهدر قيمة دماء الشهداء؟

– هـذا غـير صحيح يا بطـراوي.. أنا أنحنـي لدماء الشـهداء الحقيقيين، الذين تدافعوا بسـلمية سـعيًا للتغيـير وللتخلص من النظـام المتكلس الذي شـاخ، ورفعوا عاليًا الأهـداف التي أجمع عليها الشـعب.. لكنني أميز بينهم وبين من اسـتغلوا الثورة النبيلة ليهاجموا مؤسسات الدولة ويحرقوا ويدمروا منشـآتها ومازالوا يفعلـون حتى اليوم.. هـل تُدافع أنت يا سـليم عن أفعال هؤلاء؟!

صمت سـليم البطراوي، فطلب الدكتور سـعد مـن الضيوف الجلوس، كـما طلـب من كل منهم الصعـود تباعًا إلى المنصة، للحديث بضع دقائق إلى الزملاء..

اندهشت عندما وجدت أن أول المستجيبين لدعوة الصعود للمنصة كان راضي شـعبان الذي تقدم بخطى بطيئة تتناسـب مع وزنه الثقيل الذي يعيق حركته.. وزع ابتسامته على الحاضرين ثم قال:

– لا شـك أنها فكرة عبقرية من جانب أخينا سـعد رمضـان لنجتمع من جديد بعد أربعين سنة.. يا لها من مدة طويلة!.. أنا لا أعرف دوافع سعد لهذه المبـادرة.. لكنـي أخمن أنها قد جـاءت بتوجيه من مكتب الإرشـاد للاحتفال بفوزهم وحلفائهم في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة.. منذ أمس، ولأول مرة في بلدنا، يسيطر «الإخوان المسلمين» على البرلمان.. ذهب الحزب الوطني وجـاءت الجماعة!.. ما يؤرقني هو القادم.. لا أعتقد أن الإخوان سيشـغلون أنفسـهم كثـيرًا بقضيـة العدالـة الاجتماعيـة، بـل أكاد أرى أن توجهاتهـم الاقتصاديـة أكثر ليبرالية من سياسـات جمال مبارك ويوسـف بطرس غالي..

هم تجار على شاكلة صديقنا الدكتور سعد.. والتاجر لا يهتم إلا بالمكسب.. أما حقوق الطبقة العاملة فلا يعرفونها، فهم لا يزالون يعيشون في مرحلة ما قبل الثورة الصناعية..

هنا قاطعه رجل اسمه عبد المطلب محمد، شاهدته من قبل غير مرة بصحبة الدكتور سعد، وفهمت أنه زميله في جماعة الإخوان المسلمين، قائلًا:

- نرجو من زميلنا المهندس راضي أن يقتصر في مداخلته على موضوع اللقاء، ويجنبنا الدخول في مهاترات من النوع الذي يجرنا الآن إليه.. لقد بادر أخونا سعد لجمعنا لنسعد برؤية بعضنا بعد طول غياب ونستعيد ذكرياتنا الطيبة، وربما نلم الشمل للسعي للنهوض ببلدنا وأمتنا في عهدها الجديد المبارك، وأنا على يقين من أن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على ذلك خير الجزاء.. فلنوحد يا أخ راضي ولا نفرق..

خرج المهندس راضي عن هدوئه السابق ورد بحدة:

- من نصبك للحديث باسم سعد رمضان؟ هل تعلمكم الجماعة مصادرة الرأي الآخر؟ إلى أين ستقودوننا وأنتم تخافون النقد وتسعون لتكميم الأفواه؟!..

اضطر الدكتور سعد للوقوف ليوجه حديثه للمهندس راضي قائلًا وقد علت ابتسامة شاحبة وجهه:

- لا تغضب يا راضي وقل ما تشاء.. لا أحد يرغب في تكميم الأفواه..

- لا لن أقول جديدًا.. لقد أفقدني رفيقك المتعنت بهجة الكلام..

نزل راضي من على المنصة، فتطلعت لأرى من سيصعد إليها، فدهشت لرؤية السيدة أميمة حسن التي بدأت حديثها بالتعبير عن سعادتها بهذه الفرصة للقاء مجددًا بزملاء الكفاح القديم، ثم أردفت:

- منذ أربعين سنة ونحن فريسة لأسوأ نظم حكم، ولدت حقًّا من رحم ثورة يوليو، لكنها تخلت عن توجهات عبد الناصر القومية والاشتراكية، فجاء انفتاح السادات ومعه الخراب والتدهور والعشوائيات.. وبعدها جاء خليفته مبارك حاملًا الجمود والركود والخصخصة وخلط رأس المال بالسلطة.. والآن جاءنا حكم الإخوان لنعود لعصور البداوة والتخلف.. لكني على يقين أن الثورة مستمرة، ولن نستسلم حتى نحقق أهدافها..

ساد الصمت نحو دقيقة، إلى أن وقف سليم البطراوي مصفقًا بقوة، فتبعه عدد من الضيوف.. وقبل أن تسترد السيدة حديثها، وقف من جديد عبد المطلب محمد قائلًا بغضب:

- أرى وكلي أسف أن كرم الدكتور سعد يستغل بأبشع صورة للتهجم على الإخوان وعليه.. إذا كانت طيبته وأدبه الجم يمنعانِه من الرد، فإن ذلك ليس حالي وغيري من الإخوة.. فقد جاء الوقت الذي يتعين فيه على كل المرجفين الذين دأبوا على ظلمنا ومهاجمتنا بالباطل أن يصمتوا ويستغفروا الله عما فعلوه بنا على مدى عشرات السنين.. لن نقبل الظلم أو الإساءة بعد اليوم، وسنعلي راية الشريعة وأحكامها خفاقة وللأبد إن شاء الله..

ردت السيدة بثبات:

- هذا جيد.. اكشفوا عن حقيقتكم وكفوا عن الخداع الذي أجدتموه.. شعبنا العظيم سيكتشف سريعًا التدليس الذي مكنكم من الفوز في الانتخابات البرلمانية، ولن يكرر الخطأ في المرات القادمة..

وقف من جديد الدكتور سعد محاولًا وضع نهاية لهذا الجدل قائلًا:

- لماذا ننساق إلى الخلاف بعدما توحدنا في ميدان التحرير.. لقد نجح على قوائمنا وبدعمنا العشرات من الناصريين واليساريين.. هم الآن معنا في مجلس الشعب.. مصر في عهدها الجديد تحتاج جميع أبنائها المخلصين.. اسمحوا لي أن أدعو واحدًا من هؤلاء المخلصين الذين نحب الاستماع إليهم وهو الدكتور طارق جاد، ليحدثنا عن رؤيته الشاملة لمستقبل مصر في مرحلة ما بعد الثورة..

تقدم الدكتور طارق بهدوء، نظر في أرجاء القاعة كافة، ثم قال بخليط من المزاح والجدية:

- نظرت حولي آملًا رؤية الثوار أعضاء اللجنة الوطنية للطلبة، فلم أجد سوى العشرات من الرجال والنساء الكهول والعجائز الذين حبسوا تحت أقنعتهم التي غزاها الشيب، الأرواح الحرة الجريئة والضمائر المخلصة الصادقة.. لا شك عندي أن صديقنا الدكتور سعد رمضان قد أخطأ في العنوان.. كان يتعين عليه أن ينتقي مجموعة من أبنائنا وأحفادنا الذين نزلوا إلى ميدان التحرير يوم 25 يناير الماضي، منادين بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، ليجلسوا هنا، في هذا المكان الهادئ الخلاب، ليفكروا في مستقبل مصر، وكيف يتخلصون من وجوه الماضي المُعيقة التي نمثلها نحن بأفكارنا

القديمة البالية ومخاوفنا وشكوكنا المتبادلة الواهية.. لو كان سعد رمضان قد فعل ذلك، فلربما كان لمثل هذا اللقاء قيمة..

فوجئت بإبراهيم مروان يقف ومعه زوجته يصفقان بحماس شديد، فجاراهما عدد من الضيوف.. بعدها استكمل الدكتور جاد حديثه:

- في الآونة الأخيرة انتابني إحساس قوي بأن ما نعانيه، منذ قيام الثورة قبل عام مضى، راجع إلى تمسك كل فريق بموقفه الأناني غير العقلاني.. اليساريون والليبراليون يحتكمون إلى مفاهيم وشعارات تجاوزها الزمن، ويتصرفون بمراهقة ثورية تدعو إلى الرثاء والسخرية.. الإخوان يقفزون لقيادة المركب، وهم رغم براجماتيتهم الواضحة غير مؤهلين لذلك.. يحاولون خداع الجميع للفوز، لكنه سيكون فوزًا بطعم الحنظل المر.. السلفيون يشاركون في الهوجة وقد شمروا جلابيبهم القصيرة، آملين في أن يلتهموا جانبًا من مائدة السُّلطة، وهم مَن أقسموا من قبل على كراهية وحرمانية ممارسة السياسة.. إنه يا سادة «المولد»، بكل مكوناته وطقوسه وفوضاه.. إنه مسلٍّ وجذاب.. لكنه غير عقلاني ومعيق للتقدم والإصلاح.. لن أطيل عليكم حديثي المزعج الذي بالتأكيد سيكرهه معظمكم، معترفًا لكم بأنني أجهل تمامًا متى سينفضُّ هذا المولد وإلى ماذا سيفضي بنا..

ساد الصمت وعلت الدهشة الوجوه، وأخذ الضيوف يجولون بوجوههم بين الحاضرين، كأنهم يكتشفون لأول مرة كَمَّ الشيب الذي غزا الرءوس وحجم التجعيدات التي أتلفت نضارة الوجوه.. بدا لي أن كلًّا منهم كان

يتساءل في أعماقه: هل ما قاله طارق جاد صحيح من أنه لا رجاء منهم، وأن الزمن قد تجاوزهم، وأنهم يعيقون تقدم ورخاء مصر؟!..

انتظرت من منهم سيتحمس للتعقيب على الأستاذ الجامعي.. تحفز الشيخ السلفي محمود طاحون للوقوف للرد، لكني شاهدت شقيق زوجته الشيخ ياسين الشهاوي يشده إلى أسفل، مشيرًا له بالهدوء وعدم التعقيب.. في المقابل تحرك إبراهيم مروان بحماس تجاه المنصة ممسكًا بالميكرفون ليقول:

– لم تكن لديَّ أي نية للتدخل في الحوار اليوم كي لا أنقل لكم إحباطي الذي يتفاقم يومًا بعد آخر، عندما أرى ثورتنا المجيدة تُسرق، ليس فقط ممن أشار إليهم صديقنا الرائع الدكتور طارق، لكن أيضًا ممن هم أسوأ من كل هؤلاء، وتناسى بحسن نية ذكرهم، وهذا هو السر في وقوفي الآن أمامكم.. أيها السادة والسيدات، لقد اجتمعنا في يناير 1972 لنقول للسادات إننا لا نقبل الخداع، ونرفض التلاعب بعقولنا بحجج واهية تؤجل حسم معركة تحرير التراب الوطني.. فعلنا ذلك لأننا نحب مصر ولا نرضى لها الهوان.. في أكتوبر عام 1973، حاربنا بشجاعة واستشهد منا من استشهد وأصيب من أصيب، دفاعًا عن هذا الوطن واستردادًا لأرضه المغتصبة.. في العقود التالية، تعرضنا لما تعرضنا له من أوضاع اقتصادية صعبة، وسوء إدارة جلي، وانتشار للفساد والمحسوبية والفقر، وغياب للديمقراطية الحقيقية.. لكن جذوة حب الوطن لم تخمد.. كنا واثقين أن التغيير سيأتي، وستنهض بلدنا العريقة من جديد..

توقـف إبراهيم مـروان الـذي كان يتكلم بسرعة لاسـترداد أنفاسـه، ثم أضاف:

– أخيرًا جاءت الثورة العظيمة التي قادها أولادنا وبناتنا وشـاركنا فيها، فأضحينا أسـعد شـعوب الأرض.. لكـن ثورتنا لم تلبـث أن سُرقت!.. نعم سُرقت، ليس فقط من الإخوان والسـلفيين والمراهقين السياسـيين من قوى اليسـار، بل، وهذا هـو الأخطر، من أخطبـوط الفوضويـين المتآمرين الذين يريـدون هدم الدولة التي ضحينا كل التضحيات السـابقة من أجل حمايتها، بدعـوى تحقيـق وهم الثـورة الكاملة!.. إن أسـوأ من فينا هم مـن يتزعمون هـذه الحركات التي تثير الاضطراب وتحرق المنشـآت وتهاجم المقار وتسرق المتاحف وتحط من شـأن مؤسسـات الدولة، خاصة قواتنا المسـلحة.. هؤلاء الثـوار المُدعون عـار على مجتمعنا، لأنهـم يجيدون الهدم ولا يعرفـون البناء.. أصواتهم عالية وضجيجهم مفزع.. يطاردوننا في وسائل الإعلام بوجوههم الكريهـة وأفكارهـم المقيتـة.. يحاولون احتلال شـوارعنا وميادينـنا لينغصوا علينا حياتنا.. يفهمون الثورة على أنها ضجيج احتجاجي وصخب إعلامي، أو حرفـة يتكسـبون منهـا، وليس على أنها تضحيـة صادقة من أجـل البلد.. لا أود أن أزيد عما قلت لأعبر أيضًا عن هواجسي بشـأن مصادر تمويلهم من الداخل ومن الخارج..

مـرة ثانية اضطربت أنفاس إبراهيم، فاضطر للتوقف عن الكلام ليتجرع كوب ماء، ثم استطرد وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- أعتذر عن حماسي، فلم أستطع رغم وعودي لزوجتي، كبح نفسي عن قول ما قلت، إبراء لذمتي أمام الله والوطن.. كنت أتمنى من كل قلبي أن نكرر اليوم مشهدنا الذي نحتفل الليلة بذكراه السنوية الأربعين، وقد جلسنا متلاصقي الأجساد، متشابكي الأيادي، على مقاعد قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، لا تفرقنا توجهاتنا السياسية، نشعر أننا أقوى من الشرطة التي تهاجمنا، والحاكم الذي يريد أن يسكت أصواتنا.. لأننا كنا حينئذ مخلصين متجردين من الهوى لا نفكر سوى في مصر وحدها..

ما كاد إبراهيم مروان يصمت قليلًا، حتى وقف سليم البطراوي غاضبًا، ليسأله بتجهم:

- من تقصد بالفوضويين المتآمرين يا «أخينا»؟

رد إبراهيم بتحدٍّ:

- بالطبع أقصدك أنت وأمثالك يا بطراوي!

اندفع سليم البطراوي نحو المنصة كثور هائج.. أيقنت أنه سيفتك بإبراهيم لقوته البدنية الظاهرة وتواضع الحالة الجسمانية للآخر.. أسرعت لأسبقه إلى المنصة لأعطل وصوله إليها، على حين أحاط اثنان من العاملين في الفندق بإبراهيم مروان، ثم سحباه إلى خارج القاعة.. كادت الفوضى تعم، لولا أن تدخل الدكتور سعد راجيًا من ضيوفه العودة إلى الهدوء.. بعدها أصر سليم على أن يمسك بالميكروفون ليرد على ما قيل في حقه.. استهل حديثه بنعت زميله بأبشع الصفات والاتهامات، مما دفع زوجة إبراهيم للخروج سريعًا من القاعة لتلحق بزوجها، ثم استطرد:

- بعـد هـذا اللغـو والإسـفاف الـذي استمعنا لـه منـذ جئنـا إلى هنـا، يتضـح لكـم أن هذا اللقـاء جزء من مخطـط الثورة المضادة، الذي يسـتهدف هدم مكاسـب ثورتنـا المجيدة.. لقد اجتمـع الإخوان مع الفلـول على كلمة سـواء، هي الإطاحـة بالثوار الحقيقيـين.. لكنى أقولها لهم صريحـة أن الثوار لن يغادروا الميادين، وسـيواجهونكم جميعًا ومعكم المجلس العسـكري وما يسمى بالدولة العميقة.. سـنطيح بكم كما أطحنا بمبارك، وسنحقق السيادة للشعب المطحون، خاصة سكان العشوائيات.. ولن ينفع الإخوان فوزهم في الانتخابات التي كسبوها برشاوى أكياس الزيت والسكر.. كذلك سنحطم بقايـا وزارة الداخليـة والشرطة، حتى نقضي على أحلام فلول مبارك بالعودة إلى السلطة مجددًا..

لم يستطع عبد المطلب محمد أن يسيطر على نفسه، فوقف صارخًا:

- بماذا تهذي يا مجنون.. كيف تجمع الإخوان مع الفلول في سَلةٍ واحدةٍ.. إن الإخـوان هـم أكبر فصيل سـاهم في الثورة، وهم الذيـن حموها في موقعة الجمل.. أنت لا تُعَبرُ إلا عن نفسك وبضع عشرات من الانتهازيين أمثالك.. هل نسـيت نفسـك يا بطراوي.. نحن جميعًا نعرف تاريخك الأسـود منذ أيام الجامعة..

هـذه المرة نجح البطـراوي في اندفاعه الهائج في الوصول إلى عبد المطلب، فلطمه بعنف على وجهه، ولم ينقذ الأخير مما هو أسوأ، سوى تدافع زملائهما للحيلولة بينهما.. أخرجنا عبد المطلب أيضًا من القاعة، وتولد لدي إحساس قـوي أن المعركـة القادمـة التي سـيخوضها البطـراوي سـتكون في مواجهة

الدكتور كامل هلال الذي لاحظت أنه قد بقي ساكنًا في مكانه يرقب ما يحدث، وقد علت وجهه ابتسامة باهتة تعكس ربما مزيجًا من الاستنكار والدهشة..

مضى نحو نصف ساعة ولم يعد الهدوء للقاعة، على حين تشكلت حلقات من الضيوف تناقش بصخب ما حدث، وتحاول كل منها، وَفْقًا لتوجه أعضائها، تحميل المسئولية لطرف من الأطراف.. فجأة لفت انتباهي دخول زوجة الدكتور سعد إلى القاعة مسرعة باتجاه زوجها، وهي التي كانت منذ حضورها قد نأت بنفسها في جناحها بعيدة عن الآخرين.. هَمَست له ببضع كلمات، فأسرع مغادرًا القاعة خلفها.. انتابني إحساس غامض بالقلق.. بالفعل، لم تمض سوى خمس دقائق إلا وتلقيت استدعاء من الدكتور للذهاب إليه في مكتبه.. وجدته وحيدًا وحزينًا.. طلب مني أن أقوم لفوري بفض اللقاء ودعوة الضيوف لمغادرة القاعة والتوجه إلى المطعم لتناول وجبة العشاء.. رددت عليه بأننا نحتاج نحو نصف ساعة على الأقل لنكون جاهزين لتقديم الوجبة.. نظر لي برجاء:

- تصرف يا سامي.. المهم أن تفض هذا اللقاء فورًا.. ولا تنس أن تخطرهم بوجوب مغادرتهم الفندق والواحة كلها قبل العاشرة من صباح الغد..

نظرت إليه مذهولًا.. حاولت أن أفهم سبب هذا التغيير المفاجئ لكل ما خططنا له، لكنه أطرق بوجهه نحو الأرض، كاتمًا ألمًا أحسست أنه يعصره.. انتابتني الجرأة لأقول له:

- لن أفعل شيئًا مما تطلبه يا دكتور ما لم أفهم سر هذا التبديل عما أعددناه من ترتيبات..

رفع رأسه نحوي، ثم أجاب بعد تردد، وكأنه استقر أخيرًا على خيار التنفيس عما يجيش بصدره:

- لقد اتصل عبد المطلب بأعضاء في مكتب الإرشاد وعرفهم بما يجري هنا، فانتابهم القلق والغضب.. هاتفني واحد من أبرزهم مُصرًّا على أن أنهي فورًا ما أطلق عليه الحماقة التي أقدمتُ عليها واستغلت في الإساءة للجماعة، وربما تورطها لاحقًا فيما لا يُحمد عُقباه..

- وهل يتعين علينا الاستجابة لما يطلبون؟!

- وهل يرضيك ما يجري في القاعة؟!

احترت كيف أرد، فتركت الدكتور يجتر ألمه، وانسحبت من الحجرة مهمومًا بكيفية النجاح في تحقيق ما طلبه، منّ دون أن أزيد هياج الضيوف المزعجين.. توجهت لفوري للقاعة، بعدما أعطيت تعليماتي لمدير المطعم بالاستعداد لتقديم وجبة العشاء في أسرع وقت ممكن.. وجدت أن الضيوف مازالوا في حالة الفوضى التي تركتهم عليها.. صعدت إلى المنصة وأمسكت بالميكروفون طالبًا منهم الهدوء، لأن لديَّ ما أود أن أخبرهم به.. انتظرت عدة دقائق حتى عاد الهدوء التدريجي.. كنت في تلك الأثناء أحاول ترتيب أفكاري وبث الشجاعة في نفسي.. عندما ساد الصمت قلت:

- ضيوفنا الأعزاء، لقد شرفت ومن يعمل معي في هذا الفندق بحضوركم لزيارتنا، وأنتم أصحاب التاريخ المجيد في الكفاح الطلابي..

لقـد أعددنا وجبة عشـاء مميزة احتفاء بحضوركم، سـنذهـب الآن إلى المطعم لتناولهـا.. كنـت أتمنى أن تطـول إقامتكم معنا خلال الأيـام القادمة، وهو ما سـنفعله بالتأكيـد عما قريب.. أعلم أن بعضكم طلـب المغادرة غدًا والبعض الآخـر بعـد غد.. غير أننـا تلقينا منذ قليـل إخطارًا من شركة السـياحة التي تعمـل معنا بأن هناك تغييرًا قد طرأ، بسـبب الأوضـاع الأمنية في القاهرة، في برنامـج الفوج السـياحي اليابـاني الذي كنا ننتظره بعد يومين.. لهذا سـيصل السـياح قبل ظهر الغد، ومن ثم سـنضطر آسفين لإخلاء جميع غرف الفندق قبل العاشرة صباحًا، تمهيدًا لاستقبالهم..

قبـل أن يفيقـوا مـن أثر كلـماتي، أسرعت بالنـزول من على المنصـة، فاتحًا ذراعي على امتداد طولهما، مشـيرًا نحو الباب الذي يقود نحو المطعم، فتبعني بعضهـم، ثم توالى تحـرك بقيتهم.. تجنبت الظهور أمامهـم في المطعم، مكتفيًا بالمراقبـة من بعيد.. لم يظهر الدكتور سـعد رمضان مجـددًا، كما صعد الدكتور كامـل هـلال وزوجته مبـاشرة إلى جناحهما، مكتفين بطلب إفطـار مبكر من خدمة الغرف، لرغبتهما في مغادرة الفندق في السابعة صباحًا..

في صباح اليوم التالي، حرصت على أن أتواجد منذ سـاعة مبكرة في صالة اسـتقبال الفندق، لتوديع الضيوف بنفسـي.. كان أول المغادرين أفراد العائلة السلفية الذين توجهوا بهدوء نحو السيارة التي ستقلهم إلى القاهرة.. لم يعلقوا بشيء، ولم يشـتكوا من شيء، وأكاد أشـعر أنهم قد تعمدوا تجاهل وجودي.. بعدها بنصف سـاعة، نزل الدكتور كامل هلال وزوجته السويدية، فاقتربت منهما محييًا، فابتسـم الدكتور في وجهي، مما شـجعني على أن أسأله عن سبب

عدم مشاركته في حوار الأمس.. لم يرد مكتفيًا بابتسامته، فتطوعت زوجته للتعقيب:

- اسمع مسيو سامي.. إذا غابت موضوعية حوار يكون غير مجدٍ.. أنا مصدومة من أصدقاء كامل.. كان يحكي عنهم من قبل ذكريات كثيرة حلوة.. فعلًا مصر تمر بمرحلة صعبة.. ربنا معها..

لم أعلق واكتفيت بمرافقتها حتى باب السيارة.. عند عودتي إلى صالة الاستقبال لمحت الدكتور طارق جاد وقد جلس منفردًا على أريكة جانبية في انتظار السفير وزوجته.. قررت الاقتراب منه وانتهاز الفرصة للحوار قليلًا معه، بعدما أعجبتني وأثرت فيَّ مداخلته المختصرة الليلة الماضية.. جلست مبتسمًا في مواجهته وأنا أتمتم:

- كان احتفالًا مشهودًا، لكن من نوع فريد!..

- معك حق.. كنت أتمنى أن يجري على نحو مختلف.. لكنها كانت أمنية غير واقعية..

- كيف؟

- أعتقد أن الدكتور سعد قد توهم أنه بدعوة رفاق الحركة الطلابية في أوائل السبعينيات سيسترجعهم كما كانوا حينئذ.. لقد أغفل بسذاجة تأثير عنصر الزمن.. مَن جاءوا إلى هذا الفندق هم أشخاص مختلفون تمامًا عن هؤلاء الذين عرفناهم منذ أربعين سنة، وإن احتفظوا بذات الأسماء!..

- لكن أليس استرجاع الذكريات القديمة أمرًا رائعًا ومحببًا للنفس؟!

- هذا حقيقي إذا جاء كعملية ذاتية لكل منا، لأننا سنسترجع الماضي كما نتصوره ونحبه ولن نجد عائقًا في ذلك.. المشكلة تأتي عندما تشرك الآخرين في عملية الاسترجاع هذه.. ستفاجأ أن هؤلاء قد خرجوا من الإطار الذي تصورت أنهم مازالوا محبوسين فيه منذ سنوات بعيدة، ليكتسبوا أشكالًا وأفكارًا مختلفة.. سيصدمك بالتأكيد هذا التغير، وسيدمر الصورة الخيالية التي احتفظت بها للماضي طويلًا في مخيلتك..

- هذا تصور فلسفي يصعب عليَّ متابعته..

- دعني أوضح لك المسألة بشكل عملي.. ضمن الذين حضروا هذا اللقاء زميلة قديمة تصادف أن تزوجتها، ثم طلقتها، وبعدها تزوجت هي من شخص آخر، فلم أرها منذ نحو ربع قرن.. قبيل حضوري إلى هنا تملكني حب استطلاع شديد لأراها من جديد، محتفظًا في خيالي بصورتها منذ آخر مرة رأيتها.. في القاعة وجدتها، رغم أني لم أتبين بوضوح ملامح وجهها، سيدة عجوز لا صلة لها بالمرأة الشابة التي انطبعت صورتها في خيالي لسنوات طويلة سابقة.. وإذا كانت قد تَكَلَّمَتْ فلربما تَأَكَّدَتْ بشكل أقوى الفجوة بين واقعها الجديد وصورتها المتخيلة.. واعتقد أنها أيضًا قد فوجئت بأنني قد أضحيت كهلًا، بما يناقض صورة الشاب الذي رأته آخر مرة منذ ربع قرن..

- هل أصابك هذا بالإحباط ولو قليلًا؟!

- ليس إحباطًا بقدر ما هو دهشة.. بحياد، أستطيع النظر للمسألة كلطمة كانت ضرورية للإفاقة من أوهام الماضي.. هي مغامرة كان لا مفر

من خوضها، رغم ما رسبته في نفوسنا من صدمة أو مرارة.. تأكد أن هذا ليس شعوري وحدي، بل أكاد أُحس أنه حال معظم الحضور..

- هل تعتقد يا دكتور أن أحوال البلد بعد الثورة قد تركت أثرها عليكم، ومن ثم على ما جرى في هذا اللقاء؟

- بالتأكيد.. يعلمنا التاريخ أن الشعوب تعيش عقب ثوراتها مرحلة قد تطول أو تقصر من الاضطراب والقلق.. تكون فيها المواقف أكثر حدة وعنفًا والآراء أكثر توهجًا وأقل حكمة وتسامحًا، إلى أن تستقر الأمور تدريجيًّا على وضعها الجديد..

لم أقدر على كبح تساؤل كان يفرض نفسه عليَّ منذ شهور:

- متى إذن نبدأ مرحلة البناء ونحقق أهداف الثورة؟

- سبب التأخير في اعتقادي يرجع لتباين تصورات القوى التي شاركت في الثورة حول ما يجب عمله.. بعض هذه التصورات ساذج وغير قابل للتنفيذ، وبعضها الآخر لا يحقق المصلحة العامة، بل ربما يزيد الأوضاع سوءًا، والبعض الثالث جيد، لكنه يحتاج إلى تهيئة ظروف لضمان النجاح لا تتوافر في حالة الاضطراب السائدة حاليًّا..

- اعتقدت مثل كثيرين أننا سنشهد مصر جديدة بعد تنحي الرئيس السابق..

- تغيير الأشخاص لا يحقق وحده الإصلاح، ولا يقضي فورًا على المشاكل المزمنة..

- أحس في نبرة صوتك باليأس.. هل هذا صحيح؟!

- لا، لست يائسًا، على الأقل في المدى الطويل..

- لماذا؟

- لأن أهدافنا واضحة وهناك شبه إجماع عليها.. أنا وأنت ومعظم الناس نريد مصر دولة قوية في الداخل وفي الخارج، ونحن نريدها دولة ديمقراطية تحمي حريات المواطنين وكرامتهم وحقوقهم، ونحن نريدها دولة عادلة لا يظلم فيها مواطن، ولا تهمش فيها طبقة أو فئة من السكان، ونحن نريدها أيضًا دولة قادرة على زيادة الإنتاج وتحقيق الرخاء لإشباع حاجات مواطنيها.. التحدي الحقيقي الذي يواجهنا هو كيف نحقق كل ذلك سريعًا على أرض الواقع؟

- هذا هو ذاته السؤال الذي كنت سأوجهه لك..

- هنا يأتي ضعف تفاؤلي في المدى القريب.. فالأجيال التي تتصدى حاليًّا لقيادة البلاد شاخت في أفكارها وسلوكها، تتسم بالتردد وتنقصها الحيلة ولا تحب المخاطرة.. لذلك لا أتوقع منها الكثير.. الأمل هو أن تُثبت الأجيال اللاحقة كفاءتها للتصدي للقيادة، بعدما تخلص نفسها من شوائب المراهقة السياسية والشعارات الأيديولوجية والديماجوجية، وتجيد استخدام لغة العصر وأدواته، المبنية على العلم والتكنولوجيا والإدارة الحديثة والخضوع للحساب والمساءلة..

- هل يمكن أن يتحقق ذلك في وقت قريب؟

- أرجو ذلك..

أثناء حواري مع الدكتور طارق جاد اقترب السفير وزوجته، فابتسمت لهما، معتذرًا بأنني لم أستطع كبح رغبتي في الاستماع لرأي الدكتور طارق في الأوضاع التي تمر بها مصر.. عقبت السيدة ليلى عامر زوجة السفير بأن تساؤلي مشروع تمامًا، خاصة أن هذه الأوضاع يغلفها الاضطراب وعدم الوضوح.. شجعني هذا التعقيب على سؤالها مستفسرًا:

- إذن لا يوجد أمل في انفراجة قريبة؟!

ابتسمت السيدة قائلة:

- هل تريد إجابة فلسفية كما نتوقعها من الدكتور طارق، أم تريد إجابة دبلوماسية كما يفعل عادة السفير، أم تريد إجابة صريحة ومؤلمة كما اعتدت أنا أن أفعل؟

- بالتأكيد يسعدني سماع إجابتك الصريحة..

- الأمل سيوجد فقط إذا ثرنا على أنفسنا وصارحنا بعضنا البعض بأننا سئمنا الفساد والمحسوبية والفوضى والكسل والفهلوة وخرق القانون جهارًا نهارًا في كل وقت وكل مناسبة.. الأمل سيوجد فقط عندما نقدس النظام ونحاسب كل منا على ما يفعله بحسم وعدل..

- لماذا لا نفعل ذلك؟!

- لأننا لا نريد مواجهة أنفسنا، ونخاف أخذها بالشدة اللازمة، ونفضل أن نجري وراء صور شتى من السراب، أحيانًا في شكل الخضوع لجماعات

وأحـزاب تدعـي الدفاع عـن المُقدس، وأحيانًـا أخرى في شـكل انتظار قائد منقذ ملهم أو صناعته إن تطلب الأمر، وأحيانًا ثالثة نحلم بمدد العون الذي سيتدفق من الخارج..

لم أقـدر عـلى تفويـت الفرصة دون الاسـتماع أيضًـا لوجهة نظر السـفير، فسألته مبتسمًا:

- وأنـت ياسـيادة السـفير كيـف تـرى الوضـع الحـالي وانعكاسـاته على مستقبلنا؟

- في اللحظـة المعلقـة بـين عتمـة الليـل المُدلهـم وانبـلاج الفجـر المُعطـر بإشراقـات التفاؤل، تبلغ الحيرة مداهـا، وتشرئب نفسي ككل النفوس باحثة عـن الأمل واليقين المفتقد.. في اعتقادي أن واجب كل مخلص متجرد هو أن يتمسك بتفاؤله المعطر بصبر الانتظار الطويل لرؤية إصلاح طال الشوق إليه، ولا يجب أن تحزنه مظاهر الفوضى ونوازع الأثَرة الفجة والخيارات المشوهة، لأن الحكمة الإنسانية والأهداف الجوهرية ستشق يومًا طريقها نحو النور..

فوجئت بهذا الرد الذي وجدت صعوبة بالغة في فهم مصطلحاته الأدبية، وتعجبـت مـن قـدرة الدبلوماسـيين عـلى صياغـة أفكارهـم، دون أن نصل لإجابـة محددة تروي غليلنا.. لاحظـت زوجته الحيرة التي حلت بي، فعقبت ضاحكة:

هكـذا يصـوغ زوجـي عباراته، التـي تتجـاوز قدراتنا، وهكـذا يغرق في التفاؤل الذي أحسده عليه، وإن كنت لا أشاركه فيه في معظم الأحيان..

شكرتهم على حوارهم الممتع وصراحتهم الودودة ورجوتهم أن يزورونا مرات أخرى في ظروف أفضل ولمدد أطول، وانصرفت لأجد أن معظم الضيوف قد نزلوا من حجراتهم إلى المطعم لتناول وجبة الإفطار، قبل اتخاذ إجراءات المغادرة.. كان آخر المغادرين مجموعة لا تزيد على عشرة، بينهم سليم البطراوي والسيدة التي كانت بصحبته، فقد تلكئوا حتى الساعة الحادية عشرة..

منذ الصباح لم يكف البطراوي عن التحرش اللفظي بموظفي الفندق، وعندما رآني تقدم نحوي مستفسرًا:

- أين رئيسك؟ أين مالك الفندق الأخ رمضان الإخواني الرأسمالي؟ هل هرب إلى القاهرة أم يختفي عن الأنظار؟ أم ينيب تابعه الأمين الذي استخدمه في خداع الجميع؟!

أصابني ضيق شديد.. لم أتحمل أسلوبه المستفز، خاصة بعد كل ما شاهدته منه مساء أمس، فاندفعت أقول له، وقد تمكن مني الغضب:

- عادة لا أسمح لنفسي بالرد على استفزازات المتهورين من الزبائن، لكني سأخرج اليوم عن القاعدة وأرد عليك بأنني أرى أن وجودك، بل وجودكم جميعًا، كان يشكل خطرًا شديدًا، ليس فقط على هذا الفندق، بل على الواحة كلها.. أنتم بحاجة للتطهر ومراجعة النفس.. كانت فرصتكم هي في الحضور إلى هذا المكان، حيث يغمره الصفاء وتعم فيه السكينة، التي عادة ما تنقي النفوس من شوائبها.. لكن بدلًا من الاعتراف بالأخطاء والذنوب والتوبة والتطهر، تتعاركون وتتنابزون وتتآمرون على بعضكم البعض.. أنت

وزمـلاؤك يجب أن تتواروا خجـلًا.. بكل صدق عندمـا ترحلون من حيث ما أتيتم، لن آسف أبدًا على ذلك..

حَلت عليه وعلى الواقفين إلى جواره الدهشة، فتركتهم متجهًا صوب مكتبي.. لم تمض سوى ساعة ونصف الساعة تقريبًا إلا وجدت ضابطي المخابرات والأمن الوطني يقتحمان حجرتي وقد بدا عليهما الفزع.. شعرت أن أمـرًا جللًا قد حدث، خاصة عندما استفسرا عن الدكتور سعد رمضان للتأكد عما إذا كان قد غادر الفندق من عدمه.. أكدت لهما أنه بالفعل قد غادر وزوجته الفندق في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحًا، ثم سألتهما وقد نفد صبري:

– ماذا حدث لهما؟ ولماذا هذا القلق الذي ينعكس على وجهيكما؟

رد الرائد مجدي شفيع:

– وصلت إلينا معلومات أن الطريق الفرعي الذي يصل بين واحة الحنين وطريق الواحات البحْرية – الفرافرة قد قطع منذ الصباح، وأن هناك مجهولين قد اعترضوا السيارات التي خرجت من هنا، وأنهم قد أجبروها بعد ذلك على التوجه جنوبًا في اتجاه واحة الفرافرة، ثم بعد مسافة ثلاثين كيلومترًا أوقفوا السيارات وأنزلوا الضيوف وجردوهم من متعلقاتهم وهواتفهم المحمولة، ثم تركوهم واختفوا..

– لابد إذن من التحرك فورًا للوصول إليهم ونجدتهم..

نظر لي ضابط المخابرات باستخفاف قائلاً:

- هذا هو الجانب السهل في الموضوع.. الأخطر هو أنهم دققوا في هوية المسافرين وانتقوا بعضهم، فأركبوهم أربع سيارات لاندروفر وتوغلوا بهم في الصحراء..

- كيف وصلت إليكم هذه المعلومات؟

- اتصلت بنا منذ قليل السيدة أميمة حسن التي نجحت في إخفاء هاتفها المحمول، وأبلغتنا بهذه التفاصيل بعد رحيل الخاطفين ورهائنهم..

- هل ذكرت أسماء المخطوفين؟

- نعم سردت معظم أسمائهم، لكنها ليست على يقين من أن تلك القائمة كاملة..

- من هم هؤلاء؟

- هناك الشيخ السلفي وزوجته وشقيقها، والدكتور كامل هلال وزوجته السويدية، والسفير وزوجته، والمهندس سليم البطراوي ورفيقته، وعدد قليل آخر من أبرز المدعوين..

- وماذا عن الدكتور سعد رمضان وزوجته؟

- لم تكن متأكدة من وجودهما بين المختطفين، لكن الآن بعد التأكد من مغادرتهما الفندق، يتبين لنا أنهما بالفعل ضمنهم..

- إذن ما العمل؟

- لقد رجونا المسئولين في القاهرة إرسال طائرة مروحية لاستطلاع المنطقة لتتبع سيارات الدفع الرباعي، لأنني أتوقع أن تسلك هذه السيارات مدقات صحراوية بعيدًا عن الطريق المرصوف..

- هل تستطيع التكهن بالمكان الذي سيتوجه إليه الخاطفون؟

- هذا أمر صعب في المرحلة الحالية، لكن الاحتمالات تنحصر بين التوجه جنوبًا لقصر الفرافرة أو أبو مقار، وهذا في اعتقادي احتمال ضعيف، لأنه سيعرضهم لكشف أمرهم سريعًا، أو التوجه غربًا، ثم الصعود شمالًا نحو واحة سيوه، ومنها إلى الحدود الليبية، وهذا أيضًا أراه احتمالًا ضعيفًا، لأنه قد يكشف الخاطفين وييسر تتبعهم.. يبقى الاحتمال الراجح عندي هو استمرار الخاطفين في ارتياد مدقات صحراوية يعرفونها باتجاه الجنوب الغربي وصولًا إلى حدود مصر مع كل من السودان وليبيا، ثم ربما التوجه بعدها إلى إحدى هاتين الدولتين أو إلى تشاد..

- ولماذا يفعلون ذلك؟

تطوع الرائد مجدي بالتوضيح:

- أنا أرجح أن الغرض من الاختطاف سياسي، وأن القصد منه هو بث الاضطراب في مصر، ودفع القوى السياسية الوطنية للتصارع فيما بينها.. لابد وأن من يفعل ذلك يكره مصر ويرغب بشدة في زعزعة استقرارها، وتقديري أن هؤلاء ينتمون إلى تنظيمات متطرفة ترتبط على نحو أو آخر بشبكة إرهابية، فهؤلاء يحتقرون القوى السياسية التي ينتمي إليها المختَطَفون، كما أنهم ينشطون من حين لآخر في المثلث الحدودي الجنوبي الغربي لوجود قواعد لهم في جنوب ليبيا وشمال كردفان..

قاطعه ضابط المخابرات:

- دعنـا لا نسـتبق الأحداث.. فقد يكون مجرد حـادث اختطاف إجرامي بغـرض الحصول على فدية.. فلا نتناسـى أن بعـض الصحف قد نشرت عن اللقاء الذي دار في هذا الفندق وذكرت أسـماء أبرز المشـاركين فيه، وبعضهم من ذوي الثروة أو الشهرة، مثل الدكتور سعد رمضان والدكتور كامل هلال والشـيخ ياسـين الشـهاوي والمهندس سـليم البطـراوي وغيرهـم.. وهناك أيضًا احتمال ثالث هو أن يكون هذا الاختطاف تصفية حسـابات بين القوى السياسية ذاتها..

- هـل تقصـد أنه قد يكون مـن تدبير بعض الذين شـاركوا في هذا اللقاء ضد عدد من زملائهم؟

- لم لا !.. لا يجب استبعاد أي احتمال ولو كانت نسبته ضئيلة..

- هل ممكن مثلًا أن يكون هذا اللقاء من تدبير سليم البطراوي؟!

- محتمل، لكن محتمل أيضًا أن يكون من تدبير آخرين..

- مثل من: أنصار النظام السابق؟ أم مكتب الإرشاد؟ أم السلفيين؟!

- وربـما غيرهم أيضًـا.. في غياب المعلومات حتـى الآن كل الاحتمالات تبقى مطروحة..

صحت مفزوعًا:

- لكن ما العمل؟!.. هل سنبقى هنا لنناقش الاحتمالات وننتظر المروحية التي قد لا تأتي؟!

طمأنني الرائد مجدي بأن قوات للشرطة ومكافحة الإرهاب تتحرك الآن بالفعل، بعضها يتقدم جنوبًا من الجيزة، والبعض الآخر يتحرك شمالًا من مدينة الخارجة.. وبدوره أفاد ضابط المخابرات بأن المنطقة العسكرية الجنوبية قد دفعت ببعض وحداتها نحو منطقة الحدث، وأنه واثق من أن الطائرات المروحية ستأتي بعد قليل لتساعد في تتبع المختطفين.. ثم استأذن الضابطان في استعارة سيارة الدفع الرباعي التي يملكها الفندق، للتحرك بها نحو المكان الذي ترك فيه الخاطفون بقية الضيوف، فوافقت على الفور ورغبت في الذهاب معهما، لكنهما أقنعاني بأن وجودي في مكتبي مع دوامي على الاتصال بهما سيكون أجدى فائدة..

بقيت في مكتبي تتنازعني مشاعر مختلطة من الدهشة والفزع والغضب.. انتابني القلق على مصير نزلائي السابقين، خاصة الدكتور سعد رمضان وزوجته.. مرت سريعًا في ذاكرتي مشاهد أيام طفولتي وصباي في الإسكندرية، ثم رحيلي إلى نيوجيرسي، ودراستي وعملي في أمريكا، ثم عودتي مؤخرًا إلى مصر لأدير هذا الفندق.. سألت نفسي: هل مازلت مغرمًا بواحة الحنين؟! وهل لازلت مقتنعًا بأنه يمكنني أن أسوقها للعالم أجمع، كما كنت أفعل دومًا، كملاذ للباحثين عن السكينة والطمأنينة والسلام الدائم؟!

■■■

أحـــدث إصـــدارات

الدكتور

أحمد جمال الدين موسى

- فــتــاة هــايــدلبــرج الأمــريكــيــة.
- لقـــاء فـــي واحـــة الحنـــيـــن «روايـــة».

دار نهضة مصر
للنشر